

رسالة الغفران
أبو العلاء المعري

[to pdf: http://www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم يسّر وأعن

قد علم الجبر الذي نسب إليه جبريل، وهو كلّ الخيرات سبيل، أن في مسكني حماطة ما كانت قطّ أفانية، ولا الناكزة بها غانية، تثمر من مودة مولاي الشيخ الجليل، كبت الله عدوه، وأدام رواحه إلى الفضل وعدوه، ما لو حملته العالية من الشجر، لدنت إلى الأرض غصونها، وأذيل من تلك الثمرة مصونها.

والحماطة ضرب من الشجر، يقال لها إذا كانت رطبة: أفانية، فإذا يبست فهي حماطة. قال الشاعر:

إذا أمّ الوليد لم تطعني حنوت لها يدي بعصا حماط

وقلت لها: عليك بني أقيش، فإنك غير معجبة الشطاط وتوصف الحماطة يالف الحيات لها، قال الشاعر:

أتيح لها، وكان أبا عيال، شجاع في الحماطة مستكن

وإن الحماطة التي في مقرّي لنجد من الشوق حماطة، ليست بالمصادفة إماطة. والحماطة حرقة القلب، قال الشاعر:

وهمّ تملأ الأحشاء منه

فأما الحماطة المبدوء بها فهي حبة القلب، قال الشاعر:

رمت حماطة قلب غير منصرف عنها، بأسهم لحظلم تكن غرباً

وإنّ في طمري لحضباً وكلّ بأذاتي، لو نطق لذكر

شذاتي، ما هو بساكن في الشقاب، ولا بمتشرف على

النقاب، ما ظهر في شتاء وصيف، ولا مرّ بجبل ولا خيف،

يضمّر من محبة مولاي الشيخ الجليل، ثبت الله أركان العلم بحياته،

ما لا تضمّره للولد أمّ، أكان سُمها يدكر أم فقد عندها السُم. وليس هذا الحضب مجانساً للذي عناه الراجز في قوله: وقد تطويت انطواء الحضب وقد علم، أدام الله جمال البراعة بسلامته، أن الحضب ضرب من الحيات، وأنّه يقال حبة القلب حضب.

وإنّ في مترلي لأسود، وهو أعزّ عليّ من عنتره على زبيبة، وأكرم عندي من السُّليك، عند السُّلكة،

وأحق بإيثاري من خفاف السلميّ بخبايا ندبة وهو أبداً محبوب، لا تجاب عنه الأغطية ولا يجوب، لو قدر لسافر إلى أن يلقاه، ولم يجد عن ذلك لشقاء يشقاه. وإنه إذ يذكر، ليؤثت في المنطق ويذكر، وما يعلم أنه حقيقي التذكير، ولا تأنيته المعتمد بنكير. لا أفتأ دائماً فيما رضي، على أنه لا مدفع لما قضي. أعظمه أكثر من إعظام لحم الأسود بن المنذر وكندة الأسود بن معد يكر، وبني هشل بن دارم الأسود بن يعفر ذا المقال المطرب. ولا يبرح مولعاً بذكره كإيلاع سحيم بعميرة في محضره ومبداه، ونصيب مولى أمية بسعداه.

وقد كان مثله مع الأسود بن زمعة، والأسود بن عبد يغوث... والأسودين اللذين ذكرهما اليشكري في قوله:

فهداهم بالأسودين وأمر الله بلغ يشقى به الأشقياء

ومع أسودان الذي هو نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيء، ومع أبي الأسود الذي ذكره امرؤ القيس، في قوله:

وذلك من خبرِ جاعني، ونبتته عن أبي الأسود

وما فارقه أبو الأسود الدؤلي في عمره طرفة عين، في حال الراحة ولا الأين وقارن سويد بن أبي كاهل يرد به على المناهل. وحالف سويد بن الصامت، ما بين المبتهج والشامت. وساعف سويد بن صميع، في أيام الرتب والرّيع وسويد هذا، هو الذي يقول:

يميناً كبرد الأتحمي الممزق

إذا طلبوا مني اليمين، منحتهم

على خير ما كنا، ولم نتفرق

وإن أحلفوني بالطلاق، أتيتها

عبيد غلامي أنه غير معتك

وإن أحلفوني بالعقاق، فقد درى

وكان يألّف فراش سودة بن زمعة بن قيس امرأة النبيّ، صلى الله عليه وسلم، ويعرف مكانه الرسول، ولا ينحرف عنه السؤل، ودخل الحدث مع سودة بن عديّ، وما ذلك بزول بديّ، وحضر في نادٍ حضره الأسودان اللذان هما الهنم والماء، والحرة الغابرة والظلماء. وإنه لينفر عن الأبيضين، إذا كانا في الرّهج معرضين، الأبيضان اللذان ينفر منهما: سيفان، أو سيف وسان، ويصبر عليهما إذا وجدتهما، قال الراجز:

الأبيضان أبردًا عظامي، الماء والفتُّ بلا إدام

ويرتاح إليهما في قول الآخر:

ولكنه يمضي في الحول كله

وما لي إلا الأبييضين شراب

فأما الأبيضان اللذان هما شحم وشباب، فإنما تفرح بهما الربّاب، وقد يبتهج بهما عند غيري، فأما أنا فيئسا من خيري. وكذلك الأحامرة والأهران يعجب لهما أسود ران، فيتبعه حليف ستر، ما نزل به حادث هتر.

وصول الرسالة

وقد وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور ومن قرأها مأجور، إذ كانت تأمر بتقبّل الشرع، وتعيب من ترك أصلاً إلى فرع. وغرقت في أمواج بدعها الزاخرة، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة، ومثلها شفع ونفع، وقرب عند الله ورفع. وألفيتها مفتحةً بتمجيد، صدر عن بليغ مجيد، وفي قدرة ربنا، جلّت عظمته، أن يجعل كلّ حرف منها شبح نور، لا يمتزج بمقال الزور؛ يستغفر لمن أنشأها إلى يوم الدين، ويذكره ذكر محبّ خدين. ولعلّه، سبحانه، قد نصب لسطورها المنجية من اللهب، معاريج من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء، وتكشف سجوف الظلماء، بدليل الآية: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.

شجرة طيبة

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنوية بقوله: ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها. وفي تلك السطور كلم كثير، كلّ عند الباري، تقدّس، أثير. فقد غرس لمولاي الشيخ الجليل، إن شاء الله، بذلك الشاء، شجر في الجنة لذيذ اجتناء، كلّ شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظلّ غاطّ ليست في الأعين كذات أنواط. وذات أنواط، كما يعلم، شجرة كانوا يعظمونها في الجاهلية. وقد روي أن بعض الناس قال: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواط، وقال بعض الشعراء:

كما رفضنا إليه ذات أنواط

لنا المهيمن يكفيننا أعادينا،

والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجر قيام وقعود، وبالمغفرة نيلت السُّعود؛ يقولون، والله القادر على كلِّ شيء عزيز: نحن وهذه الشجر صلّة من الله لعليّ بن منصور، نخبأ له إلى نفخ الصُّور. وتجري في أصول ذلك الشجر، أنهار تختلج من ماء الحيوان، والكواثر يمدُّها في كلِّ أوانٍ؛ من شرب منها التُّغبة فلا موت، قد آمن هنالك الفوت. وسعد من اللبن متحرّفات، لا تغيّر بأن تطول الأوقات. وجعافر من الرحيق المختوم، عزّ المقتدر على كلِّ محتوم. تلك الراح الدائمة، لا الذميمة ولا الدائمة، بل هي علقمة مفترياً، ولم يكن لعفوٍ مقترياً:

تشفي الصُّداع ولا يؤذيه صالبيها، ولا يخالط منها الرأس تدويم

ويعمد إليها المغترف بكؤوس من العسجد، وأباريق خلقت من الزبرجد، ينظر منها الناظر إلى بديّ، ما حلم به أبو الهنديّ، رحمه الله، فلقد آثر شراب الفانية، ورغب في الدنية الدّانية. ولا ريب أنّه يروي ديوانه، وهو القائل:

سيغني أبا الهنديّ عن وطب سالمٍ أباريق لم يعلق بها وضر الزُّبد

مقدمة قرأ كأن رقابها رقاب بنات الماء أفزعها الرعد

هكذا ينشد على الإقواء وبعضهم ينشد:

رقاب بنات الماء ريعت من الرعد

والرواية الأولى إنشاد النحويين. وأبو الهندي إسلاميٌّ، واسمه عبد المؤمن بن عبد القدّوس، وهذان اسمان شرعيان، وما استشهد بهذا البيت إلا وقائله عند المستشهد فصيح، فإن كان أبو الهنديّ ممن كتب وعرف حروف المعجم فقد أساء في الإقواء، وإن كان بنى الأبيات على السكون، فقد صحّ قول سعيد بن مسعدة، في أن الطويل من الشعر له أربعة أضرب. ولو رأى تلك الأباريق أبو زييد لعلم أنّه كالعبد الماهن أو العبيد، وأنّه ما تشبّث بخيرٍ، ورضي بقليل المير وهزىء بقوله:

وأباريق مثل أعناق طير ال ماء قد جيب فوقهن خفيف

هيهات ! هذه أباريق، تحملها أباريق، كأنّها في الحسن الأباريق .

فالأولى هي الأباريق المعروفة، والثانية من قولهم: جارية إبريق، إذا كانت تبرق من حسنها: قال الشاعر:

وغيداء إبريق كأن رضابها جنى النحل ممزوجاً بصهباء تاجر

والثالثة، من قوهم: سيف إبريق، مأخوذ من البريق. قال ابن أهر:

تقلدت إبريقاً، وعلقت جعبةً **لتهلك حياً ذا زهاءٍ وجمال**

ولو نظر إليها علقمة لبرق وفرق، وظنَّ أنه قد طرق، وأين يراها المسكين علقمة، ولعله في نار لا تغير، ماؤها للشارب وغير؟ ما ابن عبدة وما فريقه؟! خسرو كسر إبريقه! أليس هو القائل:

كأن إبريقهم ظبيّ برايبيةٍ **مجللٌ، بسبا الكتان مفدوم**

أبيض أبرزة للضحّ راقبه **مقلد قصب الرّيحان، مفقوم**

نظرةً إلى تلك الأباريق، خيرٌ من بيت الكرمة العاجلية، ومن كل ريقٍ، ضمنته هذه الدار الخادعة، التي هي لكلّ شممٍ جادعةٌ.

ولو بصر بها عدي بن زيد، لشغل عن المدام والصّيد، واعترف بأن أباريق مدامه، وما أدرك من شرب الحيرة وندامه، أمرٌ هينٌ، لا يعدل بنابتٍ من حمصيص، أو ما حقر من خربصيص.

وكنت بمدينة السلام، فشاهدت بعض الورّاقين يسأل عن قافية عدي ابن زيد التي أولها:

بكر العاذلات في غلس الصّب **ح يعاتبنه أما تستفيق؟**

ودعا بالصّبوح فجراً، فجاءت **قينةً في يمينها إبريق**

وزعم الورّاق أن ابن حاجب النعمان سأل عن هذه القصيدة وطلبت في نسخٍ من ديوان عديّ فلم توجد. ثم سمعت بعد ذلك رجلاً من أهل أسترباذ، يقرأ هذه القافية في ديوان العبادي، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم: فأما الأقيشر الأسديّ فإنه مني بقاشر، وشقي إلى يومٍ حاشر، قال ولعله سيندم، إذا تفرّى الأدم:

أفنى تلاديّ، وما جمعت من نشبٍ **قرع القوايزز أفواه الأباريق**

ما هو وما شرابه؟ تقصّت في الحانية آراهه. لو عاين تلك الأباريق لأيقن أنّه فتن بالغرور، وسرّ بغير موجب للسرور. وكذلك إياس بن الأرت، إن كان عجب لأباريق كإورّ الطّف فإن الحوادث بسطت له أقبض كفّ. فكأنه ما قال:

كأن أباريق المدامة بينهم **إوزُّ بأعلى الطّفّ، عوج الحناجر**

ورحم الله العجاج، فإنه خلط في رجزه العلبط والسّجاج، أين إبريقه الذي ذكر فقال:

قطّف من أعنابها ما قطعاً، **فغمّها حولين، ثمّ استودفا**

صهباء، خرطوماً، عقاراً، فرقفاً، فسنّ في الإبريق منها نزفا

من رصف نازع سيلاً رصفاً وكم على تلك الأنهار من آنية زبرجد محفور، وياقوت خلق على خلق الفور، من أصفر وأحمر وأزرق، يخال إن لمس أحرق، كما قال الصنوبري:

تخيَّله ساطعاً وهجه، فتأبى الدنوّ إلى وهجه

وفي تلك الأنهار أوان على هيئة الطير السابحة، والغانية عن الماء السائحة، فمنها ما هو على صور الكراكي، وآخر تشاكل المكاكي، وعلى خلق طواويس وبط، فبعض في الجارية وبعض في الشطّ،

خمر الجنة

ينبع من أفواهاها شراب، كأنه من الرقّة سراب، لو جرع جرعة منه الحكمي حكم أنه الفوز القدمي. وشهد له كل وصاف الخمر، من محدث في الزمن وعتيق الأمر، أن أصناف الأشربة المنسوبة إلى الدار الفانية، كخمر عانة وأذرعان، وهي مظنة للتعات؛ وغزة وبيت راس والفلسطينية ذوات الأحراس؛ وما جلب من بصرى في الوسوق، تبغى به المراجعة عند سوق، وما ذخره ابن بجرة ب وج، واعتمد به أوقات الحج، قبل أن تحرم على الناس القهوات، وتحظر لحوف الله الشهوات. قال أبو ذؤيب:

ولو أنّ ما عند ابن بجرة عندها من الخمر، لم تبلل لهاتي بناطل

وما اعتصر ب صرخد أو أرض شام لكل ملك غير عمام؛ وما تردّد ذكره من كميّت بابل وصريفين وأخذ للأشراف المنيّفين؛ وما عمل من أجناس المسكرات، موقوفات للشارب وموكرات، كالجمعة والبتع والمزر والسُّكركة ذات الوزر؛ وما ولد من النخيل، لكريم يعترف أو بنخيل، وما صنع في أيام آدم وشيث إلى يوم المبعث من معجل أو مكيث إذ كانت تلك النطفة ملكة، لا تصلح أن تكون برعاياها مشتبكة.

ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية إلى الأنوار، ولا هو في موم متوار، ولكن قال له العزيز القادر: كن فكان، وبكرمه أعطي الإمكان. وهاهنا لذلك عسلاً لم يكن بالنار ميسلاً لو جعله الشارب احرور غذاءه طول الأبد ما قدر له عارض موم، ولا لبس ثوب الخموم؛ وذلك كله بدليل قوله: مثل الجنة التي وعد المتّقون، فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات،

فليت شعري عن التمر بن تولب العكليّ، هل يقدر له أن يذوق ذلك الأري، فيعلم أن شهد الفانية إذا قيس عليه وجد يشاكه الشري؛ وهو لما وصف أم حصن وما رزقته في الدعة والأمن، ذكر حوارى بسمن، وعسل مصفى؛ فرحمه الخالق متوفى، فقد كان أسلم وروي حديثاً منفرداً، وحسبنا به للكلم مسرداً. قال المسكين النمر:

خيال طارق من أم حصن

ألم بصحبتى، وهم هجوع،

إذا شأنت، وحوارى بسمن

لها ما تشتهي: عسلاً مصفى،

وهو، أدام الله تمكينه، يعرف حكاية خلف الأحمر مع أصحابه في هذين البيتين، ومعناها أنه قال لهم: لو كان موضع أم حصن أم حفص، وما كان يقول في البيت الثاني؟ فسكتوا، فقال: حوارى بلمص، يعني الفالوذ ويفرّع على هذه الحكاية فيقال: لو كان مكان أم حصن أم جزء وآخره همزة، ما كان يقول في القافية الثانية؟ فإنه يحتمل أن يقول: وحوارى بكشء، من قولهم: كشأت اللحم إذا شويته حتى يببس، ويقال: كشأ الشواء إذا أكله. أو يقول بوزء، من قولهم: وزأت اللحم إذا شويته. ولو قال: حوارى بنسء، لجاز وأحسن ما يتأول فيه، أن يكون من نسأ الله في أجله، أي لها خبز مع طول حياة، وهذا أحسن من أن يحمل على أن النسء اللبن الكثير الماء، وقد قيل: إن النسء الخمر، وفسروا بيت عروة بن الورد على الوجهين:

عادة الله من كذب وزور

سقوني النسء ثم تكنفوني،

ولو حمل حوارى بنسء، على اللبن أو الخمر، لجاز، لأنها تأكل الحوارى بذلك، أي لها الحوارى مع الخمر، وقد حدثت محدث أنه رأى بسيل ملك الروم وهو يغمس خبزاً في خمر ويصيب منه، ولو قيل: حوارى بلزء، من قولهم: لزأ إذا أكل، لما بعد، وتكون الباء في بلزء بمعنى في. ولا يمكن أن يكون روي هذا البيت ألفاً، لأنها لا تكون إلا ساكنة، وما قبل الروي ها هنا ساكن، فلا يجوز ذلك.

فإن خرج إلى الباء: من أم حرب، جاز أن يقول: وحوارى بصرب، وهو اللبن الحامض، ويجوز يارب، أي بعضو من شواء أو قديد، ويجوز بكشب وهو أكل الشواء. فإن قال: من أم صمت، جاز أن يقول: وحواري بكمت، يعني جمع قمره كميته، وذلك من صفات التمر، وينشد للأسود ابن يعفر:

بكل كميته جلدة لم توسف

وكنت إذا ما قرب الزاد مولعاً

وقال الآخر:

ولست أبالي بعدما اُكمتَّ مربدي من التمر، أن لا يمطر الأرض كوكب

ويجوز وحواري بحمت، من قولهم: تمرَّ حمتَّ، أي شديد الحلاوة.
فإن أخرجه إلى الثاء فقال: من أمّ شتَّ، قال: وحواري ببثَّ، والبثُّ: تمرُّ لم يجد كثره فهو متفروق.
فإن أخرجه إلى الجيم فقال: أمّ بَجَّ، جاز أن يقول: وحواري بدجَّ، والدُّجُّ: الفُرُوج، جاء به العمانيُّ في رجزه.

فإن خرج إلى الحاء، فقال: من أمّ شحَّ، جاز أن يقول: وحواري بمحَّ، وبيحَّ، وبرحَّ، وبجحَّ، وبسحَّ.
فالمحُّ: مَحّ البيضة، وبيحُّ: جمع أبيض، من قولهم: كسرَّ أبيض، أي كثير الدَّسم، وقال:

وعاذلة هبت عليّ تلومني، وفي كفها كسرَّ أبيض رذوم

ويجوز أن يعنى بالبحّ القداح، أي هذه المرأة أهلها أيسار، كما قال السلميُّ:

قروا أضيفهم ربحاً ببحَّ، يعيش بفضلهنَّ الحيُّ، سمر

ورحُّ: جمع أرحَّ، وهو من صفات بقر الوحش، أي يصاد لهذه المرأة، ويقال لأطلاق البقر: رحُّ، قال الشاعر الأعشى:

ورحُّ بالزّماع مردّقات، بها تنضو الوغى وبها ترود

والسحُّ: تمرُّ صغير يابس. والجحُّ: صغار البطيخ قبل أن ينضج.
فإن قال: أمّ دحَّ، قال: حواري بمحَّ، ونحو ذلك.
فإن قال: أمّ سعد، قال: حواري بنعد، وهو الرُّطب الذي لان كلُّه.

فإن قال: أمّ وفد، قال: حواري بشقد، وهي فراخ الحجل.
فإن قال: أمّ عمرو، فإنَّ أشبه ما يقول: حواري بتمر.
فإن قال: أمّ كرز، فإنَّ أشبه ما يقول: وحواري بأرز، وفيه لغات ست: أرزُّ على وزن أشدَّ، وأرزُّ على صمَل، وأرزُّ على وزن شغل، وأرزُّ في وزن قفل، ورزُّ مثل جدِّ، ورنز، بنون وهي رديئة.
فإن قال: أمّ ضبس، قال: وحواري بدبس. والعرب تسمي العسل دبساً. وكذلك فسروا قول أبي زبيد:

فنهزة من لقوا حسبتهم أشهى إليه من بارد الدبس

حرّك للضرورة.

فإن قال: من أمّ قرش، جاز أن يقول: حوّارى بورش، والورش: ضرب من الجبن، ويجوز أن يكون مولّداً، وبه سمّي ورشّ الذي يروي عن نافع واسمه عثمان بن سعيد.
والصاد قد مضت.

فإن قال: أمّ غرض، جاز أن يقول: حوّارى بفرض، والفرض: ضرب من التمر، قال الراجز:

إذا أكلت لبناً وفرضاً ذهب طولاً وذهبت عرضاً

وفي نصب طول وعرض اختلافٌ بين المرّدين وسيبويه.

فإن قال: من أمّ حظّ، فإن الأطعمة تقلّ فيها الطاء، كقلّتها في غيرها، لأن الطاء قليلة جدّاً، ويجوز أن يقول: حوّارى بكظّ، أي يكظّها الشّبع، أو نحو ذلك من الأشياء التي تدخل على معنى الاحتيال.
فإن قال: أمّ طلع، جاز أن يقول: حوّارى بخلع، والخلع: هو اللحم الذي كان يطبخ ويحملونه في القروف وهي أوعية من آدم، وينشد:

كلي اللحم الغريض، فإنّ زادي لمن خلع تضمّن القروف

فإن قال: أمّ فرع، جاز أن يقول: حوّارى بضرع، لأن الضروع تطبخ، وربما تطرب إلى أكلها الملوك
فإن قال: أمّ مبع، قال: حوّارى بصبع، والصّبغ ما تغمس فيه اللقمة من مرق أو زيت أو خلّ.
فإن قال: أمّ نخف، قال: حوّارى برخف، والرخف زبدٌ رقيق، والواحدة رخفة، قال الشاعر:

لنا غنمٌ يرضي النزيل حليبها، وزحفٌ يغاديه لها وذبيح

فإن قال: أمّ فرق، قال: حوّارى بعرق، والعرق: عظمٌ عليه لحمٌ من شواءٍ أو قديد.
فإن قال: أمّ سبك، جاز أن يقول: حوّارى بربك، أو بلبك، من قولهم: ربكت الطعام أو لبكته، إذا خلطته، وكان ذلك ممّا فيه رطوبةٌ، مثل أن يخالطه لبنٌ أو سمنٌ، أو نحو ذلك، ولا يقال: ربكت الشعير بالحنطة، إلا أن يستعار.

فإن قال: أمّ تخل، قال: حوّارى برخل، يريد الأنثى من أولاد الصّان، وفيه أربع لغات: رَخِلَ ورَخِلٌ ورِخِلٌ ورِخِلٌ.

فإن قال: أمّ صرم، قال: حوّارى بطرم، والطرّم: العسل، وقد يسمّى السمن طرمّاً.
وقد مضت النون في أمّ حصن.

فإن قال: أمّ دوّ، قال: حوّارى بجوّ، والحوؤ: الجدي، فيما حكى بعض أهل اللغة في قولهم: ما يعرف

حوّاً من لوّ، أي جدياً من عناقٍ .

فإن قال: أمّ كرهه، قال: حواري بوره، يريد جمع أورته، من قولهم: كبشٌ أورته، أي سمين .

فإن قال: أمّ شري، قال: حواري بأري، أي غسل .

وهذا فصل يتّسع، وإنّما عرض في قول تامّ، كخيال طرق في المنام .

ولو خالط منا من غسل الجنان، وما خلقه الله، سبحانه، في هذه الدار الخادعة، كالصاب، والمقر، والسَّلْع، والجعدة، والشَّيْح، والهبيد، لعاد ذلك كلّهُ، وغيره من المعقبات، يعدُّ من اللذائذ المرتقيات، فأض ما كرهه من الصَّاب، كأنّه المعتصر من المصاب، والمصاب: قصب السكر، وأمسى الحدج وكأنّه المتخذ بالأهواز، إلاّ يكن السُّكْر، فإنه مواز؛ ولصارت الراعية في الإبل، إذا وجدت الحنظلة أتخت بها السيدة المحظلة، وهي التي تعظم عليها الغيرة، من قولهم: حظل نساءه، إذا أفرط في الغيرة عليهنّ، قال الراجز:

كه، ولا كهنّ إلاّ حاظلا

ولا ترى بعلاً ولا حلائلا

وانقطعت معاش أرباب القصب في ساحل البحر، وصنع من المرّ الفالوذ المحكم بلا سحر أي بلا خدع .

ولو أن الحارث بن كلدة طعم من ذلك الطّريم لعلم أن الذي وصفه يجري من هذا المنعوت، مجرى الدّفلى الشّاقة من الرّعيدي، ومدوف، ما يكره من القنديد، وذكرت الحارث بقوله:

على ظمءٍ، لشاربه يشاب

فما غسل ببارد ماء مزّن

فكيف لنا به، ومتى الإياب

بأشهى من لقيكم إلينا،

وكذلك السّلوى التي ذكرها الهذلي هي عند غسل الجنّة كأنّها قارّ رمليّ، والقار: شجرٌ مرّ ينبت بالرّمّل، قال: بشرّ:

وما فيها لهم سلعٌ وقار

يرجون الصّلاح بذات كهف،

وعنيت قول القائل:

ألدُّ من السّلوى إذا ما نشورها

فقاسمها بالله جهداً لأنتم

وإذا من الله تبارك اسمه بورود تلك النهار، صاد فيها الوارد سمك حلاوة، لم ير مثله في ملاوة، لو بصر به أحمد بن الحسين لاحتقر الهدية التي أهديت إليه فقال فيها:

يلعب في بركة من العسل

أقل ما في أقلها سمكٌ،

فأمّا الأثمار الخمرية، فتلعب أسماكٌ هي على صور السمك بحريةً وهريةً، وما يسكن منه في العيون النّبعية، ويظفر بصروب التّبت المرعية، إلاّ أنّه من الذهب والفضةً وصنوف الجواهر، المقابلة بالثور الباهر. فإذا مدّ المؤمن يده إلى واحدةٍ من ذلك السمك، شرب من فيها عذباً لو وقعت الجرعة منه في البحر الذي لا يستطيع ماءه الشارب، لحلت منه أسافل وغوارب؛ ولصار الصمّر كأنه رائحة خزامى سهل، طلّته الدّاجنة بدهل، والدّهل: الطائفة من اللّيل، أو نشر مدامٍ خوّارة، سيّارةٍ في القلل سوّارة. وكأني به، أدام الله الجمال ببقائه، إذا استحقّ تلك الرّتبة، ببقين التوبة، وقد اصطفى له نامى من أدباء الفردوس: كأخي ثمالة، وأخي دوس، ويونس بن حبيب الصّبيّ، وابن مسعدة الجاشعيّ، فهم كما جاء في الكتاب العزيز: "ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سررٍ متقابلين، لا يمسهم فيها نصبٌ وما هم منها بمخرجين" فصدر أحمد بن يحيى هنالك قد غسل من الحقد على محمد بن يزيد، فصارا يتصافيان ويتوافيان، كأنهما ندمانا جذيمة: مالكٌ وعقيل، جمعها مبيتٌ ومقيلٌ وأبو بشر، عمرو بن عثمان سيوييه، قد رحضت سويداء قلبه من الضغن على علي بن حمزة الكسائي وأصحابه، لما فعلوا به في مجلس البرامكة. وأبو عبيدة صافي الطوية لعبد الملك بن قريب، قد ارتفعت خلتها عن الرّيب، فهما كأربد وليبد أخوان، أو ابني نويرة فيما سبق من الأوان، أو صخرٍ ومعاوية: ولدي عمرو، وقد أخذوا من الإحن كلّ جمر. والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار. وهو أيّد الله العلم بحياته، معهم كما قال البكريّ:

نازعتهم قضب الرّيحان مرتفقاً،

وقهوة مزّة، راووقها خضل

لا يستفيقون منها وهي راهنةٌ

إلا بهات، وإن علّوا وعن نهلوا

يسعى بها ذو زجاجات له نطفٌ

مقلّص أسفل السّربال، معتمل

ومستجيبٌ لصوت الصّنج يسمعه

إذا ترجع فيه القنية الفضل وأبو عبيدة يذاكرهم بوقائع العرب ومقاتل الفرسان، والأصمعيّ ينشدهم من الشعر ما أحسن قائله كلّ الإحسان.

وقمّش نفوسهم للعب فيقدفون تلك الآنية في أثمار الرّحيق، ويصفقها الماضي المعترض أي تصفيق،

وتقترع تلك الآنية، فيسمع لها أصواتٌ، تبعث بمثلها الأموات. فيقول الشيخ، حسن الله الأيام بطول عمره: آه لمصرع الأعشى ميمون وكم أعمل من مطيئة أمون!! ولقد وددت أنه ما صدته قريشٌ لما نوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ذكرته الساعة لما تقارعت هذه الآنية بقوله في الحائية:

وشمول تحسب العين، إذا
مثل ريح المسك ذاك ريحها،
من زقاق التجر، في باطية
ذات غور، ما تبالي يومها،
وإذا ما الرّاح فيها أزبدت
وإذا مكوكها صادمه
فترامت بزجاجٍ معملٍ
وإذا غاضت رفعا زقنا

صفقت، جندعها نور الذبح
صبها الساقى إذا قيل: توح
جونة، حارية ذات روح
غرف الإبريق منها والقدح
أفل الإزباد عنها، فمصح
جاتباها، كرّ فيها فسبح
يخلف النازح منها ما نزع
طلق الأوداج فيها فانسبح

ولو أنه أسلم، لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس، فينشدنا غريب الأوزان، ثمّا نظم في دار الأحران، ويحدثنا حديثه مع هوزة بني عليّ، وعامر بن الطفيل، ويزيد بن مسهر وعلقمة بن علاثة، وسلامة بن ذي فائش، وغيرهم ممن مدحه أو هجاه، وخافه في الزمن أو رجاه.

ثمّ إنّه، أدام الله تمكينه، يخطر له حديث شيء كان يسمّى التزهة في الدار الفانية، فيركب نجيباً من نجب الجنة خلق من ياقوتٍ ودرّ، في سجسج بعد عن الحرّ والقرّ، ومعه إناء فيهج، فيسير في الجنة على غير منهج، ومعه شيء من طعام الخلود، ذخر لوالد سعد أو مولود، فإذا رأى نجيبه يملع بين كثنان العنبر، وضيمران وصل بصعبر، رفع صوته متمثلاً بقول البكري:

ليت شعري متى تحبُّ بنا النّاء
محقباً زكرةً، وخبز رقاق،
قّة نحو العذيب فالصّيبون
وحباقاً، وقطعةً من نون

يعني بالحباق جرزة البقل.

فيهاتف هاتف: أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشّعْر؟ فيقول الشيخ: نعم، حدثنا أهل ثقنتنا، عن أهل ثقنتهم، يتوارثون ذلك كابرًا عن كابر، حتى يصلوه بأبي عمرو بن العلاء، فيرويه لهم عن أشياخ العرب، حرشة الضباب في البلاد الكلدات وجناة الكمأة في مغاني البداءة، الذين لم يأكلوا شيراز

الألبان ولم يجعلوا الثمر في الثَّبان، أنَّ هذا الشَّعر لميمون بن قيس ابن جندلٍ أخي بني ربيعة بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب بن عليّ بن بكر بن وائلٍ فيقول الهاتف: أنا ذلك الرَّجل، من الله عليّ بعدما صرت من جهنم على شفير، وبيست من المغفرة والتكفير. فيلنتف إليه الشيخ هشاً بشاً مرتاحاً، فإذا هو بشابّ غرانق غبر في النِّعيم المفاقق، وقد صار عشاها حور معروفاً، وانحاء ظهره قواماً موصوفاً، فيقول: أخبرني كيف كان خلاصك من النار، وسلامتك من قبيح الشنار؟ فيقول: سحبتني الزبانية إلى سقر، فرأيت رجلاً في عرصات القيامة يتلألاً وجهه تالؤ القمر، والناس يهتفون به من كلّ أوب: يا محمّد يا محمّد، الشفاعة الشّفاعه! نمّت لكذا ونمت بكذا. فصرخت في أيدي الزبانية: يا محمّد أعثني فإنّ لي بك حرمة! فقال: يا عليّ بادره فانظر ما حرمته؟ فجاءني عليّ بن أبي طالب، صلوات الله عليه، وأنا أعتل كي ألقى في الدّرك الأسفل من النار، فزجرهم عني، وقال: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القاتل:

ألا أيُّهذا السائلِ أين يممت،	فإنّ لها في أهل يثرب موعدا
فأليت لا أرثي لها من كلاله،	ولا من حفيّ، حتى تلاقي محمّدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم	تراحي، وتلقي من فواضله ندى
أجدك لم تسمع وصاة محمّد	نبيّ الإله حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقيّ	وأبصرت بعد الموت من قد تزوداً
ندمت على أن لا تكون كمثلته،	وأنك لم ترصد لما كان أرصدا
فإياك والميتات لا تقربنها!	ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا
ولا تقربين جارةً إن سرّها	عليك حرام، فانكحن أو تأبدا
نبيّ يرى مالا يرون، وذكره	أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

وهو، أكمل الله زينة الخافل بحضوره، يعرف الأقوال في هذا البيت، وإنما أذكرها لأنّه قد يجوز أن يقرأ هذا الهديان ناشيء لم يبلغه: حكى الفراء وحده أغار في معنى غار، إذا أتى الغور، وإذا صحّ هذا البيت للأعشى فلم يرد بالإغارة إلا ضدّ الإنجاد. وروي عن الأصمعيّ روايتان: إحداهما أن أغار في معنى عدا عدواً شديداً، وأنشد في كتاب الأجناس:

فعدّ طلابها وتسلى عنه
بناجية إذا زجرت تغير

والأخرى أنه كان يقدم ويؤخر فيقول: لعمرى غار في البلاد وأنجدا فيحيء به على الزحاف. وكان سعيد بن مسعدة يقول: غار لعمرى في البلاد وأنجدا فيخرمه في النصف الثاني.

إيمان الأعشى

ويقول الأعشى: قلت لعلي: وقد كنت أومن بالله وبالْحساب وأصدّق بالبعث وأنا في الجاهلية الجاهلاء، فمن ذلك قولي:

بناه وصلب فيه وصارا

فما أيبلي على هيكل،

طوراً سجوداً وطوراً جواراً

يرواح من صلوات المليك

إذا النَّسَمَاتِ نَفَضْنَ الْغُبَارَا

بأعظم منك تقى في الحساب

فذهب عليّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، هذا أعشى قيس قد روي مدحه فيك، وشهد أنك نبي مرسل.

فقال: هلاً جاءني في الدار السابقة؟ قال: عليّ: قد جاء، ولكن صدّته قريشٌ وحبه للخمر. فشفع لي، فأدخلت الجنة على أن لا أشرب فيها حمراً؛ فقرت عيناى بذلك، وإن لي منادح في العسل وماء الحيوان. وكذلك من لم يتب من الخمر في الدار الساخرة، لم يسقها في الآخرة. وينظر الشيخ في رياض الجنة فيرى قصرين منيفين، فيقول في نفسه: لأبلغن هذين القصرين فأسأل لمن هما؟ فإذا قرب إليهما رأى على أحدهما مكتوباً: هذا القصر لزهير بن أبي سلمى المزني وعلى الآخر: هذا القصر لعبيد بن الأبرص الأسديّ فيعجب من ذلك ويقول: هذان ماتا في الجاهلية، ولكن رحمة ربنا وسعت كل شيء؛ وسوف ألتمس لقاء هذين الرجلين فأسألهما بم غفر لهما. فيبتدىء بزهير فيجده شاباً كالزّهرة الجنية، قد وهب له قصرٌ من ونية، كأنه ما لبس جلباب هرم، ولا تأفف من البرم. وكأنه لم يقل في الميمية:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين حولاً، لا أبا لك، يسأم! ولم يقل في الأخرى:

ألم ترني عمّرت تسعين حجّة،

وعشرًا تبعاً عشتها، وثمانيا؟ فيقول: جبر جبر! أنت أبو كعب وبجير؟ فيقول: نعم. فيقول، أدام الله عزّه: بم غفر لك وقد كنت في زمان الفترة والناس همل، لا يحسن منهم العمل؟ فيقول: كانت نفسي من الباطل نفوراً، فصادفت ملكاً غفوراً، وكنت مؤمناً بالله العظيم، ورأيت فيما يرى النائم حبلاً نزل من السماء، فمن تعلق به من سكّان الأرض سلم، فعلمت أنّه أمرٌ من أمر الله، فأوصيت بنيّ وقلت لهم عند الموت: إن قام قائمٌ يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه. ولو أدركت محمداً لكنت أول المؤمنين. وقلت في الميمية، والجاهلية على السكنة والسفة ضاربٌ بالجران:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم

ليخفى، ومهما يكنم الله يعلم

يؤخر، فيوضع في كتاب، فيذخر

ليوم الحساب، أو يعجل فينقم فيقول: ألسن القائل:

نشاوى واجدين لما نشاء

وقد أغدو على ثبة كرام

حمياً الكأس فيهم والغناء

يجرؤون البرود وقد تمشت

أفأطلقت لك الخمر كغيرك من أصحاب الخلود؟ أم حرّمت عليك مثلما حرّمت على أعشى قيس فيقول زهير: إن أبا بكرٍ أدرك محمداً فوجبت عليه الحجّة، لأنّه بعث بتحريم الخمر، وحظر ما قبح من أمر؛ وهلكت أنا والخمر كغيرها من الأشياء، يشربها أتباع الأنبياء، فلا حجّة عليّ. فيدعوه الشيخ إلى المنادمة؛ فيجد من ظراف الندماء، فيسأله عن أخبار القدماء. ومع المنصف باطية من الزمرد، فيها من الرّحيق المختوم شيءٌ يمزج بزنجبيل، والماء أخذ من سلسبيل. فيقول، زاد الله في أنفاسه: أين هذه الباطية من التي ذكرها السرويُّ في قوله:

جونة، يتبعها بردينها

ولنا باطية مملوءة

فتّ عن خاتم أخرى طينها

فإذا ما حاردت أو بكأت

ثم ينصرف إلى عبيد فإذا هو قد أعطي بقاء التأييد، فيقول: السلام عليك يا أبا بني أسد. فيقول: وعليك السلام، وأهل الجنة أذكيا، لا يخالطهم الأغبياء، لعلك تريد أن تسألني بم غفر لي؟ فيقول: أجل، وإنّ في ذلك لعجباً! أألفيت حكماً للمغفرة موجباً، ولم يكن عن الرّحمة محجّباً؟ فيقول عبيد: أخبرك أنّي دخلت الهاوية، وكنت قلت في أيام الحياة:

وسائل الله لا يخيب

من يسأل الناس يحرموه

وسار هذا البيت في آفاق البلاد، فلم يزل ينشد ويحفُّ عني العذاب حتى أطلقت من القيود والأصفاد، ثم كرر إلى أن شملتني الرحمة ببركة ذلك البيت، وإن ربنا لغفور رحيم.

فإذا سمع الشيخ، ثبت الله وطأته، ما قال ذاك الرجلان، طمع في سلامة كثير من أصناف الشعراء. فيقول لعبيد: ألك علم بعدي بن زيد العبادي؟ فيقول: هذا منزله قريباً منك. فيقف عليه فيقول: كيف كانت سلامتك على الصراط ومخلصك من بعد الإفراط؟ فيقول: إنني كنت على دين المسيح ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يبعث محمد فلا بأس عليه، وإنما التبعة على من سجد للأصنام، وعد في الجهلة من الأنام. فيقول الشيخ: يا أبا سودة، ألا تنشدني الصادية، فإنها بديعة من أشعار العرب؟ فينبعث منشداً:

زلت قريباً من سواد الخصوص

أبلغ خليلي عبد هند فلا

غير بعيد من غمير اللصوص
بالخب تندى في أصول القصيص
طير، ولا تنكع لهو القنيص
حمراء ملحص كلون الفصوص
شر وجنبت أوان العويص
الكأس وطوف بالخذوف النحوص
مخالفاً هدي الكذوب اللموص
في موكب، أو رائداً للقنيص
نرفع فيهم من نجاء القلوص
والخير قد يسبق جهد الحريص
يذكر مني تلفي أو خلوص
أعراض، إن اللحم ما إن ينوص
متى أرى شرباً حوالى أضيص
فيه ظباء، ودواخيل خوص
بمشي رويداً، كتوقي الرهيص

موازي القرّة، أو دونها،
تجنى لك الكمأة ربعية،
تقنصك الخيل، وتصطادك ال
تأكل ما شئت، وتعتلها
غيببت عني عبد في ساعة ال
لا تنسين ذكري على لذة ال
إنك ذو عهد وذو مصدق
يا عبد هل تذكرني ساعة
يوماً مع الركب، إذا أفضوا
قد يدرك المبطيء من حظّه،
فلا يزل صدرك في ربيعة،
يا نفس أبقي، واتقي شتم ذي ال
يا لبت شعري وإن ذو عجة
بيت جلوف، بارد ظلّه،
والربرب، المكفوف أردانه

ينفخ من أردانه المسك، وال
عنبر، والغلوى، ولبنى قفوص
والمشرف المشمول نسقي به،
أخضر، مطموثاً بماء الخريص
ذلك خير من فيوج على ال
باب، وقيدين، وغلّ قروص
أو مرتقى نيق على نفتق،
أدبر، عود ذي إكاف قموص
لا يثمن البيع، ولا يحمل ال
رَدَف، ولا يعطى به قلب خوص
أو من نسور حول موتى معاً،
يأكلن لحماً من طريّ الفريص

فيقول الشيخ: أحسنت والله أحسنت، لو كنت الماء الراكد لما أسنت. وقد عمل أديب من أدباء الإسلام قصيدة على هذا الوزن، وهو المعروف بأبي بكر بن دريد، قال:

يسعد ذو الجدّ ويشقي الحريص،
ليس لخلقٍ عن قضاء محيص
ويقول فيها:

أين ملوك الأرض من حمير
أكرم من نصّت إليهم فلوص
جيفر الوهّاب أودى به،
دهر على هدم المعالي حريص
إلا أنّك يا أبا سوادة أحرزت فضيلة السبق.
وما كنت أختار لك أن تقول:

يا لبيت شعري وان ذو عجة
لأنك لا تخلو من أحد أمرين: إمّا أن تكون قد وصلت همزة القطع وذلك رديء، على أنّهم قد أنشدوا:

أن لن أقاتل، فألبسوني برقعاً،
وفتخات في اليدين أربعا
ويزيد ما فعلت من إسقاط همزة بعداً أنّك حذف الألف التي بعد النون، فإذا حذف الهمزة من أوّل الكلمة بقيت على حرف واحد، وذلك بما إخلال.
وإمّا أن تكون حققت الهمزة فجعلتها بين بين، ثم اجترأت على تصييرها ألفاً خالصة، وحسك بهذا نقضاً للعادة، ومثل ذلك قول القائل:

يقولون: مهلاً ليس للشيخ عيل
فها أنا قد أعيلت وان رقوب
ولو قلت:

يا لبيت شعري أنا ذو عجة

فحذفت الواو، لكان عندي أحسن وأشبه. فيقول عديُّ ابن زيد: إنما قلت كما سمعت أهل زمي يقولون، وحدثت لكم في الإسلام أشياء ليس لنا بها علم، فيقول الشيخ: لا أراك تفهم ما أريده من الأغراض، ولقد هممت أن أسألك عن بيتك الذي استشهد به سيبويه، وهو قولك:

أرواح مودع أم بكور، أنت، فانظر لأيِّ حالٍ تصير

فإنه يزعم أن أنت يجوز أن يرتفع بفعلٍ مضمّرٍ يفسره قولك: فانظر، وأنا استبعد هذا المذهب ولا أطئك أردته. فيقول عديُّ بن زيد: عني من هذه الأباطيل، ولكني كنت في الدار الفانية صاحب قنص، ولعله قد بلغك قولي:

ولقد أغدوا بطرف زانه
وجه منزوفٍ وخذ كالمسن
ذي تليل، مشنق قانده،
يسر في الكف، نهد، ذي غسن
مدمج كالقدح، لا عيب به،
فيرى فيه، ولا صدع أبين

رمه الباري، فسوى دراه
غمز كفيته، وتخليق السفن
أي ثغر ما يخف يندب له،
ومتى يخل من القود يصن
كربيب البيت يفري جلّه،
طاعة العض، وتسحير اللبّن
فبلغنا صنعه حتى شتا،
ناعم البال لجوجاً في السنن
فإذا جال حمار موحش،
ونعام نافر بعد عنن
شاءنا ذو ميعة يبطرنا
خمر الأرض وتقديم الجنن
يدأب الشدّ بسحّ مرسل
كاحتفال الغيث بالمرّ اليفن
أنسل الدرّعان غرب خذم
وعلا الربرب أزم لم يدن
فالذي يمسكه بحمده يحمده،
تنق كالسيد، ممتدّ الرسن
وإذا نحن لدينا أربع

وقولي في القافية:

ومجود قد أسجهر تناوي
كلون العهون في الأغلاق
عن خريف سقاه نوء من الدلّ
و تدلّي، ولم توار العراقي

ر بعض الرّئال في الأفلاق

مطفلات، يحمين بالأوراق

فل، أو حين نعمة وارتفاق

ج من الخيل، فاضل في السباق

عدو، عبل الشوى أمين العراق

جم لطوف، ولا فساد نراق

نت، وحرب إن قلّصت عن ساق

ركب، عدلاً بالنّابىء المخراق

ن، داني الدماغ للآماق

لم يعبه إلا الأداحي فقد وب

وإران الثيران حول نعاج

وتراهن كالأعزة في المح

قد تبطنته بكفّي خراً

يسر في القياد نهد، ذقيف ال

لم يقيل حرّ المقيظ، ولم يل

غير تيسيره لرغبة إن كا

وله النعجة المريّ تجاه ال

والخدب العاري الزوائد ملحفا

فهل لك أن نركب فرسين من خيل الجنة فنبعثهما على صيرافها، وخيطان نعامها، وأسراب طبائها، وعانات حمرها، فإن للقنيص لذة قد تنغصت لك بما؟ فيقول الشيخ: إنّما أنا صاحب قلم وسلم، ولم أكن صاحب خيل، ولا مَن يسحب طويل الليل، وزرتك إلى منزلك مهناً بسلامتك من الجحيم، وتنعمك بعفو الرحيم. وما يؤمنني إذا ركبت طرفاً زعلاً رتع في رياض الجنة فأض من الأشر مستسعلاً، وأنا كما قال القائل:

فهم ثقّال على أكنافها عنف

لم يركبوا الخيل إلا بعدما كبروا

أن يلحقني ما لحق جلماً صاحب المتجرّدة لما حمل على اليعموم، والتعرض لما لم تسبق بع العادة من الموم وقد بلغك ما لقي ولد رهير لما وقص عن العتد ذي المير، فسلك في طريق وعب، وما انتفع بكاء كعب؛ وكذلك ولدك علقمة، حلّت في العاجلة به النقمة، لما ركب للصيد فأصبح كجدّه زيد، وقلت فيه:

أثويت اليوم لم ترحل!

أنعم صباحاً علقم بن عديّ

وإني لأحار يا معاشر العرب في هذه الأوزان التي نقلها عنكم الثقات، وتداولتها الطبقات؛ ومن كلمتك التي على الرءاء، وأولها:

وقد أتى لما عهدت عصر

قد آن أن تصحو أو تقصر،

دو بالأكف اللامعات سور

عن مبرقات بالبرين، وتب

أعناق من تحت الأكفة درّ

بيض عليهنّ الدّمقس وبال

ويجوز أن يقذفني السابح على صخور زمرد فيكسر لي عضداً أو ساقاً، فأصير ضحكةً في أهل الجنان.

فبيّس عديّ ويقول: ويحك! أما علمت أن الجنة لا يهرب لديها السقم، تنزل بسكنها التّقم؟
فيركبان ساجين من خيل الجنة، مركب كل واحد منهما لو عدل بممالك العاجلة الكائنة من أولها إلى آخرها لرجح بها، وزاد في القيمة عليها. فإذا نظر إلى صوار ترتع في دقاري الفردوس، والدقاري: الرياض، صوب مولاي الشيخ المطرد، وهو الرّمح القصير، لأخنس ذيال قد رتع هناك طويل أيام وليال؛ فإذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قيد ظفر، قال: أمسك، رحمك الله، فإني لست من وحش الجنة التي أنشأها الله سبحانه ولم تكن في الدار الزائلة، ولكني كنت في محلة الغرور أروود في بعض القفار، فمرّ بي ركب مؤمنون قي كري زادهم، فصرعوني واستعانوا بي على السّفر، فعوضني الله، جلّت كلمته، بأن أسكنني في الخلود. فيكف عنه مولاي الشيخ الجليل.

ويعمد لعلج وحشيّ، ما التلف عنده بمخشيّ، فإذا صار الخرص منه بقدر أملة قال: أمسك يا عبد الله، فإن الله أنعم عليّ ورفع عني البؤس، وذلك آتي صادني صائد بمخلب، وكان إهابي له كالسلب، فباعه في بعض الأمصار، وصراه للسّانية صار، فأخذ منه غربّ، شفي بمائة الكرب، وتطهر بتريعه الصّالحون، فشملتني بركة من أولئك، فدخلت الجنة أرزق فيها بغير حساب. فيقول الشيخ: فينبغي أن تتميزّن، فما كان منكّن دخل الفانية فما يجب أن يختلط بوحوش الجنة. فيقول ذلك الوحشيّ: لقد نصحتنا نصح الشقيق، وسوف نمتل ما أمرت.

وينصرف مولاي الشيخ الجليل وصاحبه عديّ فإذا هما برجلٍ يحتلب ناقةً في إناء من ذهب، فيقولان: من الرّجل؟ فيقول: أبو ذؤيب الهذليّ. فيقولان: حيّيت وسعدت، لا شقيت في عيشك ولا بعدت، أحتلب مع أثمار لبن؟ كأن ذلك من الغبن. فيقول: لا بأس! إنما خطر لي ذلك مثلما خطر لكم القنيص، وإني ذكرت قولي في الدهر الأول:

وإن حديثاً منك، لو تعلمينه،

جنى التحل في ألبان عوذ مطافل

تشاب بما مثل ماء المفاصل

مطافيل أبار، حديث نتاجها

ففيّض الله بقدرته لي هذه النّاقة عائداً مطفلاً. وكان بالتّعم متكفلاً، فقامت أحتلب على العادة، وأريد أن أشوب ذلك بضرب نحل، تبعن في الجنة طريقة الفحل.

فإذا امتلاً إناءه من الرّسل، كوّن الباري، جلّت عظمته، خليةً من الجوهر، رتع ثولها في الزّهر، فاجتني

ذلك أبو ذؤيب، ومزج حليبه بلا ريب، فيقولك ألا تشربان؟ فيجرعان من ذلك الحلب جرعاً لو فرقت على أهل سقر لفازوا بالخلد شرعاً. فيقول عديُّ: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد جاءت رسل ربنا بالحقّ. ونودوا أن تلکم الجنة، أو رثتموها بما كنتم تعملون. ويقول، أدام تمكينه، لعديّ: جئت بشيئين في شعرك، وددت أنّك لم تأت بهما، أحدهما قولك:

فصاف، يفرّي جلّه عن سراته

بيدُ الرّهان فارهاً متشابعاً والآخر قولك:

فليت دفعت الهمّ عني ساعة ، فنمسي على ما خيلت ناعمي بال

فيقول عديُّ بعبادته: يا مكبور، لقد رزقت ما يكب أن أن يشغلك عن القريض، إنما ينبغي أن تكون كما قيل لك: "كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون" قوله يامكبور، يريد: يامجبور، فجعل الجيم كافاً، وهي لغة رديئة يستعملها أهل اليمن. وجاء في بعض الأحاديث: أن الحارث بن هانيء بن أبي شمر بن جبلة الكندي، استلحم يوم ساباط فنأدى: يا حكر يا حكر، يريد: يا حجر بن عديّ الأدبر. فعطف عليه فاستنفذه. ويكب: في معنى يجب. فيقول، زاد الله في أنفاسه: إني سألت ربّي عزّ سلطانه، ألاّ يجرمني في الجنة تلذذاً بأدبي الذي كنت أتلذذ به في عاجلتي، فأجابني إلى ذلك، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون.

النابغتان

ويمضي في نزّهته تلك بشابين يتحدان، كلُّ واحدٍ منهما على باب قصرٍ من درٍّ قد أعفي من البؤس والضّرّ. فيسلّم عليهما ويقول: من أنتما رحمكما الله، وقد فعل؟ فيقولان: نحن النابغتان، نابغة بني جعدة ونابغة بني ذبيان. فيقول، ثبتّ الله وطأته: أمّا نابغة جعدة فقد أستوجب ما هو فيه بالحنيفيّة، وأمّا أنت يا أبا أمامة فما أدري ما هيّانك؟ أي ما جهتك، فيقول الذبيانيُّ: إني كنت مقرّاً بالله، وحججت البيت في الجاهليّة، ألم تسمع قولي:

فلا لعمر الذي قد زرته حججاً،

وما هريق على الأنصاب من جسد

ركبان مكة بين الغيل والسند

والمؤمن العائذات الطير تمسحها

وقولي:

حلفت فلم أترك لنفسك ربيّة،

وهل يأتمن ذو إمّة وهو طائع

بمصطحات من لصاص وثبرة،

يردن ألاّ، سيرهنّ تدافع ولم أدرك النّبّي صلى الله عليه وسلم، فتقوم الحجّة عليّ بخلافه. وإنّ الله تقدّست أسماؤه، عزّ ملكاً وجلّ، يغفر ما عظم بما قلّ. فيقول، لا زال قوله عالياً: يا أبا سواده، ويا أبا أمامة، ويا أبا ليلي، اجعلوها ساعة منادمة، فإنّ من قول شيخنا العبادي:

إنّ همّي في سماع وأذن

أيّها القلب تعلّل بددن

ذاقه الشيخ تغنى وأرجحن

وشراب خسروائي، إذا

وقال:

وحديث مثل ماذيّ مشار

وسماع يأذن الشيخ له

فكيف لنا بأبي بصير؟ فلا تتمّ الكلمة إلاّ وأبو بصير قد حمسهم، فيسبّحون الله ويقدّسونه ويحمدونه على أن جمع بينهم، ويتلو، بحلّ الله ببقائه، هذه الآية: "وهو على جمعهم إذا يشاء قدير".

فإذا أكلوا من طيبات الجنّة، وشربوا من شرابها الذي خزنه الله لعباده المتّقين قال، كتّ الله أنف مبغضه: يا أبا أمامة إنك لحصيف الرأي لبيب، فكيف حسن لك لبك أن تقول للنّعمان بن المنذر:

عذب إذا ما ذقته قلت ازدد

زعم الهمام بأنّ فاها بارد

يشفى ببرد لثاتها العطش الصدى

زعم الهمام، ولم أذقه، بأته

ثمّ استمرّ بك القول، حتى أنكره عليك خاصّة وعمامة؟

فيقول النابغة بذكاء وفهم: لقد ظلمني من عاب عليّ، ولو أنصف لعلم أنّي احتترزت أشد احتراز. وذلك أنّ النعمان كان مستهتراً بتلك المرأة، فأمرني أن أذكرها في شعري، فأردت ذلك في خلدي فقلت: إن وصفتها وصفاً مطلقاً، جاز أن يكون غيرها معلقاً. وخشيت أن أذكر اسمها في النّظم، فلا يكون ذلك موافقاً للملك، لأنّ الملوك يأنفون من تسمية نسائهم، فرأيت أن أسند الصّفة إليه فأقول:

زعم الهمام، إذ كنت لو تركت ذكره لظنّ السّامع أن صفتي على المشاهدة، والأبيات التي جاءت بعد، داخلّة في وصف الهمام، فمن تأمل المعنى وجدّه غير مختلّ. وكيف ينشدون: وإذا نظرت فرأيت أقرم مشرقاً وما بعده؟ فيقول، أرغم الله أنف شائنه: ننشد: وإذا نظرت، وإذا لمست، وإذا طعنت،

وإذا نزع، على الخطاب. فيقول النابغة: قد يسوغ هذا، ولكن الأجداد أن تجعلوه إخباراً عن المكلم، لأنّ قولي: زعم الهمام يؤدّي معنى قولنا: قال الهمام، فهذا أسلم، إذ كان الملك إنما يحكي عن نفسه. وإذا جعلتموه على الخطاب قبح: إن نسبتموه إليّ فهو منديّة، وإن نسبتموه إلى التّعمان فهو إزرأً وتنقّض. فيقول: أيدّ الله الفضل بزيادة مدّته: الله درك يا كوكب بني مرّة. ولقد صحف عليك أهل العلم من الرواة، وكيف لي بأبوي عمرو: المازنيّ والشّيبانيّ، وأبي عبيدة، وعبد الملك، وغيرهم من التّقلّة لأسألم: كيف يروون، وأنت شاهد، لتعلم أيّ غير المتحرّض ولا الولاغ؟ فلا يقرّ هذا القول في حدّثة أبي أمامة إلاّ والرواة أجمعون قد أحضرهم الله القادر، من غير مشقّة نالتهم، ولا كلفة في ذلك أصابتهم، فيسلمون بلطفٍ ورفقٍ. فيقول، أعلى الله قوله: من هذه الشّخوص الفردوسية؟ فيقولون: نحن الرّواة الذين شئت إحصارهم آنفاً فيقول: لا إله إلاّ الله مكوّناً مدوّناً، وسبحان الله باعثاً وارثاً، وتبارك الله قادراً لا غادراً!! كيف تروون أيّها المرحومون قول النابغة في الدالّية: وإذا نظرت، وإذا لمست، وإذا طعنت، وإذا نزع، أفتح التاء أم بضمّها؟ فيقولون: بفتحها. فيقول: هذا شيخنا أبو أمامة يختار الضّمّ، ويخبر أنّه حكاه عن التّعمان. فيقولون: هو كما جاء في الكتاب الكريم: "والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين" فيقول، ثبت الله كلمته على التوفيق: مضى الكلام في هذا يا أبا أمامة، فأنشدنا كلمتك التي أوها:

أقامت بها المربع المتجرّدة

ألمّا على المطمورة المتأبّدة،

مضمّخة بالمسك مخضوبة الشوى

بدرٍ وياقوتٍ لها متقلّدة

كأنّ ثناياها، وما ذقت طعمها،

مجاحة نحلٍ في كميتٍ مرّده

له نعمة، في كل يومٍ مجده

ليقرر بها النّعمان عيناً فاتّها

فيقول أبو أمامة: ما أذكر أنّي سلكت هذا القرية قطّ. فيقول مولاي الشيخ، زين الله أيامه ببقائه: إن ذلك لعجب، فمن الذي تطوّع فنسبها إليك؟ فيقول: إنّها لم تنسب إليّ على سبيل التّطوع، ولكن على معنى الغلط والتّوهّم، ولعلّها لرجل من بني ثعلبة بن سعد. فيقول نابغة بني جعدة: صحبني شابٌ في الجاهليّة ونحن نريد الحيرة، فأنشدني هذه القصيدة لنفسه، وذكر أنّه من ثعلبة بن عكابة، وصادف قدومه شكاةً من التّعمان فلم يصل إليه. فيقول نابغة بني ذبيان: ما أجدر ذلك أن يكون! ويقول

الشيخ، كتب الله لو ماثوبة المتقين، لنابعة بني جعدة: يا أبا ليلي ، أنشدنا كلمتك التي على الشين التي تقول فيها:

ولقد أعدو بشرب أنف،
معنا زق إلى سهمه،
فنزلنا بمليح مقفر
ولدينا قينة مسمعة
وإذا نحن بإجل نافر،
فحملنا ما هنا ينصفنا،
ثم قلنا: دونك الصيد به
فأتانا بشبوب ناشط
فأشتوينا من غريض طيب
غير ممنون، وأبنا بغبش

فيقول نابعة بني جعدة: ما جعلت الشين قط رويًا، وفي هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قط: ربش، وسهمه، وخشش.

فيقول مولاي الشيخ الأديب المغرم بالعلم: يا أبا ليلي، لقد طال عهدك بألفاظ الفصحاء، وشغلك شراب ما جاءتك بمنله بابل ولا أذرعات، وثنتك لحوم الطير الراتعة في رياض الجنة، فنسيت ما كنت عرفت، ولا ملامة إذا نسيت ذلك، "إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون، لهم فيها فاكهة وهم ما يدعون".

أما ربش، فمن قولهم: أرض ربشاء إذا ظهرت فيها قطع من النبات وكأنها مقلوبة عن برشاء، وأما السهمه فشيبة بالسفرة تتخذ من الخوص، وأما خشش فإن عمرو الشيباني ذكر في كتاب الخاء أن الخشش ولد الطيبة. فكيف تنشده قولك:

وليس بمعروف لنا أن نردّها صحاحاً، ولا مستنكراً أن تعقراً

أقول: ولا مستنكراً، أم مستنكراً؟ فيقول الجعدي: بل مستنكراً. فيقول الشيخ: فإن أنشد منشد: مستنكراً، ما تصنع به؟ فيقول: أزجره وأزبره، نطق بأمر لا يخبره.

فيقول الشيخ، طول الله له أمد البقاء: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أرى سيبويه إلا وهم في هذا البيت، لأنَّ أبا ليلى أدرك جاهليةً وإسلاماً، وغذي بالفصاحة غلاماً.

وينثني إلى أعشى قيس فيقول:	يا أبا بصيرٍ أنشدنا قولك:
أمن قتلة بالأنقا	ء دارٌ غير محلولة
كأن لم تصحب الحيَّ	بها بيضاء عطبولة
أناةً ينزل القوسيَّ	منها منظرٌ هولاه
وما صهباء من عانة	في الذارع محموله
تولَّى كرمها أصه	ب يسقيه ويغدو له
ثوت في الخرس أعواماً،	وجاءت، وهي مقتوله
بماء المزنة الغرّاً	ء راحت، وهي مشموله
بأشهى منك للظمّا	ن لو أنك مذبوله

فيقول أعشى قيس: ما هذه ممّا صدر عني، وإنك منذ اليوم لمولعٌ بالتحولات.

ويمرُّ رفٌ من إوزٍ الجنة، فلا يلبث أن يتزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظرٍ لأمرٍ، ومن شأن طير الجنة أن يتكلم، فيقول: ما شأنكن؟ فيقلن: أهمننا أن نسقط في هذه الروضة فنغتي لمن فيها من شرب. فيقول: على بركة الله التقدير. فينتفضن، فيصرن جوارى كواعب يرفلن في وشي الجنة، وبأيديهنّ المزهرة وأنواع ما يلتمس به الملاهي. فيعجب، وحقّ له العجب، وليس ذلك ببديعٍ من قدوة الله جلّت عظمته، وعزّت كلمته، وسبغت على العالم نعمته، ووسعت كلّ شيءٍ رحمته، ووقعت بالكافر نقمته. فيقول لإحداهنّ على سبيل الامتحان: اعلمي قول أبي أمامة، وهو هذا القاعد:

أمن آل مية رايح أو مغتد،
عجلان ذا زادٍ وغير مزود؟

ثقيلاً أوّل. فتصنعه، فتجيء به مطرباً، وفي أعضاء السامع متسرّباً. ولو نحت صنمٌ من أحجار، أو دفٌّ أشر عند النجّار، ثمّ سمع ذلك الصوت لرقص، وإن كان متعالياً هبط ولم يراع أن يوقص. فيرد عليه، أورد الله قلبه الخاب، زول، تعجز عنه الحيل والحوّل، فيقول: هلمّ خفيف الثقل الأوّل! فتنبعث فيه بنغمٍ لو سمعه الغريض، لأقرّ أن ما ترئم به مريضٌ. فإذا أجادته، وأعطته المهرة وزادته، قال: عليك بالثقل الثاني، ما بين مثالك والمثاني؛ فتأتي به على قريٍّ لو سمعه عبد الله بن جعفر لقرن أغانيّ بديح

إلى هدير ذي المشفر. فإذا رأى ذلك قال: سبحان الله! كل ما كشفت القدرة بدت لها عجائب، لا تثبت لها النجائب؛ فصيري إلى خفيف الثقل الثاني، فإتتك لجيدةً محسنة، تطرد بغنائك السنّة. فإذا فعلت ما أمر به، أنت بالبحرين، وقالت للأنفس: ألا تمرحين؟ ثم يقترح عليها: الرّمْل وخفيفه، وأخاه الهزج وذفيفة؛ وهذه الألحان الثمانية، للأذن تمنيتها المانية.

فإذا تيقن لها حذافه، وعرف منها بالعود لباقة، هلّل وكبّر، وأطال حمد ربّه واعتبر. وقالك ويحك! ألم تكوني السّاعة إوزة طائرة، والله خلقك مهدية لا حائرة؟ فمن أين لك هذا العلم، كأنتك لجدل النفس خلم؟ لو نشأت بين معبد وابن سريج، لما هجت السامع بهذا الهيح، فكيف نفضت بله إوزة، وهزرت إلى الطّرب أشدّ الهز؟ فتقول: وما الذي رأيت من قدرة بارتك؟ إنك على سيف بحر، لا يدرك له عبر، سبحان من يحيي العظام وهي رميم.

ليبد

فبينا هم كذلك، إذ مرّ شابّ في يده محجن ياقوت، ملكه بالحكم الموقوت، فيسلّم عليهم فيقولون: من أنت؟ فيقول: أنا لبيد بن ربيعة بن كلاب. فيقولون: أكرمت أكرمت! لو قلت: لبيد وسكت، لشهرت باسمك وإن صمت. فما بالك في مغفرة ربك؟ فيقول: أنا بحمد الله في عيش قصر أن يصفه الواصفون، ولديّ نواصف وناصفون، لا هرم ولا برم. فيقول الشيخ: تبارك الملك القدّوس، ومن لا تدرك يقينه الحدوس، كأنتك لم تقل في الدار الفانية: ولقد ستمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس: كيف لبيد ولم تفه بقولك:

بجلى الآن من العيش بجل!

فمتى أهلك فلا أحفله

وجدير طول عيش أن يملّ؟

من حياة قد مللنا طولها

فيقول: هيهات! إنّي تركت

فأنشدنا ميميتك المعلّقة.

الشعر في الدار الخادعة، ولن أعود إليه في الدار الآخرة، وقد عوضت ما هو خير وأبر.

فيقول: أخبرني عن قولك:

أو، يرتبط بعض النفوس حمامها

ترآك أمكنة، إذا لم أرضها،

هل أردت ببعض معنى كلّ؟ فيقول لبيد: كلا، إنّما أردت نفسي، وهذا كما تقول للرجل: إذا ذهب مالك، أعطاك بعض الناس مالا، وأنت تعني نفسك في الحقيقة، وظاهر الكلام واقع على كل إنسان،

وعلى كل فرقة تكون بعضاً للناس.. فيقول، لا فتىء خصمه مفحماً: أخبرني عن قولك: أو يرتبط، هل مقصدك: إذا لم أرضها أو يرتبط، فيكون: لم يرتبط؟ أم غرضك: أترك المنازل إذا لم أرضها، فيكون يرتبط كالحمول على قولك: تراك أمكنة؟ فيقول لبيد: الوجه الأول أردت. فيقول، أعظم الله حظّه في الثواب: فما مغزاك في قولك:

بموتّر تأتاله إبهامها؟

وصبوح صافية وجذب كرينة

فإن الناس يروون في هذا البيت على وجهين: منهم من ينشده تأتاله، يجعله تفتعله، من آل الشيء يؤوله إذا ساسه، ومنهم من ينشد: تأتاله من الإتيان. فيقول لبيد: كلا الوجهين يحتمله البيت، فيقول، أرغم الله حاسده: إن أبا عليّ الفارسيّ كان يدّعي، في هذا البيت، أنّه مثل قولهم: استحي يستحي، على مذهب الخليل وسيبويه لأنهما يريان أن قولهم: استحييت، إنما جاء على قولهم استحي، كما أن استقيمت على استقام، وهذا على مذهب ظريف، لأنّه يعتقد أنّ تأتي مأخوذة من أوى، كأنه بني منها افتعل، فقيل: ائناي، فأعلت الواو كما تعلّ في قولنا: اعتان من العون، واقتال من القول. ثمّ قيل: ائتيت، فحذفت الألف، كما يقال: اقتلت. ثمّ قيل في المستقبل، بالحذف، كما قيل: يستحي. فيقول لبيد: معترض لعنّ لم يعنه، الأمر أيسرّ لما ظنّ هذا المتكلف. ويقول لبيد: سبحان الله يا أبا بصير، بعد إقرارك بما تعلم، غفر لك وحصلت في جنّة عدن؟ فيقول مولاي الشيخ متكلماً عن الأعشى: كأنك يا أبا عقيل تعني قوله:

ل: قد طال بالرّيف ما قد دجن

وأشرب بالرّيف حتى يقا

تصفق ما بين كوبٍ ودنّ

صريفيةً طيباً طعمها،

ت، إمّا نكاحاً وإمّا أزنّ

وأقررت عيني من الغانيا

وقوله:

وسيدّ تيّاً ومستادها

فبت الخليفة من بعها،

وقوله:

حتى دنوت إذ الظلام دنا لها

فظللت أرهاها، وظلّ يحوطها

فأصبت حبة قلبها وطحالها

فرميت غفلة عينه عن شاته،

ونحو ذلك مما روي عنه؛ فلا يخلو من أحد أمرين: إمّا أن يكون قاله تحسیناً للكلام على مذهب الشعراء، وإمّا أن يكون فعله فغفر له. قل يا عبّادي الذّین أسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله، إنّ الله یغفر الذّنوب جميعاً، إنّّه هو الغفور الرّحیم.. إنّ الله لا یغفر أن یشرك به ویغفر ما دون ذلك لمن یشاء، ومن یشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً. ویقول، رفع الله صوته، لنابعة بني جعدة: يا أبا لیلی، إنّی لأستحسن قولك:

طیبة النّشر، والبداهة، وال	علات، عند الرّقاد والنّسم
كأنّ فاها، إذا تنبّه، من	طیب مشیم وحسن مبتسم
یسنّ بالضّرو من براقش، أو	هیلان، أو ضامر من العتم
ركز في السام والزّبيب، أقا	حي كثیر، تعلّ بالرّهم
بماء مزّن، من ماء دومة قد	جرّد في لیل شمال شیم
شجّت به قرقف من الرّاح، إس	فقط عقار، قليلة النّدم
ألقي فيها فلجان من مسك دا	رين، وقلج من فلفل ضم
ردّت إلى أكلف المناكب، مر	سوم، مقيم في الطّین؛ محتدم
جون كجوز الحمار، جرّدة ال	بيطار، لا ناقس، ولا هزم
تهدر فيه، وساورنه كما	

رجّع هدراً من مصعب قطم أين طيب هذه الموصوفة، من طيب من تشاهده من الأتراب العرب؟ كلاً والله! أين الأهل من العرب؟ وأين فوها المذكّر، من أفواه ما ولب إليها المنكر؟ إنّها لتفضل على تلك، فضل الدّرة المختزنة على الحصاة الملقاة، والخيرات الملتزمة على الأعراض المتّقاة. ما سامك أيها الرّجل وزبيبيك؟ ما حسن في العاجلة حبيبيك. وإنّ ثغراً يفتقر إلى قضيب البشام ليحشم حليفه بعض الإحشام! لولا أنّه ضري بالحبر ما افتقر إلى ضرو مطلوب، أو غصن من العتم مجلوب. وما الماء الذي وصفته من دومة، وغيره ينافي اللّومة؟ أليس هو إن أقام أجن، ولا يدوم للماكث إذا دجن؟ وإن فقد برد الشّمأل؛ رجّع كغيره من السّمّل. تلقي الغسر فيه الهابة، وتشبه الغراء الشّابة. والغراء: الهاجرة ذات السّراب. وما قرقفك هذه المشجوجة، ولو أنّها للشّربة محجوبة؟ قربت من حاجتك فلا تنط، لا كانت الفيهج ولا الإسفنت؛ طالما ثملت في وفقتك فندمت، وأنفقت ما تملك فعدمت.

ما عقارك وما فلجارك؟ زالت عن مقلتك دجارك ! ولو دخل مسك دارين، جنة ربنا الموهوبة لغير المارين، لعدّ في تراهما الذفر كصيق المقتول، أو دنس قدم مبتول .

زعمت أنّها تطيب بالفلفل، وشبهها غيرك بنسيم القرنفل ! إنّ في هذه المترلة لنشراً، لا يزيد على نشر الفانية عشراً، ولكن يشفُّ بعدد لا يدرك، ليس وراءه مترك .
نزاهة لهذه القهوة أن تدّخر في أكلف مناكب، من حفظه عدّ الناكب! أصبح بطينها مرسوماً، وضع في المتربص وسوماً، فهو جون كجوز الحمار، لا سلم ذخراً للحمّار! ليس بناقس ولكن منقوص، ذمه المتحتف ومن فناؤه القوس تهر في الصهباء المعتصرة وهي قرب نتاج، كالسّقاب الموضوعه بغير خداج. فإذا وصلت سنّ البازل بطل الهدير، وأدارها في الكأس مدير .
ويخطر له، جعل الله الإحسان إليه مربوباً، وودّه في الأفتدة مشوباً، غناء القيان بالقسطاط ومدينة السلام. ويذكر ترجيعهنّ

ميمية المخبل السعدي

فتندفع تلك الجواري التي نقلتهنّ القدرة من خلق الطير اللاقطة، إلى خلق حور غير متساقطة، تلحن قول المخبل السعدي:

وصبا، وليس لمن صبا عزم

ذكر الرباب وذكرها سقم

عيني، فماء شؤونها سجم

وإذا ألمّ خيالها طرفت

سلك النظام، فخانته النظم

كاللؤلؤ المسجور توبع في

فلا يمرّ حرف ولا حركة، إلا ويوقع مسرةً لو عدلت بمسرات أهل العاجلة، منذ خلق الله آدم إلى أن طوى ذريته من الأرض، لكانت الزائدة على ذلك، زيادة اللج التموج على دمعة الطفل، والهضب الشامخ على الهباءة المنتفضة من الكفل .

ويقول لندمائه: ألا تسمعون إلى قول السعدي:

بغد، ولا ما بعده علم

وتقول عاذنتي، وليس لها

نّ المرء، يكرب يومه العدم

إنّ الثواء هو الخلود، وإ

عنقاء، تقصر دونها العصم

ولئن بنيت لي المشقر في

لتنقبن عني المنية إ

ن الله ليس كحكمه حكم

فيقول إنه المسكين، قال هذه الأبيات، وبنو آدم في دار المحن والبلاء، يقبضون من الشدائد على السلاء؛ والوالدة تخاف المنية على الولد، ولا يزال رعبها في الخلد؛ والفقر يرهب ويتقى، والمال يطلب ويستبقى؛ والسغب موجود والظماء، والكمه معروف والكماء؛ ولم يكف للغير عنان، ولا سكنت بالعمو الجنان. فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلنا دار المقامة من فضله، لا يمسننا فيها نصب ولا يمسننا فيها لغوب.

فبارك الله القدوس! نقل هؤلاء المسمعات من زي ربّات الأجنحة، إلى زي ربّات الأكفال المترجحة؛ ثمّ ألهمن بالحكمة حفظ أشعار لم تمرر قبل بمسامعهنّ، فجئن بها متقنة، محمولة على الطرائق ملحنة، مصيبة في لحن الغناء، مترهة عن لحن الهجاء. ولقد كانت الجارية في الدار العاجلة، إذا تفرّست فيها النجابة، وأحضرت لها الملحنة لتلقي إليها ما تعرف من ثقيل وخفيف، وتأخذها بماخذ غير ذفيف؛ تقيم معها الشهر كريتاً، قبل أن تلقن كذباً حبريتاً: بيتاً من الغزل أو بيتين، ثم تعطى المائة أو المائتين. فسبحان القادر على كل عزيز، والمميّز لفضله كلّ مزيّز.

رباب

ويقول نابغة بني جعدة، وهو جالس يستمع: يا أبا بصير أهذه الربّاب التي ذكرها السعديّ، هي ربابك التي ذكرتها في قولك:

ن يعطي الجزيل، ويرخي الإزارا

بعاصي العواذل، طلق اليدي

ت كوب الزباب له فاستدارا

فما نطق الديك حتى ملأ

ة تراموا به غرباً أو نضاراً

إذا انكبّ أزهر بين السقّا

فيقول أبو بصير: قد طال عمرك يا أبا ليلى، وأحسبك أصابك الفند، فبقيت على فندك إلى اليوم! أما علمت أنّ اللواتي يسمّين بالربّاب أكثر من أن يحصين؟ أفتظن أنّ الربّاب هذه، هي التي ذكرها القائل:

خزراً كأنهم غضاب

ما بال قومك يا رباب

ك ودونك الخرق البياب

غاروا عليك، وكيف ذا

أو التي ذكرها امرؤ القيس في قوله:

ولميس، قبل حوادث الأيام

دار لهند، والربّاب، وفرنتى،

ولعلّ أمّها أمّ الرّباب المذكورة في قوله:

وجارتها أمّ الرّباب بمأسل

فيقول نابغة بني جعدة: أتكلمني بمثل هذا الكلام يا خليع بني ضبيعة، وقد مُتّ كافراً، وأقررت على نفسك بالفاحشة، وأنا لقيت النبيّ، صلى الله عليه وسلّم، فأنشدته كلمتي التي أقول فيها:

بلغنا السّماء مجدنا وسنّاعنا، وإنّا لنبغى فوق ذلك مظهراً!

فقال: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقلت: إلى الجنّة بك يا رسول الله! فقال: لا يفضض الله فاك. أغرّك أن عدّك بعض الجهّال رابع الشعراء الأربعة؟ وكذب مفضّلك، وإنّي لأطول منك نفساً، وأكثر تصرّفاً. ولقد بلغت بعدد البيوت ما لم يبلغه أحد من العرب قبلي، وأنت لاه بعفارتك، تفتري على كرائم قومك. وإن صدقت فخرياً لك ولمقارك! ولقد وفّقت الهزّانية في تخليتك: عاشرت منك التابع، عشي فطاف الأحوية على العظام المنتبذة، وحرص على انتبّاث الأجداث المنفردة. فيغضب أبو بصير فيقول: أتقول هذا وإنّ بيتاً بما بنيت ليعدل بمائة من بنائك؟ وإن أسهبت منطقتك، فإنّ المسهب كحاطب الليل. وإنّي لفي الجرثومة من ربيعة الفرس، وإنّك لمن بني جعدة، وهل جعدة إلا رائدة ظليم نفور؟ أتعيرني في مدح الملوك؟ ولو قررت يا جاهل على ذلك لهجرت إليه أهلك وولدك، ولكنك خلقت جباناً هداناً، لا تدلج في الظلماء الدّاجية، ولا تمجّر في الوديقة الصاخدة. وذكرت لي طلاق الهزّانية ولعلّها بانت عني مسرّة الكمد، والطلاق ليس بمنكر للسُّوق ولا للملوك. فيقول الجعديّ: اسكت يا ضلّ بني ضلّ، فأقسم أنّ دخولك الجنّة من المنكرات، ولكنّ الأفضية جرت كما شاء الله! لحقّك أن تكون في الدّرك الأسفل من التّار، ولقد صلي بها من هو خير منك، ولو جاز الغلط على ربّ العزّة، لقلت: إنّك غلط بك! ألسّ القاتل:

ب، فبتُّ دون ثيابها

للنّوم، بعد لعابها

لُ مسودّ يرمى بها

ولمست بطن حقاها

ك عبيرها بملاها

مرفوعة لشرابها

فدخلت إذ نام الرّقي

حتى إذا ما استرسلت

قسّمته نصفين ك

فثنيت جيد غريرة،

كالحقّة الصّقراء صا

وإذا لها تامورة

واستقللت ببني جعدة، وليوم من أيامهم يرجح بمساعي قومك. وزعمتني جباناً وكذبت! لأننا أشجع منك ومن أبيك، وأصبر على إدلاج المظلمة ذات الأريز، وأشدُّ إيغالاً في الهاجرة أمَّ الصَّخدان.
ويشب نابغة بني جعدة على أبي نصير فيضربه بكوز من ذهب. فيقول: أصلح الله به وعلى يديه: لا عربدة في الجنان، إنما يعرف ذلك في الدار الفانية بين السَّفلة والهجاج، وإثك يا أبا ليلى لمتترع. وقد روى في الحديث، أن رجلاً صاح بالبصرة: يا آل قيس! فجاء النابغة الجعديُّ بعصيَّة له، فأخذه شرط ابي موسى الأشعريَّ فجلده لأنَّ النبيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: من تعزَّى بعزاء الجاهليَّة فليس منّا. ولو لا أنَّ في الكتاب الكريم: "لا يصدَّعون عنها ولا يزفون" لظنَّناك أصابك نرف في عقلك. فأما أبو بصيرٍ فما شرب إلاَّ اللَّبن والعسل، وإنَّه لوقور في المجلس، لا يخفُّ عند حلِّ الحبوة. وإنَّما مثله معنا مثل أبي نواسٍ في قوله:

أيُّها العاذلان في الراح لوما
لا أدوق المدام إلاَّ شميما
نالني بالعتاب فيها إمام
لا أرى لي خلفه مستقيما
إنَّ حظيَّ منها، إذا هي دارت،
أن أراها، وأن أشمَّ النَّسيما
فاصرفاها إلى سواي، فإني
لست إلا على الحديث نديما
فكأنِّي وما أحسنَّ منها،
قعدِيُّ يحسنَّ التحكيما
لم يطق حملة السِّلاح إلى الحر
ب، فأوصى المطيق ألاَّ يقيما

فيقول نابغة بني جعدة قد كان النَّاس في أيام الخادعة يظهر عنهم السَّفه بشرب اللَّبن، لا سيَّما إذا كانوا أرقاءً لناماً، كما قال الراجز:

يا ابن هشام أهلك النَّاس اللَّبن
فكلُّهم يغدو بسيفٍ وقرن

وقال آخر:

ما دهر ضبَّة، فاعلم، نحت أثلتنا
وإنَّما هاج من جهالها اللَّبن

وقيل لبعضهم: متى يخاف شرُّ بني فلان؟ قال: إذا ألبنوا. فريد، بلَّغه الله إرادته، أن يصلح بين التُّدماء، فيقول: يجب أن يحذر من ملكٍ يعبر فيرى هذا المجلس، فيرفع حديثه إلى الجبار الأعظم، فلا يجرُّ ذلك إلاَّ ما تكرهان، واستغنى ربُّنا أن ترفع الأخبار إليه، ولكن جرى مجرى الحفظة في الدار العاجلة، أما علمتما أن آدم خرج من الجنَّة بذنبٍ حقير، فغير آمنٍ من ولد أن يقدر له مثل ذلك.

فسألتك يا أبا بصير بالله هل يهجس لك تمّي المدام؟ فيقول: كلا والله! إنما عندي لمثل المقر لا يخطر
 ذكرها بالخلد. فالحمد لله الذي سقاني عنها السلوانة، فما أحفل بأمّ زنبقٍ أخرى الدهر.
 وينهض نابغة بني جعدة مغضباً، فيكرهه، جنبه الله المكاره، انصرافه على تلك الحال، فيقول: يا أبا
 ليلي، إن الله، جلّت قدرته، منّ علينا بهؤلاء الحور العين اللواتي حوّهنّ عن خلق الإوز، فاختر لك
 واحدة منهنّ فلتنذهب معك إلى مترلك، تلاحنك أرقّ اللّحان. وتسمعك ضروب الأّلحان. فيقول لبيد
 بن ربيعة: إن أخذ أبو ليلي قينةً، وأخذ غيره مثلها، أليس ينتشر خبرها في الجنّة، فلا يؤمن أن يسمّى
 فاعلو ذلك أزواج الإوز.
 فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان.

حسان بن ثابت

ويمرُّ حسان بن ثابت فقولون: أهلاً أبا عبد الرحمن، ألا تحدّث معنا ساعة؟ فإذا جلس إليهم قالوا: أين
 هذه المشروبة من سيبتك التي ذكرتها في قولك:

يكون مزاجها عسل وماء

كأن سبيبة من بيت رأس

من التّفاح هصره اجتناء

على أنيابها، أو طعم غضّ

كواكبه، ومال بها الغطاء

على فيها، إذا ما اللّيل قلّت

فهنّ لطيبّ الرّاح الفداء

إذا ما الأشربات ذكرن يوماً

ويحك! ما استحييت أن تذكر مثل هذا في مدحتك رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فيقول: إنّه كان
 أسحج خلقاً ممّا تظنّون، ولم أقل إلا خيراً، لم أذكر أنّي شربت خمرًا، ولا ركبت ممّا حظر أمراً، وإنّما
 وصفت ريق امرأة، يجوز أن يكون حلاً لي، ويمكن أن أقوله على اللّظنّ. وقد شفّع صلى الله عليه
 وسلم في أبي بصير بعد ما تهكّم في مواطن كثيرة، وزعم أنّه مسترّ، مفترياً أو ليس بمفتر. وما سمع
 بأكرم منه صلى الله عليه وسلم: لقد أفكت فجلدني مع مسطحٍ ثم وهب لي أخت مارية فولدت لي
 عبد الرحمن، وهي خالة ولده إبراهيم.

وهو، زين الله الآداب ببقائه، يخطر في ضميره أشياء، يريد أن يذكرها لحسان وغيره، ثم يخاف أن
 يكونوا لما طلب غير محسنين، فيضرب عنها إكراماً للجليس، مثل قول حسان:

يكون مزاجها عسل وماء

يعرض له أن يقول: كيف قلت يا أبا عبد الرحمن: أيكون مزاجها غسل وماء، أم مزاجها غسلًا وماء، أم مزاجها غسل وماء على الابتداء والخبر؟ وقوله:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره؛ سواء

يذهب بعضهم إلى أن من محذوفة من قولك: ويمدحه وينصره، على أن ما بعدها صلة لها. وقال قوم: حذف على أنها نكرة، وجعل ما بعدها وصفاً لها، فأقيمت الصفة مقام مقام الموصوف. ويقول قائل من القوم: كيف جبنك يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول: ألي يقال هذا وقومي أشجع العرب؟ ماذا اراد سئتهم أن يميلوا على أهل الموسم بأسيافهم، وأجاروا النبي، صلى الله عليه وسلم، على أن يحاربوا معه كل عنود؛ فرمتهم ربيعة ومضر وجميع العرب عن قوس العداوة، وأضمرُوا لهم ضغن الشنآن. وإن ظهر مني تحرُّز في بعض المواطن، فإتما ذلك على طريقة الحزم، كما جاء في الكتاب الكريم: ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئَةٍ، فقد باء بغضبٍ من الله، ومأواه جهنم وبئس المصير.

عوران قيس

ويفترق أهل ذلك المجلس، بعد أن أقاموا فيه كعمر الدنيا أضعافاً كثيرة، فبينما هو يطوف في رياض الجنة، لقيه خمسة نفرٍ على خمس أبنق، فيقول: ما رأيت أحسن من عيونكم في أهل الجنان! فمن انتم خلد عليكم التعميم؟ فيقولون: نحن عوران قيس: تميم بن مقبل العجلاني وعمرو بن أحمَر الباهلي والشماخ، معقل بن ضرار، أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، وراعي الإبل، عبيد بن الحصين التميمي، وحميد ابن ثور الهلالي.

قصيدة الشماخ

فيقول للشماخ بن ضرار: لقد كان في نفسي أشياء من قصيدتك التي على الزاي، وكلمتك التي على الجيم، فأنشدنيهما لا زلت مخلداً كريماً. فيقول: لقد شغلني عنهما التعميم الدائم فما أذكر منهما بيتاً واحداً. فيقول لفرط حبه الأدب وإيثاره تشييد الفضل: لقد غفلت أيها المؤمن وأضعت! أما علمت أن كلمتيك، أنفع لك من ابنتيك؟ ذكرت

بهما الموطن، وشهرت عند راكب السّفَر والقاطن؛ وإنّ القصيدة من قصائد النابغة، لأنفع له من ابنته عقرب، ولعل تلك شانتة، وما زانتة، وأصاها في الجاهلية سباء، وما وفر لأجلها الحباء. وإن شئت أن أنشدك قصيدتيك، فإن ذلك ليس بمتعذرٍ عليّ. فيقول: أنشدني، ضفت عليك نعمة الله، فينشدته:

عفا من سليمى بطن قو، فعالز، فذات الغضا، فالمشرفات النواشز

فيجده بما غير عليم. ويسأله عن أشياء منها، فيصادفه بما غير بصير، فيقول: شغلتنى لذائد الخلود عن تعهد هذه المنكرات: "إن المتقين في ظلال وعيون، وفواكه مما يشتهون، كلوا وأشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون"، إنما كنت أسق هذه الأمور، وأنا آمل أن أفقر بها ناقةً، أو أعطى كيل عيالي سنةً، كما قال الراجز:

لو شاك من رأسك عظم يابس، لآل منك جمل حمارس

سوى عليك الكيل شيخ بانس، مثل الحصى يعجب منه اللامس

وأنا الان في تفضّل الله، أعترف في مرافد العسجد من أنهار اللّبن: فتارةً ألبان الإبل، وتارةً ألبان البقر، وإن شئت لبن الضأن فإنه كثير جمّ، وكذلك لبن المعيز، وإن أحببت ورداً من رسل الأرواي، فربّ نهرٍ منه كأنه دجلة أو الفرات. ولقد أراي في دار الشّقوة أجهد أحلاف شياه لجبات، لا يمتلىء منهنّ القعب.

فيقول، لا زال مقولاً للخير: فأين عمرو بن أحمرو؟ فيقول عمرو: ها أنا ذا. فيقول: أنشدني قولك:

بان الشباب، وأخلف العمر، وتغيّر الإخوان والدّهر

وقد اختلف الناس في تفسير العمر، فقيل: إنك أردت البقاء، وقيل: إنك أردت الواحد من عمور الأسنان، وهو اللّحم الذي بينها. فيقول عمرو متمثلاً:

خذا وجه هرشى أو كلاهما، فإنه كلا جانبي هرشى لهنّ طريق

ولم تترك في أهوال القيامة عبيراً للانشاد، أما سمعت الآية: "يوم ترونها تذهل كل مرضعةٍ عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد" وقد شهدت الموقف، فالعجب لك إذ بقي معك شيء من روايتك! فيقول الشيخ: إني كنت أخلص الدّعاء في أعقاب الصلوات، قبل أن أنتقل من تلك الدار، أن يمتعني الله بأدبي في الدنيا والآخرة، فأجابني إلى ما سألت وهو الحميد الجيد: ولقد يعجبني قولك:

ولقد غدوت، وما يفزّعني خوف أحاذره ولا ذعر

رؤد الشَّبَاب، كأنني غصن
 كشراب قيل عن مطيَّته
 مدَّ النَّهار له، وطال علي
 ومسفة دهماء داجنة
 وجرادتان تغنيانهم
 ومجلجل دان زبرجده
 ونان حنَّانان، بينهما
 وبعيرهم ساجٍ بجرتة،
 فإذا تجرَّد، شقٍ بازله،
 خلَّوا طريق الديديون فقد
 بحرام مكَّة، ناعم نضر
 وكلَّ أمرٍ واقعٍ قدر
 ه الليل واستنعت به الخمر
 ركدت، وأسبل دونها السِّتر
 وتلألأ المرجان والشَّذر
 حدب كما يتحدَّب الدَّبِر
 وتر أجشُّ، غناؤه زمر
 لم يؤذِه غرث ولا نفر
 وإذا أصاخ فإنه بكر
 ولَّى الصَّبَا وتفاوت النَّجر

فما أردت بقولك: كشراب قيل؟ الواحد من الأقيال؟ أم قيل ابن عتر من عاد؟ فيقول عمرو:
 الوجهين ليتصوَّران. فيقول الشيخ، بلغه الله الأمان: ممَّا يدل على أن المراد قيل بن عتر، قولك:
 وجرادتان تغنيانهم، لأن الجرادتين، فيما قيل، مغنيان غنتا لوفد عادٍ عند الجرهميِّ بمكة، فشغلوا عن
 الطواف بالبيت وسؤال الله، سبحانه وتعالى، فيما قصدوا له فهلكت عاد وهم سامدون.
 ولقد وجدت في بعض كتب الأغاني صوتاً يقال غنته الجرادتان، فتفكَّنت لذلك، والصوت:

أقفر من أهله المصيف،
 هل تبلغني ديار قومي
 يا أمَّ عثمان نوَّليني
 فبطن عردة، فالغريف
 مهريَّة، سيرها تلقيف
 هل ينفع النَّائل الطِّفيف

وهذا شعر علي قري: أقفر من أهله ملحوب ومن الذي نقل إلى المغنين في عصر هارون وبعده أن هذا
 الشعر غنته الجرادتان؟ إنَّ ذلك لبعيد في المعقول، وما أجدره أن يكون مكذوباً.
 وقولك: ومسفة دهماء داجنة، ما أردت به؟ وقولك: ومجلجل دان زبرجده؟ فيقول ابن أحر: أمَّا ذكر
 الجرادتين فلا يدلُّ على أي خصصت قيل بن عتر وإن كان في الوفد الذي غنته الجرادتان، لأن العرب
 صارت تسمي كلَّ قينة جرادة، حملاً على أن قينة في الدَّهر الأول كانت تدعى الجرادة. قال الشاعر:

تغنيَّا الجراد، ونحن شرب
 نعلُّ الرِّاح خالطها المشور

وأما المسفة الدهماء، فإنها القدر. وأما المجلجل الداني زبرجده، فهو العود، وزبرجده ما حسن منه، أما تسمع القائل يسمي ما تلون من السحاب زبرجاً؟ ومن روى: مجلجل، بكسر الجيم، أراد السحاب. فيعجب الشيخ من هذه المقالة، ويقول: كأنك أيها الرجل وأنت عربي صميم يستشهد بألفاظك وقريصك، تزعم أن الزبرجد من الزبرج، فهذا يقوي ما ادعاه صاحب العين من أن الدال الزائدة في قولهم: صلخدم، وأهل البصرة ينفرون من ذلك.

فيلهم الله القادر ابن أحمـ علم التصريف، ليري الشيخ برهان القدرة، فيقول ابن أحمـ: وماذا الذي أنكرت أن يكون الزبرج من لفظ الزبرجد؟ كأن فعلاً صرف من الزبرجد، فلم يمكن أن يجاء بحروفه كلها، إذا كانت الأفعال لا يكون فيها خمسة أحرف من الأصول، فقيل: يزبرج، ثم بني من ذلك الفعل اسم فقيل: زبرج، ألا ترى أنهم إذا صغروا فرزدقاً قالوا: فريزد، وإذا جمعوه قالوا: قالوا: فرازد؟ وليس ذلك بدليل على أن القاف زائدة. فيقول، خلد الله ألفاظه في ديوان الأدب: كأنك زعمت أن فعلاً أخذ من الزبرجد، ثم بني منه الزبرج، فقد لزمك على هذا، أن تكون الأفعال قبل الأسماء. فيقول ابن أحمـ: لا يلزمي ذلك، لأني جعلت زبرجداً أصلاً، فيجوز أن يحدث منه فروغ ليس حكمها كحكم الأصول. ألا ترى أنهم يقولون: إن الفعل مشتق من المصدر؟ فهذا أصل، ثم يقولون: الصفة الجارية على الفعل، يعنون: الضارب والكريم وما كان نحوهما، فليس قولهم هذه المقالة بدليل على أن الصفة مشتقة من الفعل، إذا كانت اسماً، وحق الأسماء أن تكون قبل الأفعال، وإنما يراد أنه ينطق بالفعل منها كثيراً. ومدح أن يقول: الفعل مشتق من المصدر فهو فرع عليه، والصفة فرع آخر، فيجوز أن يتقدم أحد الفرعين على صاحبه.

ثم يذكر له أشياء من شعره، فيجده عن الجواب مستعجماً، إن نطق نطق محجماً.

تيمم بن أبي

فيقول: أيكم تيمم بن أبي؟ فيقول رجل منهم: ها أنا ذا. فيقول أخبرني عن قولك:

إلا المرانة حتى تسأم الدنيا

يا دار سلمى خلاء لا أكلفها

ما أردت بالمرانة؟ فقد قيل: إنك أردت اسم امرأة، وقيل: هي اسم ناقة، وقيل: العادة. فيقول تيمم: والله ما دخلت من باب الفردوس ومعني كلمة من الشعر ولا الرجز، وذلك أنني حوسبت حساباً شديداً، وقيل لي: كنت فيمن قاتل علي بن أبي طالب. وانبرى لي النجاشي الحارثي، فما أفلتت من

اللَّهَبِ حَتَّى سَفَعَنِي سَفَعَاتٍ .

وإن حفظك لمبقيّ عليك، كأنتك لم تشهد أهوال الحساب، ومنادي الحشر يقول: أين فلان ابن فلان؟ والشّوس الجبارة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم، والنسوة ذوات التّيجان يصرن بألسنة الوقود، فتأخذ في فروعهنّ وأجسادهنّ، فيصحن: هل من فداء؟ هل من عذرٍ يقام؟ والشباب من أولاد الأكاسرة يتضاغون في سلاسل النار ويقولون: نحن أصحاب الكنوز، نحن أرباب الفانية، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائع وأيادٍ فلا فادي ولا معين!

فهتف داعٍ من قبل العرش: "أولم نعمركم ما يتذكّر فيه من تذكّر وجاءكم التذير فذوقوا فما للظالمين من نصير" لقد جاءتكم الرسل في زمان بعد زمان، وبذلت ما وكّد من الأمان، وقيل لكم في الكتاب: "واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفّى كلُّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون" فكنتم في لذات السّاخرة واغلين، وعن أعمال الآخرة متشاغلين، فالآن ظهر النّبأ، لا ظلم اليوم إنّ الله قد حكم بين العباد.

فيقول، أنطقه الله بكل فضل، إن شاء ربّه أن يقول: أنا أقص عليك قصّتي: لما نهضت أنتفض من الرّيم، وحضرت حرصات القيامة، والحرصات مثل العرصات، أبدلت الحاء بالعين ذكرت الآية: "تعرج الملائكة والرّوح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة، فاصبر صبراً جميلاً فطال علي الأمد، واشتد الظمأ والومد، والومد: شدّة الحرّ وسكوت الرّيح، كما قال أخوكم التّميري:

كأن بيض نعامٍ في ملاحفها جلاه ظلّ وقبظ ليله ومد

وأنا رجل مهيف أي سريع العطش، فافتكرت فرأيت أمراً لا قوام لمثلي به. ولقيني الملك الحفيظ بما زير من فعل الخير، وجدت حسناتي قليلة كالتّفا في العام الأرملة والنفاً الرياض، والأرمل قليل المطر. إلا أن التوبة في آخرها كأنها مصباح أبيل، رفع لسالك السبيل. فلمّا أقمت في الموقف زهاء شهر أو شهرين، وخفت في العرق من العرق، زينت لي النفس الكاذبة أن أنظم أبياتاً

مدح رضوان

في رضوان، خازن الجنان، عملتها في وزن:

قفا نيك من ذكري حبيب وعرفان

ووسمتها برضوان. ثم ضانكت الناس حتى وقفت منه بحيث يسمع ويرى، فما حفل بي، ولا أظنه أبه لما أقول.

فغبرت برهة، نحو عشرة أيام من أيام الفانية، ثم عملت أبياتاً في وزن:

بان الخليط ولو طووعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

ووسمتها برضوان، ثم دنوت منه ففعلت كفعلني الأوّل، فكأني أحرك ثبيراً، وألتمس من الغضرم عبيراً، والغضرم: تراب يشبه الجصّ، فلم أزل أتبع الأوزان التي يمكن أن يوسم بها رضوان حتى أفيتهاها، وأنا لا أجد عنده مغوثةً، ولا ظننته فهم ما أقول، فلمّا استقصيت الغرض فما أنجحت، دعوت بأعلى صوتي: يا رضوان، يا أمين الجبار الأعظم على لفراديس، ألم تسمع ندائي بك واستغاثي إليك؟ فقال: لقد سمعتك تذكر رضوان وما علمت ما مقصدك، فما الذي تطلب أيها المسكين؟ فأقول: أنا رجل لا صبر لي على اللواب أي العطش وقد استطلت مدة الحساب، ومعني صل بالتوبة، وهي للذنوب كلّها ماحية، وقد مدحتك بأشعار كثيرة ووسمتها باسمك. فقال: وما الأشعار؟ فإني لم أسمع بهذه الكلمة قطّ إلا الساعة. فقلت: الأشعار جمع شعر، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحسّ، وكان أهل العاجلة يتقرّبون به إلى الملوك والسادات، فجئت بشيء منه إليك لعلك تأذن لي بالدّخول إلى الجنة في هذا الباب، فقد استطلت ما الناس فيه، وأنا ضعيف منين؛ ولا ريب أنّي ممن يرجو المغفرة، وتصحّ له بمشيئة الله تعالى. فقال: إنك لغيبين الرأي! أتأمل أن آذن لك بغير إذن من رب العزة؟ هيهات هيهات! وأنّي لهم التناوش من مكان بعيد.

مدح زفر

فتركته وانصرفت بأملّي إلى خازن آخر يقال له زفر، فعملت كلمةً ووسمتها باسمه في وزن قول لبيد:

تهنى ابتنائي أن يعيش أبوهما، وهل أنا إلا من ربّيعة أو مضر

وقربت منه فأنشدتها، فكأني إنّما أخطب ركوداً صمّاء، لأستترل أبوداً عصماء. ولم أترك وزناً مقيداً ولا مطلقاً يجوز أن يوسم بزفر إلا وسمته به، فما نجح ولا غير. فقلت: رحمك الله! كئنا في الدار الذاهية نتقرّب إلى الرئيس والملك بالبيتين أو الثلاثة، فنجد عنده ما نحب، وقد نظمت فيك ما لو جمع لكان ديواناً، وكأنتك ما سمعت لي زجماً أي كلمة، فقال: لا أشعر بالذي حممت أي قصدت، وأحسب هذا

الذي تجيئني به قرآن إبليس المارد، ولا ينفق على الملائكة، إنما هو للجان وعلموه ولد آدم، فما بعينك؟ فذكرت له ما أريد، فقال: والله ما أقدر على نفع ولا أملك لخلق من شفع، فمن أي الأمم أنت؟ فقلت: من أمة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. فقال: صدقت ذلك، نبي العرب، ومن تلك الجهة أتيتني بالقريض، لأن إبليس اللعين نفثه في إقليم العرب فتعلمه نساء ورجال. وقد وجب عليّ نصحك، فعليك بصاحبك لعله يتوصل إلى ما ابتغيت. فينست ثمّ عنده، فجعلت أتخلل العالم،

حمزة بن عبد المطلب

فإذا أنا برجل عليه نور يتلألأ، وحواليه رجال تأتلق منهم أنوار. فقلت: من هذا الرجل؟ فقيل: هذا حمزة بن عبد المطلب صريع وحشي، وهؤلاء الذين حوله من استشهاد من المسلمين في أحد. فقلت لنفسي الكذوب: الشعر عند هذا أنفق منه خازن الجنان، لأنه شاعر، وإخوته شعراء، وكذلك أبوه وجدّه، ولعلّه ليس بينه وبين معد بن عدنان إلا من قد نظم شيئاً من موزون، فعملت أبياتاً على منهج أبيات كعب بن مالك التي رثى بها حمزة، وأوها:

وبكى النساء على حمزة

صفية قومي ولا تعجزي،

وجئت حتى وليت منه فناديت: يا سيّد الشهداء، يا عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يا ابن عبد المطلب! فلما أقبل عليّ بوجهه أنشدته الأبيات. فقال: ويحك! أفى مثل هذا الوطن تجيئني بالمديح؟ أما سمعت الآية: "لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه" فقلت: بلى قد سمعتها، وسمعت ما بعدها: "وجوه يومئذ سفرة، ضاحكة مستبشرة، ووجوه يومئذ عليها غبرة، ترهقها فترة، أولئك هم الكفرة الفجرة". فقال: إنّي لا أقدر على ما تطلب. ولكني أنفذ معك تورا، أي رسولا إلى ابن أخي عليّ بن أبي طالب، ليخاطب النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، في أمرك. فبعث معي رجلاً، فلما قصّ قصتي على أمير المؤمنين، قال: أين بينتك؟ يعني صحيفة حسناتي. وكنت قد رأيت في الحشر شيخاً لنا كان يدرّس النحو في الدار العاجلة، يعرف بأبي عليّ الفارسيّ، وقد امترس به قوم يطالبونه، ويقولون: تأولت علينا وظلمتنا. فلما رأني أشار إليّ بيده، فجننته فإذا عنده طبقة، منهم يزيد بن الحكم الكلابيّ، وهو يقول: ويحك، أنشدت عني هذا البيت برفع الماء، يعني قوله:

وخيرك عني ارتوى الماء مرتوي

فليت كفافاً كان شركك كله،

ولم أقل إلا الماء. وكذلك زعمت أنني فححت الميم في قولي:

تبدّل خليلاً بي، كشكلك شكله،

فإنني خليلاً صالحاً بك مقتوي وإنما قلت: مقتوي بضمّ الميم.

وإذا هناك راجزٌ يقول: تأوّلت عليّ أنني قلت:

ماءٌ رواءٌ ونصيٌّ حوليه

يا إبلي ما ذنبه فتأبيه؟

فحرّكت الياء في تأبيه ووالله ما فعلت ولا غيري من العرب وإذا رجلٌ آخر يقول: ادّعت عليّ أن

الهاء راجعةٌ على الدّرس في قولي:

هذا سراقَةٌ للقرآن يدرسه،

والمرء عند الرّشا إن يلحقها ذيب أفمجنونٌ أنا حتّى أعتقد ذلك؟

قاضي حلب

وإذا جماعةٌ من هذا الجنس كلّهم يلومونه على تأويله. فقلت: يا قوم، إن هذه أمورٌ هيّنةٌ، فلا تعتنوا هذا الشيخ، فإنّه يمتُّ بكتابه في القرآن المعروف بكتاب الحجّة، وإنه ما سفك لكم دماً، ولا أحتجن عنكم مالاً، فتقرّقوا عنه. وشغلت بخطابهم والنّظر في حويرهم، فسقط منّي الكتاب الذي فيه ذكر التّوبة، فرجعت أطلبه فما وجدته، فأظهرت الوله والجزع، فقال أمير المؤمنين: لا عليك، ألك شاهدٌ بالتّوبة؟ فقلت: نعم، قاضي حلب وعدوها. فقال: بمن يعرف ذلك الرجل؟ فأقول: بعبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب، حرسها الله، في أيّام شبيل الدّولة، فأقام هاتفاً يهتف في الموقف: يا عبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب في زمان شبيل الدّولة، هل معك علمٌ من توبة عليّ بن منصور بن طالب الحلبيّ الأديب؟ فلم يجيبه أحد. فأحذني الهلع والقل، أي الرعدة ثم هتف الثانية، فلم يجيبه مجيب، فليح بي عند ذلك أي صرعت إلى الأرض ثم نادى الثالثة، فأجابه قاتلٌ يقول: نعم، قد شهدت توبة عليّ بن منصور،

توبة علي بن منصور

وذلك بأخرة من الوقت، وحضرت متابة عندي جماعة من العدول، وأنا يومئذ قاضي حلب وأعمالها، والله المستعان. فعندها فمضت وقد أخذت الرَّمق، فذكرت لأمير المؤمنين، عليه السَّلام، ما ألتمس، فأعرض عني وقال: إنَّك لتروم حدداً ممتنعاً، ولك أسوة بولد أبيك آدم. وهمت بالحوض، فكدت لا أصل إليه، ثمَّ نغبت منه نغبات لا ظمأ بعدها؛ وإذا الكفرة يحملون أنفسهم على الورد، فتذودهم الزَّبانية بعصيٍّ تضطرم ناراً، فيرجع أحدهم وقد احترق وجهه أو يده وهو يدعو بويلٍ وثبور. فطفت على العترة المنتجين فقلت: إنِّي كنت في الدار الذاهبة إذا كتبت كتاباً وفرغت منه: قلت في آخره: وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى غيرته الأخيار الطيبين. وهذه حرمة لي ووسيلة،

فاطمة بنت محمد

فقالوا: ما نصنع بك؟ فقلت: إنَّ مولانا فاطمة، عليها السلام، قد دخلت الجنة مذ دهر، وإنَّها تخرج في كلِّ حينٍ مقداره أربعٌ وعشرون ساعةً من الدنيا الفانية فتسلم على أبيها، وهو قائمٌ لشهادة القضاء، ثمَّ تعود إلى مستقرِّها من الجنان، فإذا هي خرجت كالعادة، فاسألوا في أمري بأجمعكم، فلعلَّها تسأل أباها في فلما حان خروجها ونادى الهاتف: أن غصوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بت محمد، صلى الله عليه وسلم، اجتمع من آل أبي طالب خلقٌ كثيرٌ، من ذكورٍ وإناث، فمن لم يشرب خمراً، ولا عرف قطُّ منكرًا. فلقوها في بعض السبيل، فلما رأتهم قالت: ما بال هذه الزرافة؟ ألكم حالٌ تذكروا؟ فقالوا: نحن بخير، إننا نلتذُّ بتحف أهل الجنة، غير أننا محبوسون للكلمة السابقة، ولا نريد أن نتسرَّع إلى الجنة من قبل الميقات، إذ كنا آمنين ناعمين بدليل قوله: "إنَّ الذين سبقتمنا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لا يسمعون حسيستها وهم في ما اشتتهت أنفسهم خالدون. لا يجزئهم الفرع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة: هذا يومكم الذي كنتم توعدون" وكان فيهم عليُّ بن الحسين وابناه محمدٌ وزيدٌ، وغيرهم من الأبرار الصالحين. ومع فاطمة، عليها السلام، امرأة أخرى جري مجراها في الشرف والجلالة، فقيل: من هذه؟ فقيل: خديجة ابنة خويلد ابن أسد بن بد العزى، ومعها شبابٌ على أفراسٍ من نور. فقيل: عبد الله، والقاسم، والطيب، والطاهر، وإبراهيم: بنو محمد، صلى الله عليه وسلم.

فقال تلك الجماعة التي سألت: هذا وليٌّ من أوليائنا، قد صحَّت توبته، ولا ريب أنَّه من أهل الجنة، وقد توسَّل بنا إليك، صلى الله عليك، في أن يراح من أهوال الموقف، ويصير إلى الجنة فيتعجل الفوز.

فقلت لأخيها إبراهيم، صلى الله عليه: دونك الرجل. فقال لي: تعلق بركابي. وجعلت تلك الخيل تحلل الناس وتنكشف لها الأمم والأجيال، فلما عظم الزحام طارت في الهواء، وأنا متعلق بالركاب، فوقفت عند محمد، صلى الله عليه وسلم، فقال: من هذا الأتوي؟ أي الغريب فقالت له: هذا رجل سأل فلان وفلان -وسمّت جماعة من الأئمة الطاهرين- فقال: حتى ينظر في عمله. فسأل عن عملي فوجد في الديوان الأعظم وقد ختم بالتوبة، فشفع لي، فأذن لي في الدخول. ولما انصرفت الزهراء، عليها السلام، تعلقت بركاب إبراهيم، صلى الله عليه.

فلما خلصت من تلك الطموش، قيل لي: هذا الصراط فاعبر عليه. فوجدته خالياً لا عريب عنده فبلوت نفسي في العبور، فوجدتني لا أستمسك. فقالت الزهراء، صلى الله عليها، لجارية من جواربها: فلانة أجزيه. فجعلت تمارسني وأنا أتساقط عن يمين وشمال، فقلت: يا هذه، إن أردت سلامتي فاستعملي معي قول القائل في الدار العاجلة:

ست إن أعيك أمري، فاحمليني زقفونه

فقالت: وما زقفونه؟ قلت: أن يطرح الإنسان يديه على كتفي الآخر، ويمسك الحامل بيديه، ويحملة وبطنه إلى ظهره، أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفرطاب:

صلحت حالتي إلى الخلف حتى صرت أمشي إلى الوري زقفونه

فقالت: ما سمعت بزقفونه، ولا الجحجلول، ولا كفرطاب، إلا الساعة. فتحملي وتجاوز كالبرق لحاطف. فلما جرت، قالت الزهراء، عليها السلام: قد وهبنا لك هذه الجارية فخذها كي تخدمك في الجنان.

فلما صرت إلى باب الجنة، قال لي رضوان: هل معك من جواز؟ فقلت: لا. فقال لا سبيل لك إلى الدخول إلا به فبعلت بالأمر، وعلى باب الجنة من داخل شجرة صفصاف، فقلت: أعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع إلى الموقف فأخذ عليها جوازا، فقال: لا أخرج شيئاً من الجنة إلا بإذن من العلي الأعلى، تقدّس وتبارك. فلما دجرت بالنازلة، قلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! لو أن للأمير أي المرجى حازناً مثلك، لما وصلت أنا ولا غيري إلى قرقوف من خزائنه. والقرقوف: الدرهم.

والنفث إبراهيم، صلى الله عليه، فرآني وقد تخلفت عنه، فرجع إليّ فجذبني جذبة حصّني بها في الجنة. وكان مقامي في الموقف مدة سنة أشهر من شهور العاجلة، فلذلك بقي عليّ حفطي ما نرفته الأهوال، ولا فهكه تدقيق الحساب.

فأنكم راعي الإبل؟ فيقولون: هذا. فيسلّم عليه الشيخ ويقول: أرجو أن لا أجذك مثل أصحابك

صفرًا حفظك وعربيتك. فيقول: أرجو ذلك، فاسألني ولا تطيلن. فيقول: أحقّ ما روى عنك سيبويه في قصيدتك التي تمدح بها عبد الملك بن مروان من أنّك تنصب الجماعة في قولك:

لزم الرّحالة أن تميل ممبلا

أيّام قومي والجماعة كالذي

فيقول: حقّ ذلك.

حميد بن ثور

وينصرف عنه رشيداً إلى حميد بن ثور فيقول: إيه يا حميد! لقد أحسنت في قولك.

وحسبك داءً أن تصح وتسلما

أرى بصري قد رابني بعد صحّة،

إذا طلبا، أن يدركا ما تيمما

ولن يلبث العصران: يومٌ وليلةٌ

فكيف بصرك اليوم؟ فيقول: إنّي لأكون في مغارب الجنّة، فألمح الصّديق من أصدقائي وهو بمشاركها، وبيني وبينه مسيرة ألوف أعوامٍ للشمس التي عرفت سرعة مسيرها في العاجلة! فتعالى الله القادر على كلّ بديع.

فيقول: لقد أحسنت في الدالية التي أوّلتها:

جلبانةٌ ورهاء، تخصي حمارها

بفي من بغى خيراً لديها الجلامد

إزاء معاشٍ لا يزال نطاقها

شديداً، وفيها سورةٌ، وهي قاعد

تتابع أعوامٌ عليها هزلنها،

وأقبل عامٌ ينعش الناس واحد فيقول حميدٌ: لقد ذهلت عن كلّ ميمٍ ودال، وشغلت بملاعبة حورٍ خدال. فيقول: أمثل هذه الدالية ترفض وفيها:

عضمةٌ فيها بقاءٌ وشدةٌ

ووال لها، بادي النصيحة جاهد

إذا ما دعا: أجياد! جاءت خناجرٌ

لهاميم، لا يمشي إليهنّ قائد

فجاءت بمعيوف الشريعة مكلع،

أرشتت عليه بالأكف السواعد وفيها الصفة التي ظننت القطامي أخذها منك، وقد يجوز أن يكون
سبقك لأنكما في عصر واحد، وذلك قولك:

تأدبها، في ليل نحس وقرّة،

خليلي أبو الخشخاش، والليل بارد

فقام يصاديها، فقالت: تريدي

على الزاد؟ شكّل بيننا متباعد!

إذا قال: مهلاً، أسجحي، لمحت له

بزرقاء لم تدخل عليها المراد

كأن حجاجي رأسها في ملثم،

من الصخر، جون أخلقته المراد هذه الصفة نحو من قول القطامي:

تلفعت في ظل وريح تلفني،

وفي طرمساء غير ذات كواكب

إلى حيزبون توقد النار بعدما

تصوّبت الجوزاء قصد المغارب

فما راعها إلا بغام مطية،

تروح بمحصور من الصوت لاغب

وجنت جنونا من دلات مناخة،

ومن رجل عاري الأشاجع شاحب

تقول، وقد قرّبت كوري وناقتي :

إليك! فلا تذعر عليّ ركائبي والأبيات معروفة، وقلتهذه القصيدة:

فجاء بذئ أونيّن أعبّر شأنه،

وعمرّ حتى قيل: هل هو خالد؟!

فَعَزَّاهُ، حَتَّى أَسْنَدَاهُ كَأَنَّهُ،

على القرو، علفوفٌ من الثُّرك ساند وفيها ذكر الزُّبدة:

فَلَمَّا تَجَلَّى اللَّيْلُ عَنْهَا وَأَسْفَرَتْ،

وفي غلس الصُّبح الشُّخوص الأبعاد

رَمَى عَيْنَهُ مِنْهَا بِصَفْرَاءِ جَعْدَةٍ

عليها تعابنه، وعنهما تراوُدٌ فيقول حميدٌ: لقد شغلت عن زيدٍ، وطرد النَّافرة من الرُّبْد، بما وهب ربِّي الكريم، ولا خوف عليَّ ولا حزن.

ولقد كان الرجل منا يعمل فكره السنَّة أو الأشهر، في الرَّجل قد آتاه الله الشَّرْف والمال، فربَّما رجع بالخبية، وإن أعطى فعطاءً زهيدٌ، ولكنَّ التَّظم فضيلة العرب.

ويعرض لهم لبيد بن ربيعة فيدعوهم إلى منزله بالقيسيَّة، ويقسم عليهم ليذهبَ معه، يتمشون قليلاً، فإذا هم بأبيات ثلاثة ليس في الجنَّة نظيرها بماءٍ وحسناً، فيقول لبيدٌ: أتعرف أيُّها الأديب الحلبيُّ هذه الأبيات؟ فيقول: لا والذي حجَّت القبائل كعبته! فيقول: أمَّا الأول فقولي:

وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَل

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفْلِ،

وأمَّا الثاني فهو قولي:

بِيَدِيهِ الْخَيْرُ، مَا شَاءَ فَعَلَ

أَحْمَدُ اللَّهِ، فَلَا نَدَّ لَهُ،

وأمَّا الثالث فقولي:

نَاعِمُ الْبَالِ، وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ

مَنْ هَدَاهُ سَبِيلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى

صيرها ربِّي اللطيف الخبير أبياتاً في الجنَّة، أسكنها أخرى الأبد وأنعم نعيم المخلد.

فيعجب هو وأولئك القوم ويقولون: إنَّ الله قديرٌ على ما أراد.

ويبدو له، أيَّد الله مجده بالتأييد، أن يصنع مادبةً في الجنان، يجمع فيها من أمكن من شعراء الخضرمة والإسلام، والذين أصلوا كلام العرب، وجعلوه محفوظاً في الكتب، وغيرهم ممن يتأنس بقليل الأدب.

فيخطر له أن تكون كمآدب الدار العاجلة، إذ كان البارئ، جلَّت عظمته، لا يعجزه أن يأتيهم بجميع الأغراض، من غير كلفةٍ ولا إبطاء، فتنشأ أرحاءٌ على الكوثر، تجعجع لطحن برٍّ من برِّ الجنَّة، وإنَّه لأفضل من برِّ الهدبيِّ الذي قال فيه:

لَا دَرَّ دَرِّيْ إِنْ أَطْعَمْتَ رَائِدَهُمْ

قرف الحتيّ وعندي البرُّ مكنوز بمقدارٍ تفضل به السموات والأرضين، فيقترح، أمضى القادر له اقتراحه، أن تحضر بين يديه جوارٍ من الحور العين، يعتملن بأرحاء اليد: فرحى من درّ، ورحى من عسجد، وأرحاء لم ير أهل العاجلة شيئاً من شكل جواهرهنّ. فإذا نظر إليهنّ، حمد الله سبحانه على ما منح، وذكر قول الرّاجز:

جريتين تتعاوران

أعدت للضيّف وللجيران

لا ترأمان وهما ظئران يصف رحي اليد.
ويبتسم إليهنّ ويقول: اطحنّ شزراً وبتاً. فيقلن: ما شزرّ وما بتّ؟ فيقول: الشّزر على أيمانكنّ، والبتّ على شمائلكنّ، أما سمعتنّ قول القائل:

ونمسي بالعشيّ طلنّفحينا

ونصبح بالغداة أترّ شيء،

ولو نعطي المغازل ما عيينا

ونطحن بالرحى شزراً وبتاً

ويقال: إن هذا الشّعْر لرجل أسر فكتب إلى قومه بذلك.

ويحبس في صدره، عمّره الله بالسُرور، أرحاء تدور فيها البهائم، فيمثل بين يديه ما شاء الله من البيوت، فيها أحجارٌ من جواهر الجنّة، تدير بعضها جمالاً تسوم في عضاه الفردوس، وأينقُ لا تعطف على الحيران، وصنوفٌ من البغال والبقر وبنات صعدة، فإذا اجتمع من الطّحن، ما يظنُّ أنّه كافٍ للمأدبة، تفرّق خدمه من الولدان المخلّدين فجأزوا بالعماريس، وهي الجداء وضروب الطّير التي جرت العادة بأكلها: كأبجاج العكارم، وجوازل الطّواويس، والسّمين من دجاج الرّحمة وفراريح الخلد، وسيقت البقر والغنم والإبل لتعبط؛ فارتفع رغاء العكر ويعار المعز، وتوّاج الضّان، وصياح الديكة، لعيان المدينة. وذلك كلّه، بحمد الله، لا ألم فيه، وإنّما هو جدُّ مثل اللّعب، فلا إله إلاّ بالله الذي ابتدع خلقه من غير رويّة، وصوّره بلا مثال.

فإذا حصلت النّحوض فوق الأوفاض، والأوفاض مثل الأوضام بلغة طيء قال، زاد الله أمره من النّفاذ: أحضروا من في الجنّة من الطّهارة السّاكنين بجلب على ممرّ الأزمان، فتحضر جماعة كثيرة، فيأمرهم بأنّخاذ الأطعمة، وتلك لذّة يهبها الله، عزّ سلطانه، بدليل قوله: "وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلدُّ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنّة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون".

فإذا أتت الأطعمة، افترق غلمانها الذين كأنّهم اللؤلؤ المكنون، لإحضار المدعوّين، فلا يتركون في جنّة

شاعراً إسلامياً، ولا مخضرمًا، ولا عالماً بشيءٍ من أصناف العلوم، ولا متأدبًا، إلاّ أحضروه. فيجتمع بجدّ عظيمٍ والبجد: الخلق الكثير، قال الشاعر:

تطوف البجود بأبوابه، من الضّر في أزمت السنينا

فتوضع الخون من الذهب، والفوائير من اللّجين، ويجلس عليها الآكلون، وتنقل إليهم الصّحاف، فتقيم الصّحفة لديهم وهم يصيون ممّا ضمّنته كعمر كويّ وسريّ وهما التّسران من التّجوم. فإذا قضا الأرب من الطّعام، جاءت السّقاة بأصناف الأشربة، والمسمعات بالأصوات المطربة. ويقول، لا فتىء ناطقًا بالصواب: عليّ بمن في الجنة من المغنّين والمغنّيات: فمن كان في الدار العاجلة، ففضيت له التّوبة.

فتحضر جماعة كثيرة من رجالٍ ونساءٍ فيهم الغريص، ومعدّ وابن مسجح، وابن سريح؛ إلى أن يحضر إبراهيم الموصليّ وابنه إسحاق. فيقول قائلٌ من الجماعة، وقد رأى أسراب قيان قد حضرن، مثل بصبص ودنانير وعنان: من العجب أن الجرادتين في أقاصي الجنّة. فإذا سمع ذلك لا برح سمعه مطروقًا بما يبهجه، قال: لا بدّ من حضورهما. فيركب بعض الخدم ناقّة من نوق الجنّة، ويذهب إليهما على بعد مكاتهما فتقبلان على نجيبين أسرع البرق اللامع. فإذا حصلتا في المجلس، حيّاهما وبشّ بهما وقال: كيف خلصتما إلى دار الرحمة بعدما خبطتما في الضلال؟ فتقولان: قدرت لنا التّوبة ومنتنا على دين الأنبياء المرسلين. فيقول: أحسن الله إليكما، أسمعانا شيئاً من التي تروى لعبيد مرة ولأوس أخرى وما سمعنا قطّ بعبيدٍ ولا أوسٍ، فتلهمان أن تغنّيا بالمطلوب، فتلحّنان:

ودع لميس وداع الوامق اللاحي

قد فنّكت في فسادٍ بعد إصلاح

إذ تستبيك بمصقولٍ عوارضه

حمش اللّثمات عذابٍ غير مملّاح

كأنّ ريقتها بعد الكرى اغتبت

من ماء أدكن في الحانوت نصّاح

ومن مشعشعةٍ ورهاء نشوتها

ومن أنابيبٍ رمّانٍ وتفّاح

هبت تلوم، وليست ساعة اللاحي،

هلاً انتظرت بهذا اللوم إصباحي؟

قاتلها الله، تلحاني، وقد علمت

أني لنفسي إفسادي وإصلاحي!

إن أشرب الخمر، أو أرزأ لها ثمناً،

فلا محالة يوماً أنني صاح

ولا محالة من قبرٍ بمحنية،

أو في ملبعٍ كظهر الثرس وضاح فتطربان من سمع، وتستفزّان الأفئدة بالسُرور، ويكشر حمد الله، سبحانه، كما أنعم على المؤمنين والتائبين، وخلّصهم من دار الشقوة إلى محلّ النعيم.

ويعرض له، أدام الله الجمال ببقائه، الشوق إلى نظر كالسحاب كالسحاب الذي وصفه قائل هذه القصيدة في قوله:

إني أرقّت، ولم تأرق معي صاح

لمستكفّ، بعيد التّوم، لمّاح

قد نمت عني وبات البرق يسهرني

كما استضاء يهوديُّ بمصباح

تهدي الجنوب بأولاه وناء به

أعجاز مزن، يسوق الماء دلاًح

كأن ريقه، لّما علا شطياً،

أقرب أبلق ينفي الخيل رمّاح

كأن فيه عشاراً جلّة شرفاً،

عوذاً مطافيل، قد همت يارشاح

دان، مسفّ فويق الأرض هيدبه

يكاد يدفعه من قام بالراح

فمن بنجوته كمن بعقوته،

والمستكنُّ كمن يمشي بقرواح

وأصبح الروض والقيعان ممرعةً

ما بين منفتقٍ منه ومنصاحٍ فينشئ الله، تعالت آلاؤه، سحابةً كأحسن ما يكون من السُّحب، من نظر إليها شهد أنه لم ير قطُّ شيئاً أحسن منها، محلاةً بالبرق في وسطها وأطرافها، تمطر بماء ورد الجنة من طللٍ وطشٍ، وتنثر حصى الكافور كأنه صغار البرد، فعزَّ إلها القديم الذي لا يعجزه تصوير الأمايين وتكوين الهواجس من الظنون. ويلتفت فإذا هو

جران العود

بجران العود الثميري، فيحييه ويرحب به، ويقول لبعض القيان : أسمعنا قول هذا المحسن:

حملن جران العود حتى وضعنه

بعلياء في أرجائها الجنُّ تعزف

وأحرزن منا كلَّ حجرة منزرٍ

لهنَّ، وطاح النوفليُّ المزخرف

وقلن: تمتع ليلة النأي هذه

فإنك مرجومٌ غداً أو مسيِّفٌ وهذا البيت يروى لسحيم فتصيب تلك القينة وتجيد.

فإذا عجبت الجماعة من إحسانها وإصابتها قالت: أتدرون من أنا؟ فيقولون: لا والله الحمد! فتقول:

أنا أمُّ عمرو التي يقول فيها القائل:

وكان الكأس مجراها اليميناً

تصدُّ الكأس عناً أمُّ عمرو

بصاحبك الذي لا تصبحينا

وما شرُّ الثلاثة أمُّ عمرو

فيزدادون بها عجباً، ولا إكراماً، ويقولون: لمن هذا الشعر؟ ألعمر بن عديّ اللّحمي؟ أم لعمرو بن كلثوم التغلبي؟ فتقول: أنا شهدت ندماني جذيمة: مالكاً وعقبلاً، وصبحتهما الخمر المشعشة، لما وجدا عمرو بن عديّ، فكنت أصرف الكأس عنه، فقال هذين البيتين، فلعلَّ عمرو بن كلثوم حسنٌ بهما كلامه واستزادهما في أبياته.

ويذكر، أذكره الله بالصّالحات، الأبيات التي تنسب إلى الخليل بن أحمد. والخليل يومئذ في الجماعة، وأنها تصلح لأن يرقص عليها، فينشئ الله، القادر بلطف حكمته، شجرةً من غفرٍ والغفر الجوز

فتنوع لوقيتها، ثم تنفض عدداً لا يحصيه إلا الله سبحانه، وتنشق كل واحدة منه عن أربع جوارٍ يرقن الرائين، ممن قرب والتائين، يرقصن على الأبيات المنسوبة إلى الخليل، وأوها:

فطر بدائك أوقع

مثل الجآذر أربع

ء والبغوم وبوزع

إذا بدا لك، أو دع!

إنّ الخليط تصدّع

لولا جوارٍ حسانٌ

أمّ الرّبّاب وأسما

لقلت للظّاعن: اظعن

فتهتزّ أرجاء الجنّة، ويقول، لا زال منطقاً بالسّداد: لمن هذه الأبيات يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول الخليل: لا أعلم. فيقول: إنا كنا في الدار العاجلة نروي هذه الأبيات لك. فيقول الخليل: لا أذكر شيئاً من ذلك، ويجوز أن يكون ما قيل حقاً. فيقول: أفنسيّت يا أبا عبد الرحمن وأنت أذكر العرب في عصرك؟ فيقول الخليل: إنّ عبور السّراط ينفض الخلدّ كما استودع. ويخطر له ذكر الفقّاع الذي كان يعمل في الدار الخادعة، فيجري الله بقدرته أثماراً من فقّاع، الجرعة منها لو عدلت بلدات الفانية، منذ خلق السموات والأرض إلى يوم تطوي الأمم الآخرة، لكانت أفضل وأشرف. فيقول في نفسه: قد علمت أنّ الله قديرٌ، والذي أريد، نحو ما كنت أراه مع الطّوّافين في الدار الذاهبة. فلا تكمل هذه المقالة، حتى يجمع الله كلّ فقّاعيّ في الجنّة من أهل العراق والشام وغيرهما من البلاد، بين أيديهم الولدان المخلدون يحملون السّلال إلى أهل ذلك المجلس. فيقول، حفظ الله على أهل الأدب حوباءه، لمن حضره من أهل العلم: ما تسمّى هذه السّلال بالعربيّة؟ فيرمون أي يسكتون ويقول بعضهم: هذه تسمّى البواسن، واحدها باسنّة، فيقول قائلٌ من الحاضرين: من ذكر هذا من أهل اللغة؟ فيقول، لا انفكّت الفوائد واصلةً منه إلى الجلساء: قد ذكرها ابن درستويه، وهو يومئذٍ في الحضرة. فيقول له الخليل: من أين جئت بهذا الحرف؟ فيقول ابن درستويه: وجدته في كتب النضر بن شميل: فيقول الخليل: أتحقّ هذا يا نضر، فأنت عندنا النّقة؟ فيقول النّضر: قد التبس عليّ الأمر، ولم يحك الرجل، إن شاء الله، إلاّ حقاً. ويعبر بين تلك الأكراس أي الجماعات طاووسٌ من طواويس الجنّة يروق من رآه حسناً، فيشتهيه أبو عبيدة مصوصاً، فيتكون ذلك في صفحة من الذهب. فإذا قضى منه الوطر، انضمت عظامه بعضها إلى بعض، ثمّ تصير طاووساً كما بدأ. فتقول الجماعة: سبحان من يجي العظام وهي رميم. هذا كما جاء في الكتاب الكريم: "وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال: فخذ أربعةً من الطّير فصرهنّ إليك ثمّ اجعل على كلّ جبلٍ منهنّ جزءاً، ثمّ ادعهنّ يأتينك سعيّاً، واعلم أنّ الله عزيزٌ حكيمٌ.

ويقول هو، آنس الله بحياته، لمن حضر: ما موضع يطمئن؟ فيقولون: نصبٌ بلام كي. فيقول: هل يجوز غير ذلك؟ فيقولون لا يحضرنا شيء. فيقول: يجوز أن يكون في موضع جزم بلام الأمر، ويكون مخرج الدعاء، كما يقال: يا ربّ أغفر لي، ولتغفر لي. وأمّا قوله الحكاية عن عازار: قال أعلم أنّ الله على كلِّ شيء قديرٌ فقد قرئء برفع الميم وسكوها، فالرفع على الخبر، والسكون على أنّه أمرٌ من الله، جلّ سلطانه. وأجاز أبو عليّ الفارسيّ أن يكون أعلم مخاطبةً من عازر لنفسه، لأن مثل هذا معروف. يقول القائل، وهو يعني نفسه: ويحك ما فعلت وما صنعت! ومنه قول الحادرة الذبيانيّ:

بكرت سميّة غدوة فتمتّع، **وعدت غدوّ مفارق لم يربّع**

وتمرُّ إوزةٌ مثل البختية، فيتمنّاها بعض القوم شواءً، فتتمثل على خوانٍ من الزمردّ، فإذا قضيت منها الحاجة، عادت، بإذن الله إلى هيئة ذوات الجناح، ويختارها بعض الحاضرين كردناجاً، وبعضهم معمولةٌ بسماق، وبعضهم معمولةٌ بلبنٍ وخلّ، وغير ذلك، وهي تكون على ما يريدون. فإذا تكرّرت بينهم قال أبو عثمان المازنيّ لعبد الملك بن قريب الأصمعيّ: يا أبا سعيد، ما وزن إوزة؟ فيقول الأصمعيّ: أي تعرّض بهذا يا فصعل، وطال ما جئت مجلسي بالبصرة وأنت لا يرفع بك رأس؟! وزن إوزة في الموجود إفعلة، ووزنا في الأصل إفعلة. فيقول المازنيّ: ما الدليل على أنّ الهمزة فيها زائدة، وأنها ليست بأصليةٍ ووزنها ليس فعلة؟ فيقول الأصمعيّ: أمّا زيادة الهمزة في أوّلها، فيدلُّ عليه قولهم وزّ. فيقول أبو عثمان: ليس ذلك بدليلٍ على أنّ الهمزة زائدة، لأنّهم قد قالوا ناسٌ، واصله أناس، وميهةٌ لجدريّ الغنم، وإنّما هو أميهة، فيقول الأصمعيّ: أليس أصحابك من أهل القياس يزعمون أنّها إفعلة، وإذا بنوا من أوى اسماً على وزن إوزة قالوا: إيّاه؟ ولو أنّها فعلة قالوا: إيّة، ولو جاؤوا بها على إفعلة، بسكون العين، قالوا: إيّة، والياء التي بعد الهمزة، وهي همزة أوى، جعلت ياءً لاجتماع الهمزتين، ولأنّ قلبها مكسوراً وهي مفتوحة. وإذا خففت همزة مترر، جعلتها ياءً خالصة. فيقول المازنيّ: تأوّل من أصحابنا وادّعاء، لأنّ إوزة لم يثبت أنّ الهمزة فيها زائدة. فيقول الأصمعيّ:

ريّشت جرهم نبلاً فرمى **جرهما منهنّ فوق وغرار**

تبعثهم مستفيداً، ثمّ طعنت فيما قالوه معيداً، ما مثلك ومثلهم إلاّ كما قال الأوّل:

أعلمه الرّماية كلّ يوم، **فلمّا أستد ساعده رماني**

وينهض كالمغضب، ويفترق أهل ذلك المجلس وهم ناعمون. ويخلبو، لا أخلاه الله من الإحسان،
بحوريتين له من الحور العين، فإذا بهرته ما يراه من الجمال قال: أعزز عليّ بهلاك الكندي، إنّي لأذكر
بكما قوله:

كدأبك من أمّ الحويرث قبلها،

وجارتها أمّ الرباب بمأسل

إذا قامت تَضَوَّعَ المسك منهما

نسيم الصِّبا جاءت بريا القرنفل وقوله:

على جوذرين، أو كبعض دمي هكر

كعاطفتين من نعاج تبالّة

وأصورةً من اللّطيمة والقطر

إذا قامت تَضَوَّعَ المسك منهما

وأين صاحبتاه منكما لا كرامة لهما ولا نعمة عين؟ جلسةً معكما بمقدار دقيقة من دقائق ساعات
الدُّنيا، خيرٌ من ملك بني آكل المزار وبني نصر بالجيرة وآل جفنة ملوك الشّام.
ويقبل على كلِّ واحدةٍ منهما يترشّف رضا بها ويقول: إنّ امرأ القيس لمسكينٌ مسكينٌ! تحترق عظامه
في السّعير وأنا أتمثّل بقوله:

وريح الخزامى ونشر القطر

كأنّ المدام وصبوب الغمام

إذا غرّد الطائر المستحر

يعلُّ به برد أنيابها،

وقوله:

كالمسك بات وظلّ في الفدّام

أيّام فوها كلّمنا نبهتها

من خمر عانة أو كروم شبام

أنف كلون دم الغزال معتقّ

فستغرب إحداهما ضحكاً. فيقول: ممّ تضحكين! فتقول: فرحاً بتفضل الله الذي وهب نعيماً، وكان
بالمغفرة زعيماً، أتدري من أنا يا عليّ بن منصور؟ فيقول: أنت من حور الجنان اللّواتي خلقكن الله
جزاءً للمتّقين، وقال فيكنّ: كأنهنّ الياقوت والمرجان فتقول: أنا كذلك يانعام الله العظيم، على أنّي
كنت في الدار العاجلة أعرف بجمدونة، وأسكن في باب العراق بجلب وأبي صاحب رحيّ، وتزوّجني
رجلٌ يبيع السّقط فطلّقني لرائحة كرهها من فيّ، وكنت من أقبح نساء حلب، فلمّا عرفت ذلك
زهدت في الدنيا الغرّارة، وتوفّرت على العبادة، وأكلت من مغزلي ومردني، فصيرني ذلك إلى ما ترى.
وتقول الأخرى: أتدري من أنا يا عليّ بن منصور؟ أنا توفيق السّوداء التي كانت تخدم في دار العلم

بيغداد على زمان أبي منصور محمد بن عليّ الخازن وكنت أخرج الكتب إلى التّساخ.
فيقول: لا إله إلاّ الله، لقد كنت سوداء فصرت أنصح من الكافور، وإن شئت القافور. فتقول:
أتعجب من هذا، والشاعر يقول لبعض المخلوقين:

لو أن من نوره مثقال خردلة

في السُّود كلّهم، لأبيضت السُّود ويمرُّ ملكٌ من الملائكة، فيقول: يا عبد الله، أخبرني عن الحور العين،
أليس في الكتاب الكريم: "إنّا أنشأناهنّ إنشأءً، فجعلناهنّ أبكاراً، عرباً أتراباً، لأصحاب اليمين".
فيقول الملك: هنّ على ضربين: ضربٌ خلقه الله في الجنّة لم يعرف غيرها، وضربٌ نقله الله من الدار
العاجلة لما عمل الأعمال الصالحة. فيقول، وقد فكرتُما سمع، أي عجب: فأين اللّواتي لم يكنّ في الدار
الفانية؟ وكيف يتميّنن من غيرهنّ؟ فيقول الملك: قف أثري لثرى البديء من قدره الله. فيتبعه،
فيجيء به إلى حدائق لا يعرف كنهها إلاّ الله، فيقول الملك: خذ ثمرةً من هذا الثمر فاكسرها فإنّ هذا
الشجر يعرف بشجر الحور.

فيأخذ سفرجلة، أو رمانة، أو تفاحة، أو ما شاء الله من الثمار، فيكسرها، فتخرج منها جارية حوراء
عيناء تبرق لحسنها حوريات الجنان، فتقول: من أنت يا عبد الله؟ فيقول: أنا فلان بن فلان. فتقول:
إنّي آمنى بلبائك قبل أن يخلق الله الدُّنيا بأربعة آلاف سنة. فعند ذلك يسجد إعظاماً لله القدير ويقول:
هذا كما جاء في الحديث: أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، وبله ما أطلعتهم
عليه وبل في معنى: دع وكيف.

ويخطر في نفسه، وهو ساجدٌ، أنّ تلك الجارية، على حسنها، ضاويةٌ، فيرفع رأسه من السُّجود وقد
صار من ورائها ردفٌ يضاها كضبان عاجٍ، وأنقاء الدّهناء، وأرملة ييرين وبني سعدٍ، فيهال من قدرة
اللّطيف الخبير ويقول: يا رازق المشرقة سناها، ومبلغ السائلة مناها، والذي فعل ما أعجز وهال،
ودعا إلى الحلم الجهّال، أسألك أن تقصر بوص هذه الحوريّة على ميلٍ في ميلٍ، فقد جاز بها قدرك حدّ
التأميل. فيقال له: أنت مخيّر في تكوين هذه الجارية كما تشاء. فيقتصر من ذلك على الإرادة.

ويبدو له أن يطّلع إلى أهل النار فينظر إلى ما هم فيه ليعظم شكره على النّعم، بدليل قوله تعالى: "قال
قائلٌ منهم: إنّي كان لي قرينٌ، يقول أنّك لمن المصدّقين، أنذا متنا وكنا تريباً وعظاماً أنّنا لمدينون. قال
هل أنتم مطّلعون. فاطّلع فراآه في سواء الجحيم، قال: تالله إن كدت لتردين، ولولا نعمة ربّي لكنت
من المخضرين".

فيركب بعض دوابّ الجنّة ويسير، فإذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنّة، ولا عليها النور الشّعشعانيّ،

وهي ذات أدحال وغماليل. فيقول لبعض الملائكة: ما هذه يا عبد الله؟ فيقول: هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد، صلى الله عليه وسلم، وذكروا في الأقحاف، وفي سورة الجن، وهم عددٌ كثيرٌ. فيقول: لأعدّلنّ إلى هؤلاء فلن أخلو لديهم من أعجوبة. فيعوج عليهم، فإذا هو بشيخ جالس على باب مغارة، فيسلم عليه فيحسن الردّ ويقول: ما جاء بك يا إنسي؟ إنك بخير لعسي، مالك من القوم سي! فيقول: سمعت أنّكم جنّ مؤمنون فجئت ألتمس عندكم أخبار الجنّان، وما لعلّه لديكم من أشعار المردة.

فيقول ذلك الشيخ: لقد أصبت العالم ببجدة الأمر، ومن هو منه كالقمر من الهالة لا كالحاقن من الإهالة، فسل عمّا بدا لك.

فيقول: ما أسمك أيها الشيخ؟ فيقول: أنا الخيشعر أحد بني الشيبان، ولسنا من ولد إبليس ولكننا من الجنّ الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم، صلى الله عليه. فيقول: أخبرني عن أشعار الجنّ، فقد جمع منها المعروف بالمرزبانيّ قطعةً صالحة. فيقول ذلك الشيخ: إنّما ذلك هذيانٌ لا معتمد عليه، وهل يعرف البشر من التّظيم إلّا كما تعرف البقر من علم الهية ومساحة الأرض؟ وإنّما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قلّ ما يعدوها القائلون، وإنّ لنا لآلاف أوزانٍ ما سمع بها الإنس. وإنّما كانت تخطر بهم أطيافٌ ممّا عارمون فتنتفث إليهم مقدار الضّوازة من أراك نعمان. ولقد نظمت الرّجز والقصيد قبل أن يخلق الله آدم بكورٍ أن كورين. وقد بلغني أنّكم معشر الإنس تلهجون بقصيدة امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

آداب الجنّ

تَحْفَظُونَهَا الحزورة في المكاتب، وإن شئت أمليتك ألف كلمة على هذا الوزن على مثل: منزل وحومل، وألفاً على ذلك القبريّ يجيء على منزل وحومل، وألفاً على متزلاً وحوماً، وألفاً على: منزل وحومله، وألفاً على: منزل وحومله. وكلّ ذلك لشاعرٍ ممّا هلك وهو كافرٌ، وهو الآن يشتعل في أطباق الجحيم. فيقول، وصل الله أوقاته بالسعادة: أيها الشيخ، لقد بقي عليك حفظك! فيقول: لسنا مثلكم يا بني آدم يغلب علينا النسيان والرطوبة، لأنّكم خلقتكم من

حماء مسنون، وخلقنا من مارج من نار. فتحمله الرغبة في الأدب أن يقول لذلك الشيخ: أفتملُّ عليَّ شيئاً من تلك الأشعار؟ فيقول الشيخ: فإذا شئت أملتك ما لا تسفه الرُّكاب، ولا تسعه صحف دنياك.

فيهمُّ الشيخ، لا زالت همته عاليةً، بأن يكتب منه، ثمَّ يقول: لقد شقيت في الدار العاجلة بجمع الأدب، ولم أحظ منه بطائل، وإنما كنت أتقرَّب به إلى الرؤساء، فأحتلب منهم درَّبكيء وأجهد أخلاف مصور، ولست بموفقٍ إن تركت لذات الجنة وأقبلت أنتسخ آداب الجنِّ ومعني من الأدب ما هو كان لاسيما وقد شاعالنسيان في أهل أدب الجنة، فصرت من أكثرهم رواية وأوسعهم حفظاً، والله الحمد.

ويقول لذلك الشيخ: ما كنيته لأكرمك بالتكنية؟ فيقول: أبو هدرش، أولدت من الأولاد ما شاء الله، فهم قبائل: بعضهم في النار الموقدة، وبعضهم في الجنان. فيقول: يا أبا هدرش، مالي أراك أشيب وأهل الجنة شباب؟ فيقول: إنَّ الإنس أكرموا بذلك وأحرمناه، لأننا أعطنا الحولة في الدار الماضية، فكان أحدنا إن شاء صار حيَّة رقشاء، وإن شاء صار عصفوراً، وإن شاء صار حمامة، فمنعنا التصوُّر في الدار الآخرة، وتركنا على خلقنا لا نتغيَّر، وعوض بنو آدم كونهم فيما حسن من الصور. وكان قائل الإنس يقول في الدار الذهبية: أعطينا الحيلة، وأعطي الجنُّ الحولة.

ولقد لقيت من بني آدم شرًّا، ولقوا منِّي كذلك، دخلت مرَّةً دار أناس أريد أن أصرع فتاةً لهم، فتصوَّرت في صورة عضلٍ أي جردٍ فدعوا لي الصيَّاون، فلما أرهقتني تحوَّلت صلاً أرقم ودخلت في قطنٍ هناك، فلما علموا ذلك كشفوه عني، فلما خفت القتل صرت ربحاً هفافةً فلحقت بالروافد ونقضوا تلك الخشب والأجدال فلم يروا شيئاً. فجعلوا يتفكِّنون ويقولون: ليس هاهنا مكانٌ يمكن أن يستتر فيه. فبيناهم يتذاكرون ذلك عمدت لكعابهم في الكلة، فلما رأني أصابها الصرع، واجتمع أهلها من كلِّ أوب، وجمعوا لها الرقاة، وجاؤوا بالأطبة وبدلوا المنفسات، فما ترك راقٍ رقية إلاَّ عرضها عليَّ وأنا لا أجيب، وغبرت الأساءة تسقيها الأشفية وأنا سدكُّ بها لا أزول، فلما أصابها الحمام طلبت لي سواها صاحبةً، ثمَّ كذلك حتى رزق الله الإنابة وأثاب الجزيل، فلا أفتأ له من الحامدين:

حمدت من حطَّ أوزاري ومزَّقها

عني، فأصبح ذنبي اليوم مغفوراً

وكنت ألف من أتراب قرطبة

خوداً، وبالصينِ أخرى بنت يغبورا

أزور تلك وهذي، غير مكترث
في ليلة، قبل أن أستوضح النورا
ولا أمرٌ بوحشي ولا بشر،
إلاّ وغادرته وهان مذعورا
أروّع الزنج إماماً بنسوتها
والرُوم والتُّرك والسّقلاب والغورا
وأركب الهيق في الظّماء معتسفاً
أولاً، فذبّ ريادة بات مقررورا
وأحضر الشّرب أعروهم بآبدة
يزجون عوداً ومزماراً وطنبوراً
فلا أفارقهم حتّى يكون لهم
فعلٌ، يظلُّ به إبليس مسرورا
وأصرف العدل ختلاً عن أمانته
حتى يخون، وحتى يشهد الزُّورا
وكم صرعت عواناً في لظى لهبٍ
قامت تمارس للأطفال مسجوراً
وذادني المرء نوحٍ عن سفينته،
ضرباً، إلى أن غدا الطُّنبوب مكسورا
وطرت في زمن الطوفان معتلياً
في الجوّ حتى رأيت الماء محسورا
وقد عرضت لموسى في تفرّده
بالشاء ينتج عمروساً وفرفوراً
لم أخله من حديثٍ ما، ووسوسةٍ
إذ دكّ ربُّك في تكليمه الطُّورا

أضللت رأي أبي ساسان عن رشدٍ

وسرت مستخفياً في جيش سابورا

وساد بهرام جور وهو لي تبعٌ

أيام يبني على علاته جورا

فتارة أنا صلُّ في نكارتة،

وربّما أبصرتني العين عصفورا

تلوح لي الإنس عوراً أو ذوي حولاً

من بعد ما عشت بالعصيان مشهورا

حتى إذا انفضت الدنيا ونودي: إس

رافيل ويحك، هلاً تنفخ الصُورا

أمانتي الله شيئاً، ثم أيقظني

لمبعثي، فرزقت الخلد مبرورا فيقول: لله درك يا أبا هدرش؟ لقد كنت تمارس أوابد ومنديات، فكيف ألسنتكم؟ أيكون فيكم عربٌ لا يفهمون عن الروم، ورومٌ لا يفهمون عن العرب، كما نجد في أجيال الإنس؟ فيقول: هيهات أيها المرحوم إننا أهل ذكاء وفطن، ولا بد لأحدنا أن يكون عارفاً بجميع الألسن الإنسيّة، ولنا بعد ذلك لسانٌ لا يعرفه الأنيس. وانا لاذي أندرت الجنّ بالكتاب المنزل: أدلجت في رفقة من الخابل نريد اليمن، مررنا بيثرب في زمان المعو أي الرُطب ف سمعنا قرآناً عجيباً يهدي إلى الرُشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً: وعدت قومي فذكرت لهم ذلك، فتسرعت منهم طوائف إلى الإيمان، وحثّهم على ما فعلوه أنّهم رجوا عن استراق السّمع بكواكب محرقات . فيقول: يا أبا هدرش، أخبرني، وأنت الخبير، هل كان رجم النُّجوم في الجاهليّة؟ فإنّ بعض النَّاس يقول إنّه حدث في الإسلام. فيقول: هيهات أما سمعت قول الأوديّ:

فارسٌ، في كفه للحرب نار

كشهاب القذف يرميكم به

وقول ابن حجر:

نقعٌ يثور، تخاله طنبا

فانصاع كالدرّيّ يتبعه

ولكنَّ الرَّجْمَ زاد في أوان المبعث، وإنَّ التَّخْرُصَ لكثيرٌ في الإنس والجنِّ، وإنَّ الصَّدقَ لمعوزٌ قليلٌ،
وهنيئاً في العاقبة للصَّادقين.
وفي قصِة الرَّجْمِ أقول:

مكَّةُ أقوت من بني الدَّردبيس

فما لجنِّيَّ بما من حسيس

وكسرت أصنامها عنوةً،

فكلُّ جبتٍ بنصيلٍ رديس

وقام في الصَّفوة من هاشمٍ

أزهر لا يغفل حقَّ الجليس

يسمع ما أنزل من ربِّه ال

قدُّوس وحيًّا مثل قرع الطَّسيس

يجلد في الخمر، ويشتدُّ في ال

أمر، ولا يطلق شرب الكسيس

ويرجم الزَّاني ذا العرس لا

يقبل فيه سؤلةً من رئيس

وكم عروسٍ بات حراسها

كجرهم في عزِّها أو جديس

زفت إلى زوجٍ لها سيِّدٍ

ما هو بالنَّكس ولا بالضَّيبس

غرت عليها، فتخلَّجتها

بواشك الصَّرعة قبل المسيس

وأسلت الغادة محجوبةً

في الخدر، أو بين جوار تيمس

لا أنتهي عن غرضي بالرقى،

إذا انتهى الضيغم دون الفزيس
وأدلج الظلماء في فتية
ملجن فوق الماحل العربيس
في طاسم تعزف جناته،
أقفز إلا من عفاريت ليس
بيض، بها ليل، ثقال، يعا
ليل، كرام، ينطقون المهسيس
تحملنا في الجنج خيل لها
أجنحة، ليست كخييل الأنيس
وأينق تسبق أبصاركم
مخلوقة بين نعام وعيس
تقطع من علوة في ليلها
إلى قرى شاس بسير هميس
لا نسك في أيامنا عندنا
بل نكس الدين فما إن نكيس
فالأحد الأعظم، والسبت كال
إثنين، والجمعة مثل الخميس
لا مجس نحن، ولا هود
ولا نصارى يتغون الكنيس
نمزق التوراة من هونها،
ونحطم الصلبان حطم اليبيس
نحارب الله جنوداً لإب
ليس أخي الرأي الغين النجيس
نسلم الحكم إليه إذا

قاس، فنرضى بالضلال المقيس
نزين للشارخ والشيخ أن
يفرغ كيساً في الحنا بعد كي
ونفتري جنّ سليمان كي
نطلق منها كلّ غاو حبيس
صيرّ في قارورة رصّصت
فلم تغادر منه غير النّسيس
ونخرج الحسناء مطرودةً
من بيتها عن سوء ظنّ حديس
نقول: لا تقنع بتطبيقه
وأقبل نصيحاً لم يكن بالدّسيس
حتى إذا صارت إلى غيره
عاد من الوجد بجدّ تعيس
نذكره منها، وقد زوجت،
ثغراً كدرّ في مدام غريس
ونخدع القسييس في فصحه
من بعد ما ملّىء بالأنقليس
أصبح مشتاق إلى لذة
معللاً بالصّرّف أو بالخفيس
أقسم لا يشرب إلاّ دوي
ن السُّكر، والبازل تالي السّديس
قلنا له: أزدد قدحاً واحداً
ما أنت أن تزداده بالوكيس
يحميك في هذا الشّفيف الذي

يطفىء بالقرّ التهاب الحميس
فعبّ فيها، فوهى لبّه
وعُدّ من آل اللّعين الرّجيس
حتّى يفيض الفم منه على
نمرقنيه بالشّراب القليس
ونسخط الملك على المشفق ال

مفرط في التّصح إذا الملك سيس
وأعجل السّعلاة عن قوتها
في يدها كشح مهاة نميس
لا أتقى البرّ لأهواله
وأركب البحر أوان القريس
نادمت قابيل وشيثاً وها
بيل على العاتقة الخندريس
وصاحبي لمك لدى المزهر ال
معمل لم يعي بزير جسيس
ورھط لقمان وأيساره
عاشرت من بعد الشّباب اللّيس
ثمّت آمنت، ومن يرزق ال
إيمان يظفر بالخطير التّفيس
جاهدت في بدرٍ وحاميت في
أحدٍ وفي الخندق رعت الرّئيس
وراء جبريل وميكال نخ
لي الهام في الكبة خلي اللّسيس

حين جيوش النصر في الجوّ، وال

طاغوت كالزّرع تناهى، فديس

عليهم في هبوات الوغى

عمائمٌ صفراً كلون الوريث

صهيل حيزوم إلى الآن في

سمعي أكرم بالحصان الرّغيس

لا يتبع الصّيّد ولا يألف ال

قيد ولا يشكو الوجى والدّخيس

فلم تهبني حرّة عانس،

ولا كعابٌ ذات حسنٍ رسيس

وأيقنت زيني منّي التّقى،

ولم تخف من سطواقي ليس

وقلت للجنّ: ألا يا اسجدوا

لله، وانقادوا انقياد الخسيس

فإنّ دنياكم لها مدّة

غادرة بالسّمح أو بالشّكيس

بلقيس أودت ومضى ملكها

عنها، فما في الأذن من هلبسيس

وأسرة المنذر حاروا عن ال

حيرة كلّ في ترابٍ رميس

إنّا لمسنا بعدكم فاعلموا

برقع، فاهتاجت بشرّ بتيس

ترمي الشّياطين بنيرانها

حتى ترى مثل الرّماد الدّريس

فطاو عتني أمة منهم

فازت، وأخرى لحقت الرّكيس

وطار في اليرموك بي سابح

والقوم في ضربٍ وطعنٍ خليس

حتّى تجلّت عني الحرب كال

جمرة في وقدة ذاك الوطيس

والجمل الأتكد شاهدته

بئس نتيج الناقة العنتريس

بين بني ضبّة مستقدماً

والجهل في العالم داء نجيس

وزرت صفين على شبطة

جرداء، ما سائسها بالأريس

مجدلاً بالسيف أبطالها

وقاذفاً بالصخرة المرمريس

وسرت قدّام عليّ غدا

ة النَّهر حتى فلّ غرب الخميس

صادف مني واعظ توبة

فكانت اللقوة عند القبيس فيعجب، لا زال في الغبطة والسُرور، لما سمعه من ذلك الجنيّ، ويكره الإطالة عنده فيودّعه.

ويحُمُّ فإذا هو بأسدٍ يفترس من صيران الجنّة وحسيلها فلا تكفيه هنيئة ولا هندٌ أي مائة ولا مائتان فيقول في نفسه: لقد كان الأسد يفترس الشاة العجفاء، فيقيم عليها الأيام لا يطعم سواها شيئاً. فيلهم الله الأسد أن يتكلّم، وقد عرف ما في نفسه، فيقول: يا عبد الله، أليس أحدكم في الجنّة تقدّم له الصّحفة وفيها البهطُّ والطّريم مع التّهيدة، فيأكل منها مثل عمر السّموات والأرض، يلتدّ بما أصاب فلا هو مكتفٍ، ولا هي الفانية؟ وكذلك أنا افترس ما شاء الله، فلا تأذى الفريسة بظفرٍ ولا نابٍ، ولكن تجد من اللذة كم أجد بلطف ربّها العزيز. أتدري من أنا أيّها البزيع؟ أنا أسد القاصرة التي

كانت في طريق مصر، فلما سافر عتبة بن أبي لهب يريد تلك الجهة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " اللهم سلط عليه كلباً من كلابك"، أهدمت أن أتجوّع له أياماً، وجئت وهو نائم بين الرّفقة فتخلّلت الجماعة إليه، وأدخلت الجنّة بما فعلت .

ويمرُّ بذئبٍ يقتنص ظباءً فيفني السُّربة بعد السُّربة، وكلّما فرغ من ظبيٍّ أو ظبية، عادت بالقدرة إلى الحال المعهودة، فيعلم أنّ خطبه كخطب الأسد، فيقول: ما خبرك يا عبد الله؟ فيقول: أنا الذئب الذي كلّم الأسلمي على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كنت أقيم عشر ليالٍ أو أكثر، لا أقدر على العكرشة ولا القواع، وكنت إذا همّمت بعجبي المعيز، آسد الراعي عليّ الكلاب، فرجعت إلى الصاحبة مخزّق الإهاب. فتقول: لقد خطّنت في أفكارك، ما خير لك في ابتكارك، وربما رميت بالسُّروة فنشيت في الأقراب، فأبيت ليلتي لما بي، حتى تنتزعها السُّلقة وأنا بآخر النّسييس، فلحقّني بركة محمّد صلى الله عليه وسلم.

فيذهب، عرفه الله الغبطة في كلّ سبيل، فإذا هو بيت في أقصى الجنة، كأنه حفش أمة راعية، وفيه رجلٌ ليس عليه نور سكاّن الجنة، وعنده شجرةٌ قميئةٌ ثمرها ليس براك. فيقول: يا عبد الله، لقد رضيت بحقيرٍ شقن. فيقول: والله ما وصلت إليه إلا بعد هياطٍ ومياطٍ وعرقٍ من شقاءٍ وشفاعةٍ من قريشٍ وددت أنّها لم تكن: فيقول: من أنت؟ فيقول أنا الحطيئة العبسي فيقول: بم وصلت إلى الشفاعة؟ فيقول بالصدّق.

فيقول: في أيّ شيءٍ؟ فيقول: في قولي:

بهجر، فما أدري لمن أنا قائله

أبت شفتاي اليوم إلا تكلماً

فقبّح من وجهه، وقبّح حامله

أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه،

فيقول: ما بال قولك:

لا يذهب العرف بين الله والنّاس

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لم يغفر لك به؟ فيقول: سبقني إلى معناه الصّاحون، ونظّمته ولم أعمل به، فحرمت الأجر عليه. فيقول: ما شأن الزبرقان ابن بدر؟ فيقول الحطيئة: هو رئيسٌ في الدُّنيا والآخرة، انتفع بهجائي ولم ينتفع غيره بمدحني.

الخنساء السُّلمية

فيخلّفه ويمضي، فإذا هو بامرأة في أقصى الجنّة، قريبة من المطلّ إلى النار. فيقول: من أنت؟ فنقول: أنا الخنساء السُّلَمِيَّة، أحببت أن أنظر إلى صخرٍ فاطلّعت فرأيتُه كالجبل الشّامخ والنار تضطرم في رأسه، فقال لي؟ لقد صحّ مزعمك فيّ يعني قولي:

وإنّ صخرًا لتأتّم الهداة به كأنّه علمٌ في رأسه نار

فيطلّع فيرى إبليس، لعنه الله، وهو يضطرب في الأغلال والسّلاسل ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية. فيقول: الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله وعدوّ أوليائه! لقد أهلكت من بني آدم طوائف لا يعلم عددها إلّا الله. فيقول: من الرجل؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان من أهل حلب، كانت صناعتي الأدب، أتقرب به إلى الملوك. فيقول: بنس الصنّاعة إنّها تمّب غفّة من العيش، لا يتّسع بها العيال، وإنّها لمزلةٌ بالقدم وكم أهلكت مثلك! فهنيئاً لك إذ نجوت، فأولى لك ثمّ أولى! وإنّ لي إليك حاجة، فإن قضيتها شكرتك يد المنون. فيقول: إنّني لا أقدر لك على نفع، فإن الآية سبقت في أهل النّار، أعني قوله تعالى: "ونادى أصحاب النّار أصحاب الجنّة أن أقبضوا علينا من الماء أو بما رزقكم الله، قالوا إنّ الله حرّمهما على الكافرين".

فيقول: إنّني لا أسألك في شيء من ذلك، ولكن أسألك عن خيرٍ تخبرينه: إنّ الخمر حرّمت عليكم في الدّنيا وأحلّت لكم في الآخرة، فهل يفعل أهل الجنّة بالولدان المخلّدين فعل أهل القرى؟ فيقول: عليك البهلة! أما شغلك ما أنت فيه؟ أما سمعت قوله تعالى: "ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيه خالدون"؟ فيقول: وإنّ في الجنّة لأشربةً كثيرةً غير الخمر، فما فعل بشّار بن بردٍ؟ فإنّ له عندي يداً ليست لغيره من ولد آدم: كان يفضّلني دون الشعراء، وهو القائل: إبليس أفضل من أيّكم آدم=فتبيّنوا يا معشر الأشرار

النّار عنصره، وآدم طينته، والطين لا يسمو سموّ النّار

لقد قال الحقّ، ولم يزل قائله من الممقوتين. فلا يسكت من كلامه، إلّا ورجلٌ في أصناف العذاب يغمّض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النّقم، فيفتحها الزبانية بكلايب من نار، وإذا هو بشّار بن بردٍ قد أعطي عينين بعد الكمه، لينظر إلى ما نزل به من النّكال.

فيقول له، أعلى الله درجته: يا أبا معاذ، لقد أحسنت في مقالك، وأسأت في معتقدك، ولقد كنت في الدّار العاجلة أذكر بعض قولك فأترحم عليك، ظنّ أنّ التوبة ستلحقك، مثل قولك:

ارجع إلى سكنٍ تعيش به ذهب الزّمان وأنت منفرد

ترجو غداً، وغداً كحاملةٍ

في الحي لا يدرون ما تلد !

وقولك:

واهاً لأسماء ابنة الأشدِّ

قامت تراءى إذ رأته وحدي

كالشمس بين الزبرج المنقدِّ

ضنتَّ بخدِّ، وجلت عن خدِّ

ثمَّ اتثنت كالنفس المرتدِّ؛

وصاحب كالدمل الممدِّ

أرقب منه مثل حمى الورد،

حملته في رقعة من جلدي

الحرُّ يلحى، والعصا للعبد،

وليس للملحف مثل الردِّ

الآن وقع منك اليأس! وقلت في هذه القصيدة: السُّبد، في بعض قوافيها، فإن كنت أردت جمع سُبَدٍ، وهو طائرٌ، فإنَّ فعلاً لا يجمع على ذلك؛ وإن كنت سكنت الباء فقد أسأت، لأنَّ تسكين الفتحة غير معروف، ولا حجة لك في قول الأخطل:

وما كلُّ مغبونٍ إذا سلف صفةً

براجع ما قد فاتته برداد

ولا في قول الآخر:

وقالوا: ترابيُّ، فقلت: صدقتم

أبي من ترابٍ خلقه الله آدما

لأنَّ هذه شواذٌ، فأما قول جميل:

وصاح ببين من بثينة، والنوى

جميع بذات الرضم صردٌ محجلٌ

فإنَّ من أنشده بضمِّ الصاد مخطيء، لأنَّه يذهب إلى أنَّه أراد الصرد فسكن الراء، وإنما هو صردٌ أي خالصٌ من قوهم: احبك حباً صرداً، أي خالصاً، يعني غراباً أسود ليس فيه بياضٌ، وقوله: محجلٌ أي مقيدٌ، لأنَّ حلقة القيد تسمى حجلاً،

قول عدي بن زيد

أعادل قد لاقيت ما بزغ الفتى

وطابقت في الحجلين مشي المقيد والغراب يوصف بالتقييد لقصر نساها، قال الشاعر:

ومقيد بين الديار كأنه

حبشي داجنة يخرُّ ويعتلي

فيقول بشَّارًا: يا هذا! دعني من أباطيلك فأني لمشغولٌ عنك. ويسأل عن امرئ القيس بن حجر، فيقل: ها هو ذا بحيث يسمعك. فيقول: يا أبا هند إن رواة البغداديين ينشدون في قفا نيك، هذه الأبيات بزيادة الواو في أولها، أعني قولك:

وكأن ذرى رأس المجيمر غدوةً

وكذلك:

وكأن مكايَّ الجواء

وكأن السَّباع فيه غرقى فيقول: أبعده الله أولئك! لقد أسأؤوا الرواية، وإذا فعلوا ذلك فأني فرقى يقع بين التَّظْم والتَّشْرِ؟ وإنما ذلك شيءٌ فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض، فظنَّه المتأخرون أصلاً في المنظوم، وهيئات هيئات! فيقول: أخبرني عن قولك: كبكر المقناة البياض بصفرة ماذا أردت بالبكر؟ فقد اختلف المتأولون في ذلك فقالوا: البيضة، وقالوا: الدرَّة، وقالوا: الرّوضة، وقالوا الزّهرة، وقالوا: البرديّة.

وكيف تنشد: البياض، أم البياض، أم البياض؟ فيقول: كلُّ ذلك حسنٌ، وأختار البياض، بالكسر، فيقول: فرَّغ الله ذهنه للآداب: لو شرحت لك ما قال النحويون في ذلك لعجبت. وبعض المعلمين ينشد قولك.

من السَّيْل والغناء فلنكة مغزل

فيشدُّ الثاء. فيقول: إن هذا لجهولٌ. وهو نقيض الذين زادوا الواو في أوائل الأبيات: أولئك أرادوا التَّسْق، فأفسدوا الوزن: وهذا البأس أراد أن يضحَّح الرِّنة فأفسد اللفظ. وكذلك قولي:

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها

منهم من يشدُّ الضاد، ومنهم من ينشد بالتخفيف، والوجهان من قولك: نضت الثوب. إلا أنك إذا شدت الضاد، أشبه الفعل من التضيض، يقال: هذه نضيضةٌ من المطر أي قليلٌ، والتخفيف أحبُّ إليّ، وإنما حملهم على التشديد كراهة الزَّحاف، وليس عندنا بمكروه.

فيقول: لا برح منطقياً بالحكم: فأخبرني عن كلمتك الصادية والصادية والتونية التي أولها:

كخط زبور في عسيب يمان

لمن ظلُّ أبصرته فشجاني

لقد جئت فيها بأشياء ينكرها السَّمع، كقولك:

شهدت على أقب رخو اللبان

فإن أمس مكروباً فيا رب غارة

وكذلك قولك في الكلمة الصادية:

على نفتق هيق له ولعرسه

بمنقطع الوعساء بيض رصيص وقولك:

فأسقي به أختي ضعيفة، إذ نأت،

وإذ بعد المزداد غير القريض في أشباه لذلك، هل كانت غرائزكم لا تحسُّ بهذه الزيادة؟ أم كنتم مطبوعين على إتيان مغامض الكلام وأنتم عالمون بما يقع فيه؟ كما أنه لا ريب أن زهيراً كان يعرف مكان الزحاف في قوله:

يطلب شأو امرأين قدماً حسباً نالا الملوك، وبدأ هذه السوقا

فإن الغرائز تحسُّ بهذه المواضع، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فيقول امرؤ القيس: أدركنا الأولين من العرب لا يحفلون بمجيء ذلك، ولا أدري ما شجن عنه، فأما أنا وطبقتي فكنا نمرُّ في البيت حتى نأتي إلى آخره، فإذا فني أو قارب تبين أمره للسامع. فيقول، ثبتَّ الله تعالى الإحسان عليه: أخبرني عن قولك:

ألا ربَّ يومٍ منهنَّ صالح ولا سيما يومٍ بدارة جلجل

أتشده: لك منهنَّ صالح فتزاحف الكف؟ أم تنشده على الرواية الأخرى؟ فأما يومٌ، فيجوز فيه التَّصَبُّ والحَفْضُ والرفْعُ فأما النَّصْبُ فعلى ما يجب للمفعول من الطُّروف، والعامِلُ في الطُّرفِ هاهنا فعلٌ مضمَّرٌ، وأما الرَّفْعُ فعلى أن تجعل ما كافَّةً، وما الكافَّةُ عند بعض البصريِّين نكرةٌ، وإذا كان الأمر كذلك ف هو بعدها مضمرةٌ، وإذا خفض يومٌ، ف ما من الزِّيادات. ويشدَّد سيَّ ويخفَّف: فأما التشديد فهو اللغة العالية، وبعض النَّاسِ يخفَّف، ويقال: إنَّ الفرزدق مرَّ وهو سكران على كلابٍ مجتمعةٍ. فسلم عليها فلما لم يسمع لجواب أنشأ يقول:

فما ردَّ السَّلام شيوخ قومٍ مررت بهم على سكك البريد

ولا سيما الذي كانت عليه قطيفه أرجوانٍ في القعود

فيقول امرؤ القيس: أمّا أنا فما قلت في الجاهليّة إلا بزحافٍ: لك منهنَّ صالح. وأمّا المعلّمون في الإسلام فغيّروه على حسب ما يريدون، ولا بأس بالوجه الذي اختاروه. والوجه في يوم متقاربة،

وسيّ تشديدها أحسن وأعرف. فيقول: أجل، إذا خففت صارت على حرفين أحدهما حرف علة. ويقول: أخبرني عن التسميط المنسوب إليك، أصحيح هو عنك؟ وينشده الذي يرويه بعض الناس:

تقف بكم أسج

في سيرها معج

يا صحبنا عرجوا

مهريّة دلج،

طالت بما الرّحل

والهم يشغلهم

ليست تعللهم

فعرّجوا كلهم

والعيس تحملهم

وعاجت الرّمل

إذا أصاب الفتى

فهدّ بعض القوى

يا قوم إنّ الهوى

في القلب ثمّ ارتقى

فقد هوى الرّجل فيقول: لا والله ما سمعت هذا قطّ، وإنّه لقريّ لم أسلكه، وإنّ الكذب لكثير، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام، ولقد ظلمني وأساء إليّ! أبعد كلمتي التي أوّلها:

ألا أنعم صباحاً أيّها الطلّ البالي،

وهل ينعمن من كان في العصر الخالي؟

لأقضي حاجات الفؤاد المعذب

خليليّ مرّاً بي على أمّ جندب

يقال لي مثل ذلك؟ والرّجز من أضعف الشّعْر، وهذا الوزن من أضعف الرّجز.

فيعجب، ملأ الله فواده بالسُّرور، لما سمعه من امرئ القيس ويقول: كيف ينشد:

جالت لتصرعني فقلت لها: قري

إنّي امرؤ صرعى عليك حرام أتقول: حرام، فتقوي؟ أم تقول: حرام، فتخرجه مخرج حدام وقطام؟

وقد كان بعض علماء الدّولة الثانية يجعلك لا يجوز الإقواء عليك. فيقول امرؤ القيس: لا نكرة عندنا

في الإقواء، أما سمعت البيت في هذه القصيدة:

وكأنّما من عاقلٍ إرمام

فكأنّ بدراً واصلٌ بكتفة،

فيقول: لقد صدقت يا أبا هند، لأنّ إرماماً هاهنا، ليس واقعاً موقع الصّفة فيحمل على المجاورة، لأنّه

محمول على كأنّما، وإضافته إلى ياء النّفس تضعّف الغرض. وقد ذهب بعض الناس إلى الإضافة في

قول الفرزدق:

فما تدري إذا قعدت عليه

أسعد الله أكثر أم جذام

فقالوا: أضاف كما قال جرير:

تكلم قريشي والأنصار أنصاري

وكذلك قوله:

وإذا غضبت رمت ورائي مازن

أولاد جندلتي كخير الجندل

وبعضهم يروي: أولاد جندلة كخير الجندل وجندلة هذه هي أم مازن بن مالك بن عمرو بن تميم وهي من نساء قريش.

وإنما لئروي لك بيتاً ما هو في كلِّ الروايات، وأظنه مصنوعاً لأن فيه ما لم تجر عادتكم بمثله، وهو قولك:

وعمر بن درماء الهمام إذا غدا

بصارمه، يمشي كمشية قسورا

فيقول: أبعد الله الآخر، لقد اخترص، فما اترص! وإن نسبة مثل هذا إليّ لأعدّه إحدى الوصمات، فإن كان من فعله جاهلياً، فهو من الذين وجدوا في النار صلياً، وإن كان من أهل الإسلام، فقد خبط في ظلام.

وإنما أنكر حذف الهاء من قسورة، لأنه ليس بموضع الحذف، وقل ما يصاب في أشعار العرب مثل ذلك. فأما قول القائل:

إن ابن حارث إن أشتق لرؤيته

أو أمتدحه، فإن الناس قد علموا

فليس من هذا النحو، إذ كان التغيير إلى الأسماء الموضوع أسرع منه إلى الأسماء التي هي نكرات، إذ كانت التكررة أصلاً في الباب.

عنتره العبيسي

وينظر فإذا عنتره العبيسي متلدّد في السّعير، فيقول: ما لك يا أبا عبيس؟ كأنك لم تنطق بقولك:

ولقد شربت من المدامة بعدما

ركد الهواجر، بالمشوف المعلم

بزجاجة صفراء ذات أسرة

قرنت بأزهر في الشمال مفدّم وإني إذا ذكرت قولك: هل غادر الشعراء من متردّم لأقول: إنما قيل ذلك وديوان الشعر قليلٌ محفوظٌ، فأما الآن وقد كثرت على الصائد ضباب، وعرفت مكان الجهل الرباب. ولو سمعت ما قيل بعد مبعث النبي، صلى الله عليه وسلّم، لعبتت نفسك على ما قلت، وعلمت أنّ الأمر كما قال حبيب بن أوس:

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت

حياضك منه في العصور الذّواهب

ولكنه صوب العقول إذا انجلت

سحائب منه، أعقت بسحائب فيقول: وما حبيبيكم هذا؟ فيقول: شاعرٌ ظهر في الإسلام. وينشده شيئاً من نظمه: فيقول: أما الأصل فعربيٌّ، وأما الفرع فنطق به غيٌّ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب. فيقول، وهو ضاحكٌ مستبشراً: إنما ينكر عليه المستعار، وقد جاءت العاربة في أشعار كثيرٍ من المتقدمين، إلا إنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن أوس. فما أردت بالمشوف المعلم؟ الديّار أم الرّداء؟ فيقول: أيّ الوجهين أردت، فهو حسنٌ ولا ينتقص. فيقول، جعل الله سمعه مستودعاً كل الصالحات: لقد شقّ عليّ دخول مثلك إلى الجحيم، وكانّ أذني مصغيةً إلى قينات الفسطاط وهي تغرّد بقولك:

لو أنّ ذا منك قبل اليوم معروف

أمن سميّة دمع العين تذييف؟

كأنّها رشاً في البيت مطروف

تجلّلتني إذ أهوى العصا قبلي،

فهل عذابك عني اليوم مصروف

العبد عبدكم، والمال مالكم

وإني لأتمثل بقولك:

مني بمنزلة المحبّ المكرّم

ولقد نزلت، فلا تظنّي غيره،

ولقد وفّقت في قولك: المحبّ، لأنّك جئت باللفظ على ما يجب في أحببت، وعامة الشعراء يقولون: أحببت، فإذا صاروا إلى المفعول قالوا: محبوبٌ. قال زهير بن مسعود الصّبّيّ:

والفرس الصّالح محبوب

واضحة الغرّة محبوبّة

وقال بعض العلماء: لم يسمع بمحبّ إلا في بيت عنترة. وإنّ الذي قال: أحببت، ليجب عليه أن يقول: محبّ، إلا أنّ العرب اختارت: أحبّ في الفعل، وقالت في المفعول: محبوب. وكان سيبويه ينشد هذا البيت بكسر الهمزة:

إحِبُّ لِحَبِّهَا السُّودَانَ حَتَّى

إحِبُّ لِحَبِّهَا سُودَ الْكِلَابِ

فهذا علي رأي من قال: مغيرة، فكسر الميم على معنى الإتياع، وليس هو عنده على: حبيت أحبُّ. وقد جاء حبيت، قال الشاعر:

وَاللَّهِ لَوْلَا تَمْرُهُ مَا حَبَبْتَهُ

وَلَا كَانَ أَدْنَى مِنْ عَبِيدٍ وَمَرَشَقٍ

ويقال: إنَّ أبا رجاء العطارديَّ قرأ: فَاتَّبَعُونِي يُحِبُّكُمْ اللهُ بفتح الياء.

والباب فيما كان مضاعفاً متعدياً أن يجيء بالضمِّ، كقولك: عدت أعدُّ، ورددت أردُّ، وقد جاءت أشياء نواذر كقولهم: شددت الحبل أشد وأشدُّ، ونممت الحديث أتم وأتمُّ، وعللت القول أعلُّ وأعلُّ. وإذا كان غير متعدِّ فالباب الكسر، كقولهم: حلَّ عليه الدَّين يجلُّ، وجلَّ الأمر يجلُّ. والضمُّ في غير المتعدِّي أكثر من الكسر فيما كان متعدياً، كقولهم: شَحَّ يَشْحُ وَيَشْحُ، وشبَّ الفرس يَشْبُ وَيَشْبُ، وصحَّ الأمر يَصِحُّ وَيَصِحُّ، وفحت الحية تَفْحُ وَتَفْحُ، وجمَّ الماء يَجْمُ وَيَجْمُ، وجدَّ في الأمر يَجْدُ وَيَجْدُ في حروف كثيرة.

وينظر فإذا علقمة بن عبيدة فيقول: أعزز عليَّ بمكانك! ما أغنى عنك سمطا لؤلؤك. يعني قصيدته التي على الباء: طحا بك قلبٌ في الحسان طروب والتي على الميم: هل ما علمت وما استودعت مكتوم فبالذي يقدر على تخليصك، ما أردت بقولك:

فَلَا تَعْدَلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مَغْمَرٍ

سَقْتِكَ رَوَايَا الْمَزْنِ حِينَ تَصُوبُ

وَمَا الْقَلْبُ، أَمْ مَازَكَرَهَا رِبْعِيَّةٌ

يَخْطُ لَهَا مِنْ ثَرْمَدَاءِ قَلِيبِ

أعنيت بالقليب هذا الذي يورد، أم القبر؟ ولكل وجه حسن.

فيقول علقمة: إنَّك لتستضحك عابساً، وتريد أن تجني الثمر يابساً، فعليك شغلك أيها السليم! فيقول: لو شفعت لأحد أبيات صادقة ليس فيها ذكر الله، سبحانه، لشفعت لك أبياتك في وصف النساء، أعني قولك:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي

بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ

إِذَا شَابَ رَأْسَ الْمَرْءِ، أَوْ قَلَّ مَالُهُ،

فَلَيْسَ لَهُ فِي وَدَّهِنَّ نَصِيبٌ

يَرْدُنَ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ،

وَشَرَّخَ الشَّبَابَ عِنْدَهُنَّ عَجِيبٌ

ولو صادفت منك راحة لسألتك عن قولك:

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطَ بِنِعْمَةٍ

فَحَقُّ لَشَاشٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبٌ

أهكذ نطقت بما طاءً مشددةً، أم قالها كذلك عربيٌّ سواك؟ فقد يجوز أن يقول الشاعر الكلمة، فيغيّرُها عن تلك الحال الرواة.
وإنَّ في نفسي حاجةً من قولك:

كأسٌ عزيزٌ من الأعناب عتّقها **لبعض أربابها حانيةٌ حوم**

فقد اختلف النَّاسُ في قولك حوم، فقليل: أراد حُمًّا، أي سوداً، فأبدل من إحدى الميمين واواً. وقيل: أراد حوماً أي كثيراً فضمَّ الحاء للضرورة، وقيل: حومٌ، يحام بها على الشرب أي يطاف.
وكذلك قولك:

يهدى بها أكف الخدين مختبرٌ **من الجمال كثيرٌ اللحم عيثوم**

فروي: يهدي، بالدال غير معجمة، ويهدي بذال معجمة.
وقيل: مختبرٌ، من اختبار الحوائل من اللواقح، وقيل: هو من الخبير أي الزُّبد، وقيل: الخبير اللحم، وقيل: هو الوبر.

عمرو بن كلثوم

فليت شعري ما فعل عمرو بن كلثوم، فيقال: ها هوذا من تحتك، إن شئت أن تحاوره فحاوره.
فيقول: كيف أنت أيها المصطبح بصن الغانية، والمغتبِق من الدنيا الفانية؟ لوددت أنّك لم تساند في قولك:

كأنّ متونهنّ متون غدرٍ **تصفّقها الرّياح إذا جرينا**

فيقول عمرو: إنك لقرير العين لا تشعر بما نحن فيه، فأشغل نفسك بتمجيد الله واترك ما ذهب فإنّه لا يعود. وأمّا ذكرك سنّادي، فإنّ الإخوة ليكونون ثلاثة أو أربعة، ويكون فيهم الأعرج أو الأبحق فلا يعابون بذلك، فكيف إذا بلغوا المائة في العدد، ورهاقها في المدد؟ فيقول: أعزز عليّ بأنّك قصرت على شرب حميم، وأخذت بعملك الدميم، من بعد ما كانت تسبأ لك القهوة من خُصٍّ أو غير خُصٍّ، تقابلك بلون الحصّ.

وقالوا في قولك سخيناً قولين: أحدهما أنّه فعلنا من السّخاء والنون نون المتكلمين، والآخر أنّه من الماء السّخين لأنّ لأندرين وقاصرين كانتا في ذلك الزمن للرُّوم، ومن شأنهم أن يشربوا الخمر بالماء

السَّخِينِ فِي صَيْفٍ وَشَتَاءٍ .

ولقد سئل بعض الأدباء بمدينة السلام عن قولك:

أضلته فرجعت الحنينا

فما وجدت كوجدني أم سقب

لها من تسعة إلا جنينا

ولا شمطاء لم يترك شقاها

هل يجوز نصب شمطاء. فلم يجب بشيء، وذلك يجوز عندي من وجهين: أحدهما على إضمار فعلٍ دلَّ عليه السامع معرفته به، كأنك قلت: ولا أذكر شمطاء، أي إنَّ حنينها شديدٌ، ويجوز أن يكون على قولك: ولا تنسَ شمطاء، أو نحو ذلك من الأفعال، وهذا كقولك: إنَّ كعب بن مامة جوادٌ ولا حاتمًا، أي ولا أذكر حاتمًا، أي إنَّه جوادٌ عظيم الجود، قد استغنيت عن ذكره باشتهاره.

والآخر، أن يكون من ولاء المطر إذا سقاه السقيّة الثانية، أي هذا الحنين اتَّفَق مع حنيني، فكأنه قد صار له وليًّا، ويحتمل أن يكون من ولي يلي، وقلب الياء على اللغة الطائيّة. وينظر فإذا الحارث اليشكري فيقول: لقد أتبعَت الرُّواة في تفسير قولك:

ر موالٍ لنا، وأنا الولاء

زعموا أن كلَّ من ضرب العي

وما أحسبك أردت إلا العير الحمار.

ولقد شنَّعت هذه الكلمة بالإقواء في ذلك البيت، ويجوز أن تكون لغتك أن تقف على آخر البيت ساكنًا، وإذا فعلت ذلك، اشتبه المطلق بالمقيّد، وصارت هذه القصيدة مضافةً إلى قول الراجز:

أهلكت أم هي بين الأحبا

دارٌ لظميا وأين ظميا

وبعض الناس من ينشد قولك:

ك النُّوك ما أعطيت جدًّا

فعرشن بخيرٍ لا يضر

فيجمع بين تحريك الشين وحذف الياء، من: عاش يعيش، وذلك رديٌّ. ومنه قول الآخر:

وأوذنتك إيدان الخليط المزاييل

متى تشني يا أمَّ عثمان تصرمي

وإنما الكلام: متى تشائي، لأنَّ هذا الساكن إذا حُرِّك عاد الساكن المحذوف.

ولقد أحسنت في قولك:

إنك لا تدري من الناتج

لا تكسع الشؤل بأغبارها

وقد كانوا ف يالجاهليّة يعكسون ناقة الميت على قبرة، ويزعمون أنّه إذا نهض لحشره وجدها قد بعثت له فيركبها فليته لا يهص بثقله منكبها. وهيئات! بل حشروا عراة حفاةً بهمأ أي غرلاً وتلك البليّة ذكرت في قولك:

أتلهى بها الهواجر إذك
ل ابن هم بليّة عمياء

طرفة بن العبد

ويعمد لسؤال طرفة بن العبد فيقول: يا ابن أخي يا طرفة خفف الله عنك، أتذكر قولك:

كريم يروى نفسه في حياته
ستعلم إن متنا غداً أيّنا الصدي
وقولك:

أرى قبر نحامٍ بخيلٍ بما له
كقبر غويّ في البطالة مفسد
وقولك:

متى تأتني، صبحك كأساً رويّة

وإن كنت عنها غانياً، فاغن وازدد فكيف صبحك الآن وغبوقك؟ إني لأحسبهما حميماً، لا يفتأ من شربهما ذميماً.

وهذا البيت يتنازع فيه: فينسبه إليك قومٌ، وينسبه آخرون إلى عدى بن زيد، وهو بكلامك أشبه، والبيت:

واصفر مضبوح نظرت حويره

على النار، واستودعته كفّ مجمدٍ وشدّ ما اختلف النحاة في قولك:

ألاأيهاذا الزّاجري أحضر الوغى،

وأن أشهد اللذات، هل أنت مخلدي؟ وأمّا سيويه فيكره نصب أحضر، لأنّه يعتقد أن عوامل الأفعال لا تضمّر. وكان الكوفيون ينصبون أحضر بالحرف المقدّر، ويقوي ذلك: وأن أشهد اللذات، فجئت بأن، وليس هذا بأبعد من قوله:

مشائيم ليسوا مصلحين قبيلة،
ولا ناعب إلاّ ببين غرابها

وقد حكى المازني عن علي بن قطرب أنّه سمع أبا قطرباً، يحكي عن بعض العرب نصب أحضر. ولقد جئت بأعجوبة في قولك:

يعصر فينا، كالذي تعصر

حرف أمون، دقها أזור

فرع تنقاه القداح يسر

لو كان في أملاكنا ملك

لاجتبت صحنى العراق على

متعنى يوم الرحيل بها

ولكنك سلكت مسالك العرب، فجئت بقري كلمة المرقش:

لو كان حياً ناطقاً كلم

هل بالديار أن تجيب صمم؟

وقول الأعرشى: أقصر فكل طالب سيمل على أن مرقشاً خلط في كلمته فقال:

من آل جفنة ظالم مرغم

ماذا علينا أن غزا ملك

وهذا خروج عمّا ذهب إليه الخليل.

ولقد كثرت في أمرك أقاويل الناس: فمنهم من يزعم أنك في ملك النعمان اعتقلت، وقال قوم: بل الذي فعل بك ما فعل عمرو بن هند.

ولو لم يكن لك أثر في العاجلة إلا قصيدتك التي على الدال، لكنت قد أبقيت أثراً حسناً.

فيقول طرفة: وددت أنني لم أنطق مصراعاً، وهدمت في الدار الزائلة إمرعاً، ودخلت الجنة مع الهمج والطغام، ولم يعمد لمسي بالإرغام، وكيف لي بهدء وسكون، أركن إليه بعض الركون؟ "وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً".

ويلفت عنقه يتأمل، فإذا هو بأوس بن حجر، فيقول: يا أوس، إن أصحابك لا يجيبون السائل فهل لي عندك من جواب؟ فإني أريد أن أسألك عن هذا البيت:

وفارقت وهي لم تجرب، وباع لها

من الفصافص بالنمى سفسير فإنه في قصيدتك التي أوها:

هل عاجل من متاع الحي منظور

أم بيت دومة بعد الوصل مهجور ويروي في قصيدة التابغة التي أوها:

ودع أمامة والتوديع تعذير،

وماوداعك من قمت به العير وكذلك البيت الذي قبله: قد عريت نصف حول اشهراً حدداً يسفي على رحلها في الخيرة المور وكذلك قوله:

إن الرحيل إلى قوم، وإن بعدوا،

أمسوا ومن دوهم ثهلان فالنير وكلاكما معدودٌ في الفحول، ايّ شيءٍ يحمل ذلك؟ فلم تزل تعجبني
لاميتك التي ذكرت فيها الجرحة وهي الخريطة من الأدم فقلت لما وصفت القوس:

فجئت ببيعتي مولياً لا أزيده
عليه بها، حتى يؤوب المنخل
ثلاثة أبراد جياذ، وجرجة،
وأدكن من أري الدبور معسل

فيقول أوس: قد بلغني أن نابغة بني ذبيان في الجنة، فأسأله عما بدا لك فلعله يخبرك، فإنه أجدر بأن
يعي هذه الأشياء، فأما أنا فقد ذهلت: نارٌ توقد، وبنانٌ يعقد؛ إذا غلب عليّ الظمأ، رفع لي شيءٌ
كالتهر، فإذا اغترقت منه لأشرب، وجدته سعيراً مضطرباً، فليتني أصبحت درماً، وهو الذي يقال
فيه: أودى درمٌ. وهو من بني دبّ بن مرة بن ذهل بن شيبان ولقد دخل الجنة من هو شرٌّ مني، ولكن
المغفرة أرزاق، كأنها النّشب في الدار العاجلة. فيقول، صار وليّهُ من المتبوعين، وشانته بالسفّه من
المسبوعين: إنما أردت أن آخذ عنك هذه الألفاظ، فأتحف بما أهل الجنة فأقول: قال لي أوس، وأخبرني
أبو شريح.

وكان في عزمي أن أسألك عما حكاه سيبويه في قولك:

تواحق رجلاها يداه، ورأسه
لها قتبٌ خلف الحقيبة رادف

فإنّي لا أختار أن ترفع الرّجلان واليدان، ولم تدع إلى ذلك ضرورة، لأنك لو قلت: تواحق رجليها
يداه لم يزعج الوزن؛ ولعلك، إن صحّ قولك لذلك، أن تكون طلبت المشاكهة، وهذا المذهب يقوى إذا
روي: يداها بالإضافة إلى المؤنث، فأمّ في حال الإضافة إلى ضمير المذكر فر قوة له.
وإني لكارة قولك: والخيل خارجة من القسطال أخرجت الاسم إلى مثال قليل، لأنّ فعلاً لم يجيء في
غير المضاعف، وقد حكى: ناقةٌ بما خزعالٌ أي بما ظلعٌ.
ويرى رجلاً في النار لا يميّزه من غيره، فيقول: من أنت أيها الشقي؟ فيقول: أنا أبو كبير الهذلي، عامر
بن الحليس، فيقول: إنك لمن أعلام هذيل، ولكني لم أوثر قولك:

أزهير هل عن شبيبة من معدل
أم لا سبيل إلى الشباب الأول

وقلت في الأخرى:

أزهير هل عن شبيبة من مصرف
أم لا خلود لعاجزٍ متكلف

وقلت في الثالثة: أزهير هل عن شبيبة من معكم أي من محبس فهذا يدل على ضيق عطنك بالقريض،
فهلأ ابتدأت كل قصيدة بفن؟ والأصمعي لم يرو لك إلا هذه القصائد الثلاث، وقد حكي أنه يروي
عنك الرائية التي أوها: أزهير هل عن شبيبة من مقصر وأحسن بقولك:

ولقد وردت الماء لم يشرب به
بين الشتاء إلى شهور الصيف
بالليل مورد أيم متغصّف
بالليل مورد أيم متغصّف
زقب يظل الذئب يتبع ظلّه
فيه، فيستن استنان الأخلف
فصدت عنه ظامناً، وتركته
يهتز غلفقه، كأن لم يكشف

فيقول أبو كبير الهذلي: كيف لي أن أقضم على جمرات محرقات، لأرد عذاباً غدقات؟ وإنما كلام أهل
سقر ويل وعويل، ليس لهم إلا ذلك حويل، فاذهب لطيتك، واحذر أن تشغل عن مطيتك.
فيقول، بلّغه الله أقاصي الأمل: كيف لا أجذل وقد ضمنت لي الرحمة الدائمة، ضمنها من يصدق
ضمانه، ويعم أهل الخيفة أمانة؟ فيقول: ما فعل صخر الغي؟ فيقال: هاهو حيث تراه. فيقول: يا صخر
الغي ما فعلت دهماؤك؟ لا أرضك لها ولا سماؤك! كانت في عهدك وشبابها رؤد، يأخذك من حبابها
الزؤد، فلذلك قلت:

إني بدهماء عز ما أجد
يعتادني من حبابها زؤد!

وأين حصل تليدك؟ شغلك عنه تخليدك، وحق لك أن تنساه، كما ذهل وحشي دمي نساه.
وإذا هو برجل يتصور، فيقول: من هذا؟ فيقال: الأخطل التغلبي، فيقول له: ما زالت صفتك للخمر،
حتى غادرتك أكلاً للجمر، كم طربت السادات على قولك:

أناخوا فجرؤا شاصيات كأنها
رجال من السودان لم يتسربلوا
فقلت: اصبحوني، لا أبا لأبيكم
وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا
فصبوا عقاراً في الإناء كأنها،
إذا لمحوها، جذوة تتأكل
وجاؤوا ببيسانية هي، بعدما
يعل بها الساقى، ألد وأسهل
تمر بها الأيدي سنيحاً وبارحاً،
وتوضع باللهم حي، وتحمل
فتوقف أحياناً، فيفصل بيننا
وارجعني منها مراح وأخيل
فلذت لمرتاح، وطابت لشارب
توابعها مما نعل ونهّل
فما لبنتنا نشوة لحقت بنا

تدبُّ ديبباً في العظام كأنه
ربت وربا في كرمها ابن مدينة
دبيب نمال في نقاً يتهيل
مكبُّ على مسحاته يتركل
إذا خاف من نجمٍ عليها ظمَاءةً
أدب إليها جدولاً يتسلسل
فقلت: اقتلوا عنكم بمزاجها،
وحبَّ بها مقتولةً حين تقتل

فقال التَّغليبيُّ: إنِّي جررت الذَّارِع، ولقيت الذَّارِع، وهجرت الآبدة، ورجوت أن تدعى النَّفس العابدة، ولكن أبت الأفضية.

فيقول، أحلَّ الله اهلركة بمبغضيه: أخطأت في أمرين، جاء الإسلام فعجزت أن تدخل فيه، ولزمت أخلاق سفيه؛ وعاشرت يزيد بن معاوية، وأطعت نفسك الغاوية؛ وآثرت ما فيني على باق، فكيف لك بالإباق؟ فيزفر الأخطل زفرةً تعجب لها الزبانية، ويقول: آه على أيام يزيد أسوف عنده عنبرا، ولا أعدم لديه سيسنبرا؛ وأمزح معه مزح خليل، فيحتملني احتمال الجليل؛ وكم ألسني من موشي، أسحبه في البكرة أو العشي، وكأني بالقيان الصدحة بين يديه تغنيه بقوله:

ولها بالماطرون إذا
خلفةً حتى إذا ظهرت
أنفذ النمل الذي جمعا
سكنتت من جلق بيعا
حولها الزيتون قد ينعا
فإذا بالبدر قد طلعا
وقفت للبدر ترقبه،
في قباب حول دسكرة

ولقد فاكهته في بعض الأيام وأنا سكران ملتخ فقلت:

اسلم سلمت أبا خالد
اكلت الدجاج فأفنيتها،
وحياك ربك بالعنقرز
فهل في الخنايص من مغمز

فما زادني عن ابتسام، واهتز للصلة كاهتزاز الحسام فيقول، أدام الله تمكينه: من ثم أتيت! أما علمت أن ذلك الرجل عاند، وفي جبال المعصية ساند؟ فعلام اطلعت من مذهبه: أكان موحدًا، أم وجدته في التُّسك ملحدًا؟ فيقول الأخطل: كانت تعجبه هذه الأبيات:

أخالد هاتي خبريني وأعلمني
حديث أبي سفيان لما سما بها
حديثك، إنني لا أسرُّ التناجيا
إلى أحد حتى أقام البواكيا
وأورثه الجد السعيد معاويا
وكيف بغى أمراً علي ففاته

تحلبها العيسى كرمًا شاميا

وجدنا حلالاً شربها المتواليا

تبوأ رسماً في المدينة ثاوريا

وقومي فعليني على ذاك قهوة

إذا ما نظرنا في أمور قديمة

فلا خلف بين الناس أن محمداً

فيقول، جعل الله أوقاته كلها سعيدة: عليك البهلة! قد ذهلت الشعراء من أهل الجنة والنار عن المدح والنسيب، وما شذت عن كفرك ولا إساءتك. وإبليس يسمع ذلك الخطاب كله فيقول للزبيانية: ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك! فيقولون: كيف زعمت ذلك يا أبا مرة؟ فيقول: ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه؟ قد شغلكم وشغل غيركم عما هو فيه! فلو أن فيكم صاحب نخيزة قوية، لو ثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى سقر. فيقولون: لم تصنع شيئاً يا أبا زوبعة! ليس لنا على أهل الجنة سبيل.

فإذا سمع، أسمع الله محابه، ما يقول إبليس، أخذ في شتمه ولعنه وإظهار الشتمات به. فيقول، عليه اللعنة: ألم تنهوا عن الشتمات يا بني آدم؟ ولكنكم، بحمد الله، ما زجرتم عن شيء إلا وركبتموه. فيقول، واصل الله الإحسان إليه: أنت بدأت آدم بالشتمات، والباديء أظلم: ثم يعود إلى كلام الأخطل فيقول: أنت القائل هذه الأبيات:

ولست بأكل لحم الأضاحي

قبيل الصبح: حي على الفلاح!

زأسجد عند منبلج الصباح!

ولست بصائم رمضان طوعاً

ولست بقائم كالعير أذعو

ولكني سأشربها شمولاً

فيقول: أجل، وإني لنادمٌ سادمٌ، وهل أغنت الندامة عن أخي كسع؟ ويملُّ من خطاب أهل النار، فينصرف إلى قصره المشيد، فإذا صار على ميلٍ أو ميلين، ذكر أنه ما سأل عن مهلهل التغلبي ولا عن المرقشين وأنه أغفل الشنفرى وتأبط شراً، فيرجع على أدراجه، فيقف بذلك الموقف ينادي: أين عديُّ ابن ربيعة؟ فيقال: زد في البيان. فيقول: الذي يستشهد النحويون بقوله:

يا عدياً لقد وقتك الأواقي

ضربت صدرها إلي وقالت:

وقد استشهدوا له بأشياء كقوله:

أخواننا، وهم بنو الأعمام

ولقد خبطن بيوت يشكر خبطة،

وقوله:

الندامي

كلُّهم قد سقوا بكأس حلاق

ما أرجي بالعيش بعد ندامي

فيقال: إنك لتعرف صاحبك بأمر لا معرفة عندنا به، ما التحويون؟ وما الاستشهاد؟ وما هذا الهديان؟ نحن خزنة النار، فبين غرضك تُجب إليه.

فيقول: أريد المعروف بمهلل التعلبي، أخي كليب وائل الذي كان يضرب به المثل.

فيقال: ها هو ذا يسمع حوارك، فقل ماتشاء.

فيقول: يا عدي بن ربيعة، أعزز علي بولوجك هذا المؤج! لو لم آسف عليك إلا لأجل قصيدتك التي أوها:

إذا أنت انقضيت فلا تحوري

أليتنا بذي حسم أنيري

لكانت جديرة أن تطيل الأسف عليك، وقد كنت إذا أنشدت أبياتك في ابنتك المروجة في جنب تغرورق من الحزن عينا، فأخبرني لم سُميت مهلهلاً؟ فقد قيل: إنك سُميت بذلك لأنك أول من هلل الشعر أي رققه.

فيقول: إن الكذب لكثير، وإنما كان لي أخ يقال له امرؤ القيس فأغار علينا زهير بن جناب الكلبي، فتبعه أخي في زرافة من قومه، فقال في ذلك:

هللت أثار مالكا أو صنبلأ

لما توقل في الكراع هجينهم

يهدى بشكته الرعيل الأولا

وكأنه باز عنته كبرة

هللت: أي قاربت، ويقال: توقفت، يعني بالهجين زهير بن جناب. فسُمي مهلهلاً فلمأهلك شبهت به فقيل لي: مهلهل. فيقول: الآن شفيت صدري بحقيقة اليقين.

فأخبرني عن هذا البيت الذي يروى لك:

نا كما توعد الفحول الفحولا

أرعدوا ساعة الهياج وأبرق

فإن الأصمعي كان ينكره ويقول: إنه مولد، وكان أبو زيد يستشهد به ويشبته.

فيقول: طال الأبد على لبد! لقد نسيت ما قلت في الدار الفانية، فما الذي أنكر منه؟ فيقول: زعم الأصمعي أنه لا يقال أَرعد وأبرق في الوعيد ولا في السحاب.

فيقول: إن ذلك خطأ من القول، وإن هذا البيت لم يقله إلا رجل من جذم الفصاحة، إما أنا وإما سواي، فخذ به وأعرض عن قول السُّفهاء.

ويسأل عن المرقش الأكبر، فإذا هو به في أطباق العذاب، فيقول: خفف الله عنك أيها الشَّابُّ المغتصب، فلم أزل في الدار العاجلة حزينا لما أصابك به الرجل الغفلي، أحد بني غفيلة ابن قاسط، فعليه بجملة الله! وإن قوماً من أهل الإسلام كانوا يستزرون بقصيدتك الميمية التي أولها:

هل بالديار أن تجيب صمم **لو كان حياً ناطقاً كلم**

وإنها عندي لمن المفردات، وكان يعرض الأدباء يرى أنها والميمية التي قالها المرقش الأصغر ناقصتان عن القصائد المفضليات، ولقد وهم صاحب هذه المقالة.

وبعض الناس يروي هذا الشعر لك:

تخيرت من نعمان عود أراكة،

لهند، ولكن من يبلغه هندا؟

خليلي جوراً بارك الله فيكما،

وإن لم تكن هنداً لأرضكما قصدا

وقولا لها: ليس الضلال أجارنا

ولكننا جُرنا لنلقاكم عمدا ولم أجدها في ديوانك، فهل ما حُكي صحيح عنك؟ فيقول: لقد قلت أشياء كثيرة، منها ما نُقل إليكم ومنها ما لم يُنقل، وقد يجوز أن أكون قلت هذه الأبيات ولكني سرفتها لطول الأبد، ولعلك تنكر أنها في هند، وأن صاحبتني أسماء، فلا تنفر من ذلك، فقد ينتقل المُشَبَّب من الاسم إلى الاسم، ويكون في بعض عُمره مُستهتراً بشخص من الناس، ثم ينصرف إلى شخصٍ آخر، ألا تسمع إلى قولي:

سفة تذكره خويلة بعدما **حالت ذرا نجران دون لقائها**

وينعطف إلى المرقش الأصغر فيسأله عن شأنه مع بنت المنذر وبنت عجلان فيجده غير خبير، قد نسي لترادف الأحقاب فيقول: ألا تذكر ما صنع بك جناب الذي تقول فيه:

فآلى جناب حلفة فاطعته، **فنفسك ول اللوم إن كنت لانما**

فيقول: وما صنع جناب؟ لقد لقيت الأقورين، وسقيت الأمرين، وكيف لي بعذاب الدار العاجلة!

فإذا لم يجد عنده طائلاً تركه، وسأل عن الشنفرى الأزدي فالفاه قليل التشكي والتألم لما هو فيه،

فيقول: إني لا أراك قلماً مثل قلق أصحابك. فيقول: أجل، إني قلت بيتاً في الدار الخادعة فأنا أتأدّب به حيريّ الدهر، وذلك قولي:

غوى فغوت، ثم ارعوى بعد وارعوت

وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل وإذا هو قرينٌ مع تأبّط شراً، كما كان في الدار الغرّارة. فيقول، أسنى الله حظّه من المغفرة، لتأبّط شراً: أحقُّ ما روي عنك من نكاح الغيلان؟ فيقول: لقد كنّا في الجاهليّة نتقول ونتخرّض، فما جاءك عنّا بما ينكره المعقول فإنّه من الأكاذيب، والزّمن كلّه على سجيّة واحدة، فالذي شاهده معدُّ بن عدنان كالذي شاهد نضاضة ولد آدم. والنّضاضة آخر ولد الرّجل.

فيقول، أجزل الله عطاءه من الغفران: ثقّلت إلينا أبياتٌ تُنسب إليك:

أنا الذي نكح الغيلان في بلد
ما ظلّ فيه سماكي ولا جاد
في حيث لا يعمت الغادي عمايته
ولا الظلّيم به يبغي تهبّادا
وقد لهوت بمصقول عوارضها
بكرٍ تناز عني كأساً وعنقادا
ثمّ انقضى عصرها عني وأعقبه
عصر المشيب، فقل في صالح: بادا

فاستدللت على أنّها لك لما قلت: تهبّادا، مصدر تهبّد الظلّيم إذا أكل الهبيد، فقلت: هذا مثل قوله في القافية:

طيف ابنة الحرّ إذ كنّا نواصلها

ثمّ اجتننت بها بعد التّفراق مصدر تفرّقوا تفرّاقاً، وهذا مطرّدٌ في تفعل، وإن كان قليلاً في الشعر، كما قال أبو زبيد:

فتار الزّاجرون فزاد منهم
تقرّاباً، وصادفه ضبيس

فلا يجيبه تأبّط شراً بطائل.

فإذا رأى قلة الفوائد لديهم، تركهم في الشّقاء السّرمد، وعمد لحلّه في الجنان، فيلقى آدم، عليه السّلام، في الطّريق فيقول: يا أبانا، صلّى الله عليك، قد روي لنا عنك شعراً: منه قولك:

نحن بنو الأرض وسكّانها
منها خلقتنا، وإليها نعود
والسّعد لا يبقى لأصحابه
والنّحس تمحوه ليالي السّعود

فيقول: إنَّ هذا القول حقُّ، وما نطقه إلاَّ بعض الحكماء، ولكنِّي لم أسمع به حتى السَّاعة. فيقول: وفرَّ الله قسمه في الثَّواب: فلعلَّك يا أبانا قلته ثمَّ نسيت، فقد علمت أنَّ النَّسيان متسرِّعٌ إليك، وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوَّة في فرقان محمَّد، صلَّى الله عليه وسلم: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً" وقد زعم بعض العلماء أنَّك إنَّما سمَّيت إنساناً لنسيانك، واحتجَّ على ذلك بقولهم في التَّصغير: أنيسيان، وفي الجمع: أناسي، وقد روي أنَّ الإنسان من النَّسيان عن ابن عبَّاس، وقال الطَّائي:

لا تنسين تلك العهود وإنَّما سُمِّيت إنساناً لأنَّك ناس

وقرأ بعضهم: "ثمَّ أفيضوا من حيث أفاض النَّاس بكس السِّين، يريد النَّاسي، فحذف الياء، كما حذفت في قوله: سواء العاكف فيه والباد. فأما البصريُّون فيعتقدون أنَّ الإنسان من الأنس، وأنَّ قولهم في التَّصغير: أنيسيان، شاذ، وقولهم في الجمع: أناسي، أصله أناسين، فأبدلت الياء من النون. والقول الأوَّل أحسن.

آدم كان ينطق العربية في الجنة

فيقول آدم، صلَّى الله عليه: أبيتهم إلاَّ عقوقاً وأذيةً، إنَّما كنت أتكلَّم بالعربيَّة وأنا في الجنَّة، فلما هبطت إلى الأرض نُقل لساني إلى السُّريانيَّة، فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت، فلما ردَّني الله، سبحانه وتعالى، عادت عليَّ العربيَّة، فأبي حينٍ نظمت هذا الشعر: في العاجلة أم الآجلة؟ والذي قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو في الدار الماكرة، ألا ترى قوله: منها خُلِقنا وإليها نعود فكيف أقول هذا المقال ولساني سُرْيانيُّ؟ وأمَّا الجنَّة قبل أن أخرج منها فلم أكن أدري بالموت فيها، وآته ثَمَّ حُكِم عليَّ العباد، صيِّر كأطواق حمام، وما رعى لأحدٍ من ذمام، وأمَّا بعد رجوعي إليها، فلا معنى لقولي: وإليها نعود، لأنَّه كذبٌ لا محالة، ونحن معاشر أهل الجنَّة خالدن مخلَّدون.

فيقول، قُضي له بالسَّعد المؤرَّب: إن بعض أهل السِّير يزعم أنَّ هذا الشَّعر وجدته يعرب في متقدم الصُّحف بالسُّريانيَّة، فنقله إلى لسانه، وهذا لا يمتنع أن يكون. وكذلك يروون لك، صلَّى الله عليك، لما قتل قابيل هابيل:

تغيَّرت البلاد ومن عنيتها فوجه الأرض مغبرٌ قبيح

وأودى ربع أهلها، فبانوا

وغودر في الثرى الوجه المليح

وبعضهم ينشد: وزال بشاشة الوجه المليح على الأقواء. وفي حكاية، معناها على ما أذكر أن رجلاً من بعض ولدك يعرف يابن دريد أنشد هذا الشعر، وكانت روايته: وزال بشاشة الوجه المليح فقال: أول ما قال: أقوى.

وكان في المجلس أو سعيد السِّيرافيُّ فقال: يجوز أن يكون قال: وزال بشاشة الوجه المليح بنصب بشاشة على التَّمييز، وبجذف التَّنوين لإلتقاء الساكنين، كما قال:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه

ورجال مكة مسنتون عجاف قلت أنا: هذا الوجه الذي قاله أبو سعيد شرٌّ من إقواء عشر مرات في القصيدة الواحدة.

فيقول آدم، صلى الله عليه: أعزز عليّ بكم معشر أبيني! إنكم في الضلالة متهوكون! آيت ما نطقت هذا التنظيم، ولا نطق في عصري، وإنما نظمه بعض الفارغين، فلا حول ولا قوة إلا بالله! كذبتكم على خالقكم وربكم، ثم على آدم أبيكم، ثم على حواء أمكم، وكذب بعضكم على بعض، ومآلكم في ذلك الأرض.

ذات الصفا

ثم يضرب سائراً في الفردوس فإذا هو بروضة مؤنقة، وإذا هو بجيآت يلعبن ويتماقلن، يتخاففن ويتماقلن، فيقول: لا إله إلا الله! وما تصنع حيّة في الجنة؟ فينطقها الله، جلّت عظمته، بعدما ألهمها المعرفة بما جس الخلد فتقول، أما سمعت في عمرك بذات الصفاء، الوافية لصاحب ما وفي؟ كانت تنزل بواد خصيب، ما زمنها في العيشة بقصيب، وكانت تصنع إليه الجميل في ورد الظاهرة والغب، وليس من كفر للمؤمن بسبب فلماً ثمر بودّها ماله، وأمل أن يجتذب آماله، ذكر عندها ثاره، وأراد أن يفتقر آثاره، وأكبّ على قاسٍ معملة، يحدُّ غرابها للآملة، ووقف للسّاعية على صخرة، وهم أن ينتقم منها بأخرة، وكان أخوه ممن قتلته، جاهرته في الحادثة أو قيل ختلته، فضربها ضربةً، وأهون بالمقر شربةً، إذا الرجل أحسّ التّلف، وفقد من الأنيس الخلف! فلماً وقيت ضربة فأسه، والحقد يمسك بأنفاسه، ندم على ما صنع أشدّ الندم، ومن له في الجدة بالعدم؟ فقال للحية مخادعاً، ولم يكن بما كتّم صادعاً: هل لك أن نكون خلّين، ونحفظ العهد إلّين؟ ودعاها بالسفه إلى حلف، وقد سُقي من الغدر بخلف.

فقلت: لا أفعل وإن طال الدهر، وكم قصم بالغير ظهراً! إنني أجذك فاجراً مسحوراً، لم تأل في خلّتك حوراً؛ تأبى لي صكّةً فوق الرأس، مارستها أبأسٍ مراسٍ، ويمنعك من أربك قبرٌ محفور، والأعمال الصالحة لها وفور.

وقد وصف ذلك نابغة بني ذبيان فقال:

وإنّي لألقى من ذوي الضغن منهم،

وما أصبحت تشكو من البثّ ساهره

كما لقيت ذات الصفا من خليلها،

وكانت تديه المال غباً وظاهره

فلما رأى أن ثمر الله ماله،

فأصبح مسروراً، وسدّ مفقره

أكبّ على فأسٍ يحدُّ غرابها

مذكّرة، من المعاول، باترة

وقام على حجرٍ لها فوق صخرة،

ليقتلها، أو تخطيء الكفُّ بادره

فلما وقاها الله ضربة فأسه

وللبّرّ عينٌ لا تغمض ناظره

فقال: تعالي نجعل الله بيننا

على مالنا، أو تنجزي لي آخره

فقلت: معاذ الله أفعل إنني

رأيتك مسحوراً يمينك فاجره

أبى لي قبرٌ لا يزال مقابلي،

وضربة فأسٍ فوق رأسي فاقره وتقول حيّةً أخرى: إنني كنت أسكن في دار الحسن البصريّ فيتلو

القرآن ليلاً، فتلقّيت منه الكتاب من أوله إلى آخره.

فيقول، لا زال الرشد قريناً خلّه: فكيف سمعته يقرأ: فالتق الإصباح؟ فإنه يروى عنه بفتح الهمزة كأنه

جمع صبح، وكذلك: بالعشيّ والإبكار كأنه جمع بكرٍ، من قولهم: لقيته بكراً، وإذا قلنا: إن أنعماً

وأشدّاً جمع نعمة بكرة، على طرح الهاء، فيجوز أن تكون الأبيكار جمع بكرة، فتكون على قولنا: بكرٌ وأبيكارٌ، كما يقال جنْدٌ وأجناد.

فتقول: لقد سمعته يقرأ هذه القراءة، وكنت عليها برهةً من الدهر، فلما توفّي، رحمه الله، انتقلت إلى جدارٍ في دار أبي عمرو بن العلاء، فسمعته يقرأ، فرغبت عن حروفٍ من قراءة الحسن كهذين الحرفين، وكقوله: الأنجيل، بفتح الهمزة. فلما توفّي أبو عمرو كرهت المقام، فانتقلت إلى الكوفة، فأقمت في جوار حمزة بن حبيب، فسمعته يقرأ بأشياء ينكره عليه أصحاب العربية، كخفض الأرحام في قوله تعالى: "واتّقوا الله الذي تساءلون به والأرحام" وكسر الياء في قوله تعالى: "وما أنتم بمصرّخي" وكذلك سكون الهمزة في قوله تعالى: "استكباراً في الأرض ومكر السيء" وهذا إغلاقٌ لباب العربية، لأنّ الفرقان ليس بموضع ضرورة، وإنّما حُكي مثل هذا في المنظوم. وقد روي أنّ امرأ القيس قال:

فاليوم أشرب غير مستحقبٍ **إنّما من الله، ولا واغل**

وبعضهم يروي: فاليوم أسقى، وإذا روي: فاليوم أشرب، فيجوز أن يكون ثمّ إشارةٌ إلى الضمّ لا حكم لها في الوزن، فقد زعم سيبويه أنّهم يفعلون ذلك في قول الراجز:

متى أنام لا يؤرّقني الكرى، **ليلاً ولا أسمع أصوات المطي**

وهذا يدل على أنّهم لم يكونوا يحفلون بطرح الإعراب، فأما قول الراجز:

إذا اعوججن قلت: صاحب قوم

في الدوّ، أمثال السّفين العوم فإنّه من عجيب ما جاء، وقد بله قائله عن أن يقول: صاح قوم، فلا يكون بالوزن إخلالاً، ولكنّ الذين يحتجّون له يزعمون أنّه أراد أن يعادل بين الجزئين، لأنّ قوله: حب قوم، في وزن قوله: نل عوم، وهذا يشبه ما ادّعوه في قول الهذلي:

أبيت على معاري فاخرات **بهنّ ملوّب كدم العباط**

يزعم التحوّيون أنّ قوله: معاري، بفتح الياء، حمله عليه كراهه الزّحاف، وهذا قولٌ ينتقض، لأنّ في هذه الطائفة أبياتاً كثيرةً لا تخلو من زحافٍ، وكلّ قصيدةٍ للعرب وغيرها على هذا القريّ. وكذلك قوله:

عرفت بأجدثٍ فنعا ف عرق **علاماتٍ كتخبير النماط**

فيه زحافان من هذا الجنس، ثم يجيء في كل الأبيات إلا أن يندر شيء. وقد روي عن الأصمعي أنه لم يسمع العرب تنشد إلا: أبيت على معارٍ بالتونين، وهذا لا ينقض مذهب أصحاب القياس، إذا كانوا يروون عن أهل الفصاحة خلافه.

ويهكر، أزلفه الله مع الأبرار المتقين، لما سمع من تلك الحية، فتقول هي: ألا تقيم عندنا برهة من الدهر؟ فأني إذا شئت انتفضت من إهابي فصرت مثل أحسن غواني الجنة، لو ترشفت رضاي لعلمت أنه أفضل من الدرايقة التي ذكرها ابن مقبل في قوله:

سقتني بصهباء درياقة متى ما تلين عظامي تلن

ولو تنفست في وجهك لأعلمتك أن صاحبة عنتره تفلت صدوف والصدوف: الكريهة رائحة الفم، وإنما تعني قوله:

وكان فارة تاجر بقسيمة

سقت عوارضها إليك من الفم ولو أدنيت وسادك إلى وسادي، لفضلتني على التي يقول فيها الأول:

باتت رقوداً سار الركب مدلجاً،

وما الأوانس في فكر لسارينا

كان ريقتها مسك على ضرب،

شبيت بأصهب من بيع الشامينا

يا رب، لا تسلبني حبها أبداً،

ويرحم الله عبداً قال: آمينا فيذعر منها، جعل الله أمنه متصلاً، والطالب شأوه من تقصير منتصلاً،

ويذهب مهرولاً في الجنة ويقول في نفسه: كيف يركن إلى حية شرفها السُّمُّ، ولها بالفتكة هم؟

فتناديه: هلم إن شئت اللذة، فأني لأفضل من حية ابنة مالك التي ذكرها العبسي في قوله:

ما ولدتني حية ابنة مالك سفاحاً، ولا قولي أحاديث كاذب

وأحمد عشاراً من حية ابنة أزهر التي يقول فيها القائل:

إذا ما شربنا ماء مزن بقهوة ذكرنا عليها حية ابنة أزهر

ولو أقمت عندنا إلى أن تخبر ودنا وإنصافنا، لندمت إن كنت في الدار العاجلة قتلت حية أو عثماناً. فيقول وهو يسمع خطابها الرائق: لقد ضيق الله عليّ مراشف الحور الحسان، إن رضيت بترشفت هذه الحية.

فإذا ضرب في غيطان الجنة، لقيته الجارية التي خرجت من تلك الثمرة فتقول: إنني لأنتظر منذ حين فما الذي شجك عن المزار؟ ما طالت الإقامة معك، فأملّ بالحوارة مسمعك، قد كان يحقُّ لي أن أوثر لديك على حسب ما تنفرد به العروس، يخصُّها الرجل بشيءٍ دون الأزواج.

فيقول: كانت في نفسي مآرب من مخاطبة أهل النار، فلما قضيت من ذلك وطراً عدت إليك، فاتبعيني بين كتب العبر وأنقاء المسك.

فيتخلَّل بما أهاضيب الفردوس ورمال الجنان؛ فتقول: أيها العبد المرحوم، أظنك تحتذي بي فعال الكندي في قوله:

فقيمت بها أمشي، تجرُّ وراعنا

على إثرنا أذيال مرطٍ مرحلٍ

فلما أجزنا ساحة الحي، وانتحي

بنا بطن خبث ذي قفافٍ عقنقل

هصرت بفودي رأسها فتمايلت

عليّ هضيم الكشح رياً المخلخل فيقول: العجب لقدرة الله! لقد أصبت ما خطر في السؤداء، فمن أين لك علمٌ بالكندي وإثما نشأت في ثمرة تبعذك من جنٍّ وأنيس؟ فيقول: إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ويعرض له حديث امرئ القيس في داره جلجل، فينشئ الله، جلَّت عظمته، حوراً عيناً يتماقلن في نهرٍ من أنهار الجنة، وفيهنَّ من تفضلهنَّ كصاحبة امرئ القيس، فيترامين بالشرمد، وإثما هو كأجل طيب الجنة، ويعقر هنَّ الرَّاحلة، فيأكل ويأكلن من بضيعها ما ليس تقع الصِّفة عليه من إمتاعٍ ولذادةٍ. ويمرُّ بأبيات ليس لها سموق أبيات الجنة، فيسأل عنها فيقال: هذه جنَّة الرُّجز، يكون فيها: أغلب بني عجلٍ والعجاج ورؤبة وأبو النجم وحميد الأرقط وعذافر بن أوس وأبو نخيلة وكلُّ من غفر له من الرُّجاز، فيقول: تبارك العزيز الوهاب! لقد صدق الحديث المرويُّ إنَّ الله يحبُّ معالي الأمور ويكره سفاسفها؛ وإنَّ الرُّجز لمن سفاسف القريض، قصَّرتم أيها النَّفر فقصر بكم.

ويعرض له رؤبة فيقول: يا أبا الجحاف، ما أكلفك بقوافٍ ليست بالمعجبة تصنع رجزاً على الغين ورجزاً على الطاء وعلى الظاء، وعلى غير ذلك من الحروف التافرة، ولم تكن صاحب مثلٍ مذكورٍ،

ولا لفظٍ يستحسن عذب .

فيغضب رؤبة ويقول: ألي تقول هذا وعني أخذ الخليل، وكذلك أبو عمرو بن العلاء، غبرت في الدار السالفة تفتخر باللفظة تقع إليك مما نقله أولئك عني وعن أشباهي؟ فإذا رأى، لا زال خصمه مغلباً، ما في رؤبة من الانتحاء قال: لو سبك رجلك ورجزاً أبيك، لم تخرج منه قصيدةً مستحسنةً، ولقد بلغني أن أبا مسلم كلّمك بكلامٍ فيه ابن ثأداء، فلم تعرفها حتى سألت عنها بالحيّ، ولقد كنت تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق، وإن غيرك أولى بالأعطية والصلّات .

فيقول رؤبة: أليس رئيسكم في القديم، والذي ضهلت إليه المقاييس، كان يستشهد بقولي ويجعلني له كالأمّام؟ فيقول، وهو بالقول منطوق: لا فخر لك أن استشهد بكلامك، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمة وكعاء يحمل القطل إلى النار الموقدة في السبرة التي نفض عليها الشبم ريشه، وهدم وأجلّ أيامها أن تجني عساقل ومغروداً، وتتلو نعماً مطروداً، وإنّ بعلها في المهنة لسّيء العذير، غلظ عن الفطن والتّحذير، وكم روى النّحاة عن طفلٍ، ماله في الأدب من كفلٍ، وعن امرأةٍ، لم تعدّ يوماً الدرّة .

فيقول رؤبة: أجنّت لخصامنا في هذا المنزل؟ فامض لطيتك، فقد أخذت بكلامنا ما شاء الله . فيقول، أسكت الله مجادلة: أقسمت ما يصلح كلامكم للثناء، ولا يفضل عن الهناء، تصكّون مسامع الممتدح بالجنّدل، وإنّما يطرب إلى المنّدل ومتى خرجتم عن صفة جملٍ، تترثون له من طول العمر، إلى صفة فرسٍ سابحٍ، أو كلبٍ للقنص نابحٍ، فإنّكم غير الرّاشدين فيقول رؤبة: إنّ الله سبحانه وتعالى قال: "يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم، وإنّ كلامك لمن اللغو، ما أنت إلى النصغة بذوي صغور .

العجاج

فإذا طالت المخاطبة بينه وبين رؤبة، سمع العجاج فجاء يسأل المحاجة .
ويذكر، أذكره الله بالصّاحات، ما كان يلحق أخا النّدام، من فتور في الجسد من المدام، فيختار أن يعرض له ذلك من غير أن يتزف له لبُّ، ولا يتغير عليه خبٌّ فإذا هو يخال في العظام النّاعمة دبيب نملٍ، أسرى في القمرّة على رملٍ، فيترنّم بقول إياس بن الأرت:

يظلّ لكلّ أنملةٍ دبيب

أعادل لو شربت الخمر حتى

إذا لعذرتني وعلمت أنني

لما أتلفت من مالي مُصيب

ويَتَكِيءُ على مفرشٍ من السُّنْدُسِ، ويأمر الحور العين أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سريرٍ من سرر أهل الجنة، وإنما هو زبرجدٌ أو عسجدٌ، ويكون الباريء فيه حلقةً من الذهب تطيف به من كل الأشرار حتى يأخذ كل واحدٍ من الغلمان، وكل واحدٍ من الجوارى المشبهة بالجمان، واحدةً من تلك الحلقة، فيحل على تلك الحال إلى محله المُشَيَّد بدار الخلود، فكلما مرَّ بشجرةٍ نصخته أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور، وبمسكٍ ما جني من دماء الفور، بل هو بتقدير الله الكريم.

وتناديه الثمرات من كل أوبٍ هو مستلقٍ على الظهر: هل لك يا أبا الحسن، هل لك؟ فإذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره انقضب من الشجرة بمشيئة الله، وحملته القدرة إلى فيه، وأهل الجنة يلقونه بأصناف التحيّة وآخِر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين: لا يزال كذلك أبداً سرمداً، ناعماً في الوقت المتطاوّل منعماً، لا تجد الغير فيه مزعماً. وقد أطلت في هذا الفصل، ونعود الآن إلى الإجابة عن الرسالة: فهتمت قوله: جعلني الله فداؤه، لا يذهب به إلى النفاق، وبعد ابن آدم من الوفاق، وهذه غريزةٌ خصَّ بها الشيخ دون غيره، وتعايش العالم بخداع، وأضحوا من الكذب في إبداع. لو قالت شيرين الملكة لكسرى: جعلني الله فداؤك في إقامة أو سرى، لخالبته في ذلك وناقفته، وإن راقته بالعطل ووافقته، على أنه أخذها من حال دنيّة، فجعلها في النعمى السنيّة، وعتبه في ذلك الاحباء، وجرت لهم في ذلك قصصٌ وأنباءٌ، وقيل له، فيما ذكر، والله معالم بمن جذب أو شكر: كيف تطيب نفس الملك لهذه المومس، وهي الواجحة في المغمّس؟ فضرب لهم المثل بالقدح، وإذا حظيت الغانية فليست بالمفتقرة إلى الصّدح، جعل في الإناء الشّعْر والدم، وقال للحاضر ولا ندم: أتجيب نفسك لشرب ما فيه؟ وإنما يجنح إلى تلافيه. إنَّها لا تطيب، وهي بالأنجاس قطيب.

فأراق ذلك الشيء وغسله، وهذّب وعاءه ثمَّ غسله، وجعل فيه من بعد مداها، وعرضها على الندامي، فكلّهم بهش أن يشرب، ومن يعاف العاتقة والغرب؟ فقال: هذا مثل شيرين، فلا تكونوا في السّفه مسيرين.

كم من شبل نافق أسداً، وأضمرا له غلاً وحسداً؟ ولبوءةٍ تداجي هرماًساً، تنبذ إليه المقّة وتبغض له لباساً وضيغماً نغم على فرهود، وودّ لو دفنه بالوهود والفرهود ولد الأسد بلغة أسد شنوءة، وهو، أنس الله الإفليم بقربه، أجل من أن يشرح له مثل ذلك، وإنما أفرق من وقوع هذه الرسالة في يد غلامٍ مترعرع، ليس إلى الفهم بمتسرّع، فتستعجم عليه اللَّفظة، فيظلُّ معها في مثل القيد، لا يقدر على العجل ولا الرُّويد.

وكم خالبت الذئب السلق، وفي الضمائر تكنُ الفلق أي الدواهي، ومنه قول خلفٍ.
موت الإمام فلقة من الفلق والسلق، جمع سلقة: وهي أنثى الذئب.
وملك ساني ملكة، ثم صنعت له مهلكة! يقول القائل: بأبي أنت، جاد عملك وأتقنت! ولو قدر لبت
الودج، وإنما جامل وسدج.

ولعل بعض العتارف يلفظ إلى البائضة حبة البر، ويأنس بها في حرّ وقرّ، وفي فؤاده من الضغن
أعاجيب، وتكثر وتقل المناجيب، والمناجيب ها هنا تحتل أمرين: أحدهما من النجابة، والآخر من
قولهم: مناجيب أي ضعاف، من قول الهذلي:

بعثته في سواد الليل يرقبني **إذ أثر النوم والدفع المناجيب**

والمعنى: أن المناجيب من النجابة تقل، والمناجيب من الوهن تكثر.
ولعل ذلك الصّاقع يرقب لأم الكيكة حماماً، ولا يرقب لها ذماماً. يقول في النفس المتحدثة: ليت
الذابح بكرّ على المنقضة، فإنها عين المبغضة. أو يقول: لو أنّي جعلت في قدر، أو في بعض الوطس
فلحقت بالهدر، لتزوجت هذه من الديكة شاباً مقتبلاً، يحسن لها حباً قبلاً.
وأنا أذكره بالكلمة العارضة، إذ كان قد بدأ بالإيناس، وترك مكاييد الناس: ألا يعجب من قول
العرب: فداء لك، بالكسر والتنوين كما قال الرّاجز:

ويها فداء لك يا فضاله **أجره الرّمح، ولا تباله**

ويروى تماله.

وذكر أحمد بن عبيد بن ناصح، وهو المعروف بأبي عصيدة، أن قولهم فداء لك بالكسر، إذا كان لها
مرافع لم يجز فيها الكسر والتنوين. ولا ريب أنه يحكي ذلك عن العلماء الكوفيين. وعينّه في قول
التابغة:

مهلاً فداء لك الأقوم كلهم **وما أثمر من مالٍ ومن ولد**

فأما البصريون فقد رووا في هذا البيت: فداء لك.

وكيف يقول الخليل المخلص، وهو عن الهجران متقلص: إن حنينه حنين والده من التوق، وهي الذاهلة
إن حمل عليها بعض الوسوق، وإنما تسجع ثلاثاً أو أربعاً، ثم يكون سلوؤها متبعاً؟ فأما الحمامة الهاتفة
فقد رزقها الباريء صيتاً شائعاً، وظلّ وصفها بالأسف ذاتعاً، تنهض إلى التقاط حبّ، وتعود إلى جوز

لها ذات أب، فإن هي صادفته أكيل بازٍ أو سودانق، ليس من أبصر اثره بالآنق غدا به ظفر شاهين، وهي، البائسة، من اللآهين، فما هي إلا مثل الحيوان، تملُّ حالها في أقصر أوان .
وقد زعم زاعمٌ، لا يصدّق، أنّ الحمائم في هذا العصر، يبكن مقعداً هلك في عهد نوح، أبرح له البارح أم رمي بالسُنوح، وإنّ دوامها على ذلك لدليل الوفاء، وما العوض عن خليل الصّفاء؟ لا عوض ولا نائب إلاّ فيه، وكيف يعتب الزّمن على تجافيه؟ وإنّما حشي بشراً وغدر، وكتب له العزُّ في القدر .

وأما الطّبيّة فإنّها لا توصف بحنين، ولكن تبتقل بلبّ منين . ومن لها باليانع من الأراك، ولا تقول لفارس الخيل الشّازبة: دراك ومن كان وجده يعدل عن الخلد، فإنّه إذا جنب إلى الولد، فسوف تدره المدد ناسياً، كأنّه ما جزع آسياً...

وما أقلّ صدق الألاف، ولو بيعوا من الذهب، لا الورق، بألاف:

وليس خليلي بالملول، ولا الذي إذا غبت عنه، باعني بخليل

وأحسب كثيراً تفوّه بهذه المقالة على غرّة، وما عرف مكان الشّرّة، فكيف يقدر على إخاء الملك، أم كيف يرتفع إلى الفلك؟ وأما ما ذكره من حالي، غطّي شخصه أن يلحظ بناظر الغير، ومتّع من مالٍ بحير أي كثير، قال الرّاجز:

يا ربنا من سرّه أن يكبرا فسق له ياربّ مالاً حيرا

فطالما أعطى الوثن سعوداً، فصار حضوره للجهلة موعوداً! فإن سررت بالباطل، فشهرت باتّخاذ النياطل، وإنّ الصابر مأجورٌ محمود، ولا ريب أن سيقدر لمن ظعن شربٌ مثمود . وأحلف كيمين امرئ القيس لما رغب في مقامه عند الموموقة، ولم يفرق من الرامقة ولا المرموقة، فقال:

فقلت: يمين الله، أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

والأخرى التي أقسم بها زهيرٌ، إذ عصفت بالحرب القائمة هير، أعني قوله:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله

رجالٌ بنوه، من قريشٍ وجرهم

يميناً لنعم السيّدان وجدتما

على كلّ حالٍ من سحيلٍ ومبرمٍ وبالخذاء التي نطق بها ساعدة، والمهجة إلى ملكها صاعدة، فقال:

حلف امرئ برّ سرفت يمينه

ولكل من ساس الأمور مجرب وأولي مع ذلك أليّة الفرزدق لما رهب وقوع انتقام، فاعتنم ما بين الكعبة والمقام، ووصف ما صنع فقال:

لبين رتاج قائماً ومقام

ألم ترني عاهدت ربي وإنني

ولا خارجاً من في زور كلام

على حلقة، لا أشتم الدهر مسلماً

إنني لمكذوب عليه كما كذبت العرب على الغول، وإنها عمّا يؤثر لفي شغول، وكما تقولت الأمثال السائرة على الضّبّ وله بالكلدّة إرباب الصّبّ. وكما تكلمت على لسان الضّبّ وهي خرساء، ما أطلق لسانها الوضح ولا المساء.

يظنُّ أنني من أهل العلم، وما أنا له بالصاحب ولا الخلم.

وتلك لعمرى بليّة، تفتقد معها الجليّة. والعلوم تفتقر إلى مراسٍ، ودارسٍ للكتب أخي دراس.

ويقال إنني من أهل الدّين، ولو ظهر ما وراء السّدين، ما اقتنع لي الواصف بسبّ، وودّ أن يسقيني جوزلاً بسبّ، وكيف يدعى للعلاج الوحشيّ، وإنما أبد في الرّوض الحبشيّ، أن تغريده في السّحر أشعار موزونة، تأذن لنظيرها المخزونة؟ وهل يصوّر لعاقل لبيب، أنّ الغراب التّاعب صدح بتشبيب، وأنّ العصافير الطّائرة بأجنحة، كعصافير المنذر الكائنة للتّمنحة؟ وكيف يظنُّ الظّانُّ أن للطائر أساجيع حمّامة، وإنه لأخرس مع الدّمّامة؟ فبعد من زعم أنّ الحجر متكلمٌ، وإنه عند الضّرب متألّم. ومن ألتمس من اللّغام كسوة، فإنّه لا يجد إسوة.

ولو أنّي لا أشعر بما يقال فيّ، لأرحت من إنكاري وتلافيّ، وكنت كالوثن: سواءً عليه إن وقر من الوقار، وإن أوقر من الأوقار وكالأرض السّبخة ما تحفل أن قيل: هي مريعة، أو قيل لها: بنست الزّريعة؛ وكالفرير المعتبط: ما يأبه لقول الآكل: إنّه لساحّ ولا إذا قصب: إنّه بالدّكة شاحّ. والله المستنصر على الإلاقيّ، لم توزن الراكدة بالأواقِيّ والإلاقيّ منسوبٌ إلى الإلاق وهو البرق الكاذب وكيف أغتبط إذا تحرّص عليّ، وعزيت المعرفة إليّ؟ ولست آمنأ في العاقبة، فضيحة غير مصّابة، ومثلي، إن جذلت بذلك، مثل من اتّهم بمال، فاعتقد أنّ ما ذاع من الخبر يأتيه بجمال، فسره قول الجهلة: إنّه خلف اليسار. فطلب منه بعض السّلاطين أن يحمل إليه جملةً وافرةً، فصادف كذوبةً زافرةً، وضربةً كي يقرّ، وقتل في العقوبة ولم يعظ البرّ.

وقد شهد الله أنّي أجذل بمن عابني، لأنّه صدق فيما رابني، وأهتمُّ لثناء مكذوب، يتركني كالطّريدة العذوب، ولو نطحت بقربي الجرادة، لامتنعت من كلّ إرادة، فأما روق الوعل، فأعوزه عندي نطيحٌ،

لأنِّي بروق الظبي أطيح. فغفر الله لمن ظنَّ حسناً بالمسيء، وجعله حجةً في النَّسيء. ولولا كراهتي حضوراً بين النَّاس، وإيثاري أن أموت ميتةٍ عليهم في كناس، فاجتمع معي أولئك الخائلون، لصحَّ أنَّهم عن الرُّشد حائلون، وأتار لهم الحقُّ الطَّامس وقبض على القِتاد اللَّامس.

وأما وروده حلب، حرسها الله، فلو كانت تعقل لفرحت به فرح الشَّمطاء المنهبة، ليست بالآبلة ولا المؤتبله، شحط سليلها الواحد، وما هو لحقها جاحدٌ. وقدم بعد أعوام، فنقعت به فرط أوام، وكانت معه كالخنساء ذات البرغز، رتعت به في الأصيل، وليس هو لحشف بوصيل، فلما رأت المكان آمناً، ولم تخش للسَّراح الخمع كامناً، انبسطت في المراد الواسع وخلفتها، يحاول أنفاً تكلفتها، لتجرَّ لذلك الولد ما في الأخلاف، ولا تلافي بعيد التَّلاف، فعادت المسكينة فلم تصبه، فقالت للصَّمد: لا تنصبه إن كان وقع في محالب الذَّيب، ومني ببعض التَّعذيب، فأنت القادر على تعويض الأطفال، والعالم بعقبي الطَّيرة والقال. فبينما هي تردَّد بين العلة والوله بغم لها الفقيد من حقف اتخذ فيه مريضاً، ولم يرَ من الرُّماة منبضاً، هكع لما شبع. فما ساءه القدر ولا سيع. فغمر فوادها ابتهاجاً، من بعد ما وضح لها المنهاج.

ولو رجع القارظ إلى عترة، ما بان فيها الطَّرب للرَّجعة، وما قدر من زوال الفجعة، إلا دون ما أنا مضمراً مجنُّ، من المسرة بدنو الديار. وإلقائه عصا التَّسيار، فالحمد لله الذي أعاد البارق إلى الغمام الوسمي، وأتى المومض بحلى السَّمي وإنَّ حلب المنصورة لتختلُّ إلى من يعرف قليلاً من علم، في أيَّام الحاربة والسَّلم، فما باله يد الله الآداب بأن يزيد في المدة فإنما لغرابها كالعدَّة.

وإني لأعجب من تماثل جماعة، على أمرٍ ليس بالحسن ولا بالطاعة، ولا ثبت له يقينٌ، فيشوفه الصَّنع أو يقين قد كدت أحق برهط العدم، من غير الأسف ولا التَّدم، ولكنَّما أُرهب قدومي على الجبَّار، ولم أصلح نخلي يبار. وقيل لبعض الحكماء: إنَّ فلاناً تلطف حتى قتل نفسه، ولم يطق في الدَّار الخالية عفسه، وكره أن يمارس بدائع الشُّرور، وأحبَّ التُّقلة إلى منازل الشُّرور، فقال الحكيم قولاً معناه: أخطأ ذلك الشابُّ المقتبل، وله ولأمه يحقُّ الهبل، هلاً صبر على صروف الزَّمان، حتى يمينو له القدر مانٍ؟ فإنَّه لا يشعر علام يقدم، ولكل بيت هدم! ولولا حكمة الله جلَّت قدرته، وأنَّه حجز الرَّجل عن الموت، بالخوف من العلز والقوت، لرغب كلُّ من احتدم غضبه، وكلَّ عن ضريبةٍ مقضبه، أن تترع له من الموت كؤوس، والله العالم بما يؤوس.

وأما أبو القطران الأسدي، وأيُّ البشر من الخطوب مفدي، فصاحب غزلٍ وتبطل، وتوفَّر على الخرد

وتعطل، وما أشك أن الشيخ، أقر الله عين الأدب بالزيادة في عمره أشد شوقاً إلى أحمد بن يحيى مع صمعه، وأبي الحسن الأثرم مع ثرمه، من المرار بن سعيد عند رجاء العدة وخوف الوعيد، وهو ذلك المتهم إلى وحشية، وإن فقد لبيها الحشية، وادكر ثغراً كالإغريض، وخذاً يعدل بلون الإحريض وإثماً وذُ الغانية خلابٌ وخذاعٌ، وللكمذ في هواه ابتداعٌ. ولو هلكت تلك المرة والمرار يعيش، لعدّ أنه بتلفها نعيش، ولا سيما بعد السنّ العالية، وقوة النفس الآلية. ولعلّ ابا القطران لو متّع بهذه المذكورة ما يكون قدره مائة حقبة، على غير الجزع والرقبة، لجاز أن يغرض من الوصال، إذا علم أن حبله في اتصال. ولو نزل بها شيءٌ تتغير به عن العهد، لتمنّى أن تقذف إلى غير المهدي، لأن ابن آدم بخيلٌ ملول، نسري به إلى المنية أمونٌ ذلول. ولو أصابها العور، بعد أن سكن عينها الحور، لظن أن ذلك نبأ لا يغفر ولا يكفر، فكيف يعتب على الفاهين، وينتقم من القوم الساهين؟ والله سبحانه، قد رفع ذلك عن ساه ما علم، ونائم إذا أحسّ بالمؤلم ألم.

ومن أين لذلك الشخص الأسدي، ما وهبه الله للشيخ من وفاء لو علم به السموع لا اعترف أنه من الغادرين، أو الحارث ابن ظالم لشهد أنه من السادرين؟! من قولهم فعل كذا وكذا سادراً، أي لا يهتم لشيء، وإثماً عاشر أبو القطران أعبداً في الإبل وآمياً، ونظر إلى عقبه دامياً، ممّا يطأ على هراس، ومن له في المكلاة بالفراس؟ وهو التمر الأسود، ومن أبيات المعاني:

إذا أكلوا الفراس رأيت شاماً

على الأنبات منهم والغيوب

فما تنفك تسمع قاصفات

كصوت الرعد في العام الخصيب

ولعلّه لو صادف غانية على وحشية بشقّ الأبلمة لسلاها غير المؤلمة، وإثماً ديدن ذلك الرجل ونظره صفقه ناقة أو ربع، وما شجره المغترس بالنبع. إذا جنى الكمأة ببح، وخال أنه قد نجح! ولو حضر أخونة حضرها الشيخ لعاد كما قال القائل:

فلو كنت عذري العلاقة لم تبت

بطيناً، وأنسك الهوى كثرة الأكل وهو، قدر الله له ما أحب، قد جالس ملوك مصر التي قال فيها فرعون: أليس لي ملك مصر وهذه الأثمار تجري من تحتي أفلا تبصرون؟ وقد أقام بالعراق زمناً طويلاً، وأدام على الأدب تعويلاً، وبالعراق مملكة فارس، وهم أهل الشرف والظرف، يوفي صرفهم في الأطمعة على كل صرف، ولا ريب أنه قد جالس بقاياهم، واختبر في المعاشرة سجايهم، وعاطوه الأكوّس آلات التصاوير، على عاد المرابذة والأساوير، كما قال الحكمي:

تدور علينا الكأس في عسجدية

حبتها بأنواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى، وفي جنباتها

مها تدريها بالقسي الفوارس

وأبو القطران كان يستقي التُّطفة بخلبة، ويجعلها في الغمر أو العلبة، وإذا طعم فمن له باللَّهدة، وإن أخصب شرع في التَّهيدة. وما أشكُّ أنَّه، أمتع الله الآداب ببقائه، لو رزق محاورة أبي الأسود على عرجه وبخله المتناذر وجرجه، لكانت مقته له أبلغ من مقة مهدي ليلاه ولا أقول رؤية أبيلاه. ولو أدرك محاضرة أبي الخطَّاب لكان بدوش عينيه أشدَّ شغفاً من الحادرة بسمية، ومن غيلان بمية لأته قال:

وعيان قال الله: كونا، فكانتا، فعولان بالألباب ما تفعل الخمر وهو بجمع أبي الحسن سعيد بن مسعدة، أعجب من كثير بشنب عزّة، والعذري بلمى بثينة. ولو كان أبو عبيدة أذفر الفم، لما أمنت مع كلفه بالأخبار، أن يقبله شقّ البلسة بلا استكبار، وفي الحديث عن عائشة، رحمة الله عليها: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقبلني شقّ التينة. وروى بعضهم: شقّ التمرة. وذلك أن يأخذ الشفة العليا بيده، والسفلى بيده الأخرى، ويقبل ما بين الشفتين.

وأما من فقدته من الأصدقاء لما دخل حلب، حرسها الله، فتلك عادة الزمن، ليس على لسالم بمؤتمن، يبدل من الأبيات المسكونة قبوراً، ولا يلحق بعشرة جبوراً. وإنّ رسم الهالك لبيت الحق، وإن طرق بالملم الأشق. على أنه يغني الثاوي بعد عدم، ويكفيه المؤونة مع القدم. وإنّ الجسد لمن شرّ خبيء، يبعد من سبي وسبيء. قال الصبي:

ولقد علمت بأن قصري حفرة

ما بعدها خوف علي ولا عدم

فأزور بيت الحق زورة ماكث

فعلام أحفل ما تقوؤص وانهدم؟

وما زالت العرب تسمي القبر بيتاً، وإن كان المنتقل إليه ميتاً، قال الراجز:

اليوم يُبنى لدويد بيته

يا رب بيت حسب بنيته

ومعصم ذي برة لويته

لو كان للدهر بلى أبليته

أو كان قرني واحداً كفته فأمّا الفصل الذي ذكر فيه الخليل، فقد سقط منه اسم الذي غلا في، وقرن بالنجوم الصلاني، ومن كان، فغفر الله جرائمه، وحفظ له في الأبد كرائمه، فقد أخطأ على نفسه فيما زعم وعلي، ونسب مالا أستوجب إلي. وكم أعتذر وأتصل، من ذنب ليس يتحصّل؟! وإنّي لأكره بشهادة الله تلك الدعوى المبطلّة، كراهة المسيح من جعله ربّ العزّة، فما ترك للفتن من مهزّة بدليل

قوله تعالى: "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلت فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب".

وأما أبو الفرج الزَّهرجِيُّ فمعرفة بالشَّيخ تقسم أنه للأدب حليفٌ، وللطَّبع الخيِّر أليفٌ. ووددت أن الرِّسالة وصلت إليّ، ولكن ما عدل ذلك العديل، فبعدهما تغنّى هديل، هلاً اقتنع بنفقة أو ثوب، وترك الصُّحف عن نوب!؟ فأرب من يديه، ولا اهتدى في الليلة بفرقديه. لو أنه أحد لصوص العرب الذين رويت لهم الأمثال السائرة، وتحدّثت بهم المنجدة والغائرة، لما اغتقرت ما صنع بما نظم، لأنه أفرط وأعظم، أي أتى عزيمة وبتك من القلائد نظمةً. وقد وقَّ أبو الفرج وولده، وصار كاللَّجّة ثمده، لما درس عليه الكتب، وحفظ عنه ما يكون الترتب، فسلم العاتكة إلى القاريّ، والنَّافجة إلى المرء الداريّ، والرُّمح الأطول إلى ابن الطُّفيل، والأعنة إلى أحلاس الخيل.

وإن كان الشَّيخ مارس من التعب أمَّ الرُّبيق، فقد جدّد عهده الأوّل بقويق، وإنه لنعم التَّهر، لا يغرق السابح ولا يبهر، وبناته المخطوبات صغارٌ، يؤخذن منه في الغفلة ولا يغار. يعلوهنّ، والقدر يغوهنّ، سترن الأنفس فما تبرّجن، ولكن بالرَّغم خرجن. خدورهنّ من ماء، زارهنّ الملموءة بالإلماء والملموءة الشبّكة، يقال: ألما على الشيء إذا أخذه كله ما يشعر قويق المسكين، أعرب سبت من ولد أم روم، ولا يحفل بما تروم. ولقد ذكره البحريّ، ونعته الصنوبريّ، وإخال أن الشَّيخ أفسدته عليه دجلة وصراتها، وأعانها على ذلك فراقها.

وأما حلب، فإنها الأمُّ البرّة، تعقد بها المسرّة، وما أحسبها، إن شاء الله، تظاهر بدميم العقوق، أو تغفل المفترض من الحقوق ووحشية يحتمل أن يكون، آنس الله الآداب ببقائه، جعلها نائبة عمّن فقدته من الإخوان، الذين عدم نظيرهم في الأوان. وكذلك تجري أمثال العرب: يكون فيها بالاسم عن جميع الأسماء، مثال ذلك أن يقول القائل:

فلا تشلل يد فتكت بعمر، فإنك لن تذل ولن تضاماً

يجوز أن يرى الرجل رجلاً قد فتك بمن اسمه حسّان أو عطارذ أو غير ذلك، فيتمثّل بهذا البيت، فيكون عمرو فيه واقعاً على جميع من يتمثّل له به. وكذلك قول الرّاجز:
أوردها سعدٌ وسعدٌ مشتمل صار ذلك مثلاً لكلّ عمل عملاً لم يحكمه، فيجوز أن يُقال لمن اسمه خالدٌ أو بكرٌ أو ما شاء الله من الأسماء. ويضعون في هذا الباب المؤنث موضع المذكر، والمذكر موضع

المؤث، فيقولون للرجل: أطري فإنك ناعلة، والصيف ضيعة اللين، محسنة فهيلي، وابتدئهن بفعل سبيت. وإذا أرادوا أن يخبروا بأن المرأة كانت تفعل الخير ثم هلكت فانقطع ما كانت تفعله، جاز أن يقولوا: ذهب الخير مع عمرو ابن حممة. وجائز أن يقولوا لمن يحذرونه من قرب النساء: لا تبت من بكري قريباً؛ والبكري أخوك فلا تأمنه. ومثل هذا كثير.

وأما شكواه إليّ، فإنني وإياه لكما قيل في المثل: التكلي تعين التكلي، وعل ذلك حمل الأصمعي قول أبي داود:

تمع المضلُّ دعاء ناشد

ويصيخ أحياناً كما اس

كلانا بحمد الله مضلُّ، فعلى من نحمل وعلى من ندلُّ؟ أما المطية فآلية، وأما المزايدة فخالية، والركب يفتقر إلى الحصاة، وكلهم بهش للوصاة:

صبرٌ جميلٌ، فكلانا مبتلى

يشكو إليّ جملي طرل السرى

إن اشتكت السمرة سفن العاضد إلى السائلة، فإنها تشكو النازلة إلى شاك، والصدق أفضل من الابتشاك. ولا أرتاب أنه يحفظ قول الفزاري منذ خمسين حجة أو أكثر:

كنت استغنت بفارغ العقل

أعيين هلاً إذ بلت بحبها

والمستغاث إليه في شغل!

أقبلت تبغي الغوث من رجل

ولا يزل أهل الأدب يشكون الغير في كل جيل، ويخصون من العجائب بسجل سجل. وهو يعرف الحكاية أن مسلمة بن عبد الملك أوصى لأهل الأدب بجزء من ماله، وقل: إنهم أهل صناعة مجفوة. وأحسب أنهم والحرفة خلقاً توأمين، وإنما ينجح بعضهم في ذات الزمين، ثم لا تلبث أن تزل قدمه، ويتفرغى بالقدر أدمه. وقد سمع في مصر بقصة أبي الفضل وسعيد، وما كان أحدهما من الآخر ببعيد. وإذا كان الأدب على عهد بني أمية يقصد أهله بالجفوة، فكيف يسلمون من باس، عند مملكة بني العباس؟ وإذا أصابهم الخن في عدان الرشيد فكيف يطمع لهم بالخط المشيد؟ أليس أبو عبيدة قدم مع الأصمعي وكلاهما يريد النجعة، ولا يلتمس إلى البصرة رجعة، فتشبت بعبد الملك، ورد معمر، ومن يعلم بما يجن الخمر.

ومن بغى أن يتكسب بهذا الفن، فقد أودع شرابه في شن، غير ثقة على الوديعه، بل هي منه في صاحب خديعة.

سبويه

وقد روي أن سيويه لما أختبر شأنه وراز، رغب في ولاية المظالم بشيراز، وأن الكسائي تحوَّب مما صنع به، فأعانه كي يشحط على مطلبه.

فأمّا حبيب بن أوسٍ فهلك وهو بالموصل على البريد: وصاحب الأدب حليف التصريد.
وأما الذين ذكروهم من المصحّفين، فغير البررة ولا المنصفين. وما زال التّفنل يعرض لأذاة الأسد، وما أحسبه يشعر بمكان الحسد، فإذا أدّج وردّ هموس، تشقى به التامكة، أو اللّمس، فنعالة به منذرٌ، كأنه للمفترس محذّر، ولا يراه الصّيغم موضعاً للعتاب، ويجعل أمره فيما يحتمل من الخطب المنتاب.
وكم من أغلب مثارٍ، يسهّد لغناء الطّيثار، وإذا هو بليّيل تغنّى، فالقسور به معنّى:

ما يضرُّ البحر أمسى زائراً
أن رمى فيه غلامٌ بحجر
أو كلّما طنّ الذّباب أروعاه؟
إنّ الذّباب إذاً عليّ كريم!

وما زال الهمج يقولون، ويقصرون عن المكرمة فلا يطولون، وإنهم عما أثل متثاقلون، وطلاب الأدب في حباله واقلون.

من انفراد بفضيلةٍ أثيرة، فإنّه يتقدّم بمناقب كثيرة، وإن حسّاد البارع لكما قال الفرزدق:

فإن تهجّ آل الزّبيرقان، فإنّما
هجوت الطّوال الشّمّ من يذبل
وقد ينبج الكلب النّجوم ودونها
فراسخ تقصي ناظر المتأمّل

يعدو على الحاسد حسده، ويذوب من كبت جسده:

فهل ضربة الرّوميّ جاعلةٌ لكم
أباً عن كليب، أو أباً مثل دارم؟

فأمّا ما ذكره من قول أبي الطّيب: أذمُّ إلى هذا الزّمان أهيله فقد كان الرّجل مولعاً بالتصغير، لا يقنع من ذلك بجلسة المغير؛ كقوله:

من لي بفهم أهيل عصر يدعي
أن يحسب الهندي فيهم باقل؟

وقوله:

حبيبنا قلبي، فوّادي هيا جمل

وقوله:

مقالى للأحيمق يا حلّيم

وقوله:

ونام الخويدم عن ليلنا

وقوله:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر

وغير ذلك مما هو موجود في ديوانه، ولا ملامة عليه، إنما هي عادة صارت كالطبع، فما حسن بما مألوف الربع، ولكنها تغتفر مع المحاسن، والشام قد يظهر على المراسن.
وهذا البيت الذي أوله:

أذم إلى هذا الزمان أهيله

إنما قاله في علي بن محمد بن سيار بن مكرم بأنطاكية قبل أن يمدح سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان، والشعراء مطلق لهم ذلك، لأن الآية شهدت عليهم بالتحرص وقول الأباطيل: " ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون؟" وأهل كلمة أصل وضعها للجماعة، فيقال: ارتحل أهل الدار، فيعلم السامع أن المتكلم لا يقصد واحداً بما قال، إلا أن هذه الكلمة قد استعملت للآحاد، فقليل: فلان أهل الخير وأهل الإحسان، قال حاتم الطائي:

ظلت تلوم على بكر سمحت به

إن الرزينة في الدنيا ابن مسعود

غادره القوم بالمعزاء منجدلاً،

وكان أهل الندى والحزم والجود وكان هذه اللفظة أصلها أن تكون للجمع، ثم نقلت إلى الواحد، كما أن صديقاً وأميراً ونحوهما إنما وضعن في الأصل للأفراد، ثم نقلن إلى الجمع على سبيل التشبيه. وكذلك قولهم: بنو فلان أخ لنا. ويقال: أهل وأهله، وأهلات في الجمع، قال الشاعر:

فهم أهلات حول قيس بن عاصم

إذا أدلجوا بالليل، يدعون كوثرا وقال بعض النحويين في تصغير آل الرجل: يجوز أويل وأهيل، كأنه يذهب إلى أن الهاء في أهل أبدلت منها همزة، فلما اجتمعت الهمزتان جعلت الثانية ألفاً، ومثل هذا لا يثبت.

والأشبه أن يكون آل الرجل، مأخوذاً من آل يؤول، إذا رجع، كأنهم يرجعون إليه أو يرجع إليهم. أما ما ذكره من حكاية القطربلي وابن أبي الأزهري، فقد يجوز مثله، وما وضع أن ذلك الرجل حبس بالعراق، فأما بالشام فحبسه مشهور.

وحدث أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب، قال: هو من النبوة، أي المرتفع من الأرض. وكان

قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه. وإنما هي مقادير، يديرها في العلو مدير، يظفر بها من وفق، ولا يراع بالجهتهد أن يخفق.

وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متأهاً، ومثل غيره من الناس متدلهاً فمن ذلك قوله:

ولا قابلاً إلا لخالفه حكماً

وقوله:

ولا يصدق قوماً في الذي زعموا

ما أقدر الله يخزي بريته

وإذا رجع إلى الحقائق، فنطق اللسان لا ينيء عن اعتقاد الإنسان، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً، وإنما يجعل ذلك تزيناً، يريد أن يصل به إلى ثناء، أو غرض من أغراض الخالصة أم الفناء، ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون، وفيما بطن ملحدون.

دين دعبل

وما يلحقني الشك في أن دعبل بن علي لم يكن له دين، وكان يتظاهر بالتشيع، وإنما غرضه التكسب، وكم أثبت نسباً بنسب ولا أرتاب أن دعبلاً كان على رأي الحكمي وطبقته، والزندقة فيهم فاشية، ومن ديارهم ناشية.

وقد اختلف في أبي نواس: ادعي له التأله وأنه كان يقضي صلوات فهاره في ليله، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه، وذلك أن العرب جاءها النبي صلى الله عليه وسلم، وهي ترغب إلى القصيد، وتقصر هممها عن الفصيد، فاتبعه منها متبعون، والله أعلم بما يوعون، فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتسق ملكه على أركانه، مازج العرب غيرهم من الطوائف، وسمعوا كلام الأطباء وأصحاب الهيئة وأهل المنطق، فمالت منهم طائفة كثيرة.

ولم يزل الإلحاد في بني آدم على ممر الدهور، حتى إن أصحاب السير يزعمون أن آدم صلى الله عليه وسلم، بعث إلى أولاده فأنذرهم على ذلك المنهاج إلى اليوم.

وبعض العلماء يقول إن سادات قريش كانوا زنادقة. وما أجدرهم بذلك! وقال شاعرهم يرثي قتلى بدر، وتروي لشداد بن الأسود الليثي:

فحيوا أم بكر بالسلام

ألمت بالتحية أم بكر

من الأحساب والقوم الكرام

من الشيزى تكلل بالسنام

على الكأس بعد أخي هشام

وكائن بالطوي طوي بدر

وكائن بالطوي طوي بدر

ألا يا أم بكر لا تكري

من الأقوام شراب المدام

بأني تارك شهر الصيام

فقد شبع الأنيس من الطعام

وكيف حياة أصداء وهام؟

وتحيني إذا بليت عظامي؟

وبعد أخي أبيه، وكان قرماً

ألا من مبلغ الرحمن عني

إذا ما الرأس زایل منكبيه،

أيوعدونا بن كبشة أن سنحيا؟

أترك أن ترد الموت عني،

ولا يدعي مثل هذه الدعاوي إلا من يستبسل وراءها للحمام، ولا يأسف له عند الإمام.

وحدث أن أبا الطيب أيام كان إقطاعاً بصف "رؤي يصلي بموضع بمعرة النعمان يقال له كنيسة الأعراب وأنه صلى ركعتين، وذلك في وقت العصر، فيجوز أن يكون رأى أنه على سفر، وأن القصر له جائز.

وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه: أنه لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم، قالوا له وقد تبينوا دعواه: ها هنا ناقة صعبة، فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل. وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل، فتحيل حتى وثب على ظهرها، فنفرت ساعة وتنكرت برهة، ثم سكن نفارها ومشت مشي المسمحة، وأنه ورد بها الحلة وهو راكب عليها، فعجبوا له كل العجب، وصار ذلك من دلائله عندهم.

وحدث أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحاً مفرطاً، وأن أبا الطيب تغل عليها من ريقه، وشدها غير منتظر لوقته، وقال للمجروح: لا تحلها في يومك. وعد له أياماً وليالي، وإن ذلك الكاتب قبل منه، فبريء الجرح، فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد، ويقولون: هو كمحيي الأموات.

وحدث رجل: كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل، أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح ثم انصرف، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: إنك ستجد ذلك الكلب قد مات. فلما عاد

الرجل ألقى الأمر على ما ذكر (ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئاً من المطاعم مسموماً وألقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل. والحريق سم الكلاب معروف).
وأما القطريلي وابن أبي الأزره فمن الزول اجتماعهما على تأليف كتاب، وقل ما يعرف مثل ذلك. ونحو منه قصة "الخالدين" اللذين كانا في الموصل وهما شاعران، وقد كانا عند سيف الدولة وانصرفا على حد مغاضبة. ولهما ديوان ينسب إليهما لا ينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلى في أشياء قليلة. وهذا متعذر في ولد آدم إذا كانت الجبلية على الخلاف وقلة الموافقة.
فأما أن يعمل الرجل شيئاً من كتاب، ثم يتمه الآخر، فهو أسوغ في المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان. والبغداديون يحكون أن أبا سعيد السيرافي عمل من كتابه المعروف بالمنع أو الإقناع إلى باب التصغير، ثم توفي وأتمه بعده ولده أبو محمد.
وقد يجوز مثل هذا، وليس عندهم فيه ريب، وحكى لي الثقة أن أبا علي الفارسي كان يذكر أن أبا بكر بن السراج عمل من (الموجز) النصف الأول لرجل بزاز، ثم تقدم إلى أبي علي بإتمامه، وهذا لا يقال أنه من إنشاء أبي علي لأن الموضوع من (الموجز)، هو منقول من كلام ابن السراج في (الأصول) وفي (الجميل)، فكأن أبا علي جاء به على سبيل النسخ، لا أنه ابتدع شيئاً منه عنده. والذين رووا ديوان أبي الطيب يحكون عنه أنه ولد سنة ثلاث وثلثمائة. وكان طلوعه إلى الشام سنة إحدى وعشرين، فأقام فيه برهة ثم عاد إلى العراق ولم تطل مدته هنالك. والدليل على صحة هذا الخبر أن مدائحه في صباه إنما هي في أهل الشام إلا قوله:

كفي أراني ويك لومك ألوما

وأما شكيبته أهل الزمان إليه، فإنه سلك في ذلك منهاج المتقدمين، وقد كثر المقال في ذم الدهر حتى جاء في الحديث: "لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر" وقد عرف معنى هذا الكلام، وأن باطنه ليس كظاهره، إذ كان الأنبياء عليهم السلام، لم يذهب أحد منهم إلى أن الدهر هو الخالق، ولا المعبود. وقد جاء في الكتاب الكريم: "وما يهلكنا إلا الدهر" وقول بعض الناس: الزمان حركة الفلك، لفظ لا حقيقة له. وفي كتاب سيبويه ما يدل على أن الزمان عنده: مضي الليل والنهار. وقد تعلق عليه في هذه العبارة.

وقد حددته حداً ما أجدره أن يكون قد سبق إليه إلا أنني لم أسمع، وهو أن يقال: الزمان شيء أقل جزء منه يشتمل على جميع المدركات، وهو في ذلك ضد المكان، لأن أقل جزء منه لا يمكن أن يشتمل

على شي كما تشتمل عليه الظروف، فأما الكون فلا بد من تشبته بما قل وكثر .
والذين قالوا: " وما يهلكنا إلى الدهر " وغير ذلك من المقال، مثل البيت المنسوب إلى الأخطل، وذكره
حبيب بن أوسٍ لشمعة التعلبي، وهو:

لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

فإن أمير المؤمنين وفعله

وقول الآخر:

وكذاك فرق بيننا الدهر

الدهر لاعم بين ألفتنا،

وقل أبي صخر:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها

فلما انقضى ما بيننا، سكن الدهر لم يدع أن أحداً منهم كان يقرب للأفلاك القرايين، ولا يزعم أنها
تعقل، وإنما ذلك شيء يتوارثه الأمم في زمان بعد زمان .

شاتم الدهر

وكان في عبد القيس شاعر يقال له " شاتم الدهر "، وهو القائل:

وأبدى لنا وجهاً أزب مجدعا

ولما رأيت الدهر وعرأ سبيله،

وأنفأ، ولوى بالعناتين أخدعا

وجبهة قرد كالشراك ضئيلة،

وقلت لعمرى والحسام: ألا دعا

ذكرت الكرام الذاهبين أولي الندى

وأما غيظه على الزنادقة والملحدين فأجره الله عليه، كما أجره على الظمأ في طريق مكة، واصطلاء
الشمس بعرفة، ومبيته بالمزدلفة. ولا ريب أنه ابتهل إلى الله، سبحانه، في الأيام المعدودات
والمعلومات، أن يثبت هضاب الإسلام، ويقيم لمن اتبعه النير من الأعلام. ولكن الزندقة داء قديم، طالما
حلم بما الأديم. وقد رأى بعض الفقهاء أن الرجل إذا ظهرت زندقته ثم تاب فرعاً من القتل، لم تقبل
توبته. وليس كذلك غيرهم من الكفار، لأن المرتد إذا رجع قبل منه الرجوع.
ولا ملة إلا ولها قوم ملحدون، يرون أصحاب شرعهم أنهم موالفون وهم فيما بطن مخالفون، ولا بد
أن ينهتك مخادع، وتبدو من الشر جنادع.
وقد كانت ملوك فارس تقتل على الزندقة، والزنادقة هم الذين يسمون الدهرية، لا يقولون بنبوة ولا
كتاب.

وبشار إنما أخذ ذلك عن غيره، وقد روي أنه وجد في كتبه رفعة مكتوب فيها: إني أردت أن أهجو فلان بن فلان الهاشمي فصفحت عنه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وزعموا أنه كان يشار سيويه، وأنه حضر يوماً حلقة يونس بن حبيب فقال: هل ههنا من يرفع خبراً؟ فقالوا: لا فأنشدهم:

بني أمية هبوا من رقادكم إن الخليفة يعقوب بن داود

ليس الخليفة بالموجود فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

وكان في الحلقة سيويه، فيدعي بعض الناس أنه وشى به. وسيويه، فيما أحسب كان أجل موضعاً من أن يدخل في هذه الدنيات، بل يعتمد لأمر سنين وحكى عنه أنه عاب عليه قوله:

على الغزلي من السلام، فطال ما لهوت بها في ظل مخضرة زهر

فقال سيويه: لم تستعل العرب الغزلي، فقال بشار: هذا مثل قولهم البشكى والجمزي، ونحو ذلك. وجاء بشار في شعره بالنينان (جمع نون من السمك) فيقال إنه أنكره عليه، وهذه أخبار لا تثبت. وفيما روي في كتاب سيويه أن النون يجمع على نينان، فهذا نقض للخبر.

وذكر من نقل أخبار بشار أنه توعد سيويه بالهجاء، وأنه تلافاه واستشهد بشعره. ويجوز أن يكون استشهاده به على نحو ما يذكره المتذكرون في المجالس ومجامع القوم. وأصحاب بشار يروون له هذا البيت:

وما كل ذي لب بمؤيتك نصحه، وما كل مؤت نصحه بلبيب

وفي كتاب سيويه نصف هذا البيت الآخر، وهو في باب الإدغام لم يسم قائله. وزعم غيره أنه لأبي الأسود الدؤلي.

ويقال: إن يعقوب بن داود وزير المهدي تحامل بشار حتى قتل، واختلف في سنة: فقيل كان يومئذ ابن ثمانين سنة، وقيل أكثر، والله العالم بحقيقة الأمر.

ولا أحكم عليه بأنه من أهل النار، وإنما ذكرت ما ذكرت فيما تقدم لأني عقدته بمشيئة الله، وإن الله حلیم وهاب.

وذكر صاحب كتاب الورقة جماعة من الشعراء في طبقة أبي نواس ومن قبله، ووصفهم بالزندقة، وسرائر الناس مغيبة، وإنما يعلم، بما علام الغيوب. وكانت تلك الحال تكتفم في ذلك الزمان خوفاً من السيف، فالآن ظهر نحيث القوم، وانغاصت التريكة عن أحيث رأل.

وكان في ذلك العصر رجل له أصدقاء من الشيعة وصديق زنديق، فدعا المتشعبة في بعض الأيام، فجاء الزنديق فقرع حلقة الباب وقال:

أصبحت جم بلابل الصدر، متقسم الأشجان والفكر

فقال صاحب المنزل: ويحك! مم ذا؟ فتركه الزنديق ومضى، فلقبه صاحب المأدبة فقال له: يا هذا، أردت أن توقعني فيما أكرهه (خوفاً من أن يظن أصدقاؤه أنه زنديق) فقال: ادعهم ثانية وأعملني بمكانهم. فلما حصلوا عنده، جاء الزنديق فقال:

أصبحت جم بلابل الصدر، متقسم الأشجان والفكر

فقالوا: ويحك! مما ذا؟ فقال:

مما جناه على أبي حسن عمر وصاحبه أبو بكر

وانصرف. ففرح الشيعة بذلك، ولقيه صاحب المنزل فقال: جزيت عني خيراً، فقد خلصتني من الشبهة! وكان يجلس في مجلس البصرة جماعة من أهل العلم، وكان فيهم رجل زنديق له سيفان، قد سمي أحدهما "الخير" والآخر "الفلح" فإذا سلم عليه رجل من المسلمين قال:

صبحك الخير ومساك الفلح

ثم يلتفت لأصحابه الذين قد عرفوا مكان السيفين فيقول:

سيفان كالبرق إذا البرق لمح

فأما قول الحكمي: تيه مغن وظرف زنديق فقد عيب عليه هذا المعنى، وقيل: إنه أراد رجلاً من بني الحارث كان معروفاً بالزندقة والظرف، وكان له موضع من السلطان. وقوله في صدر هذا البيت:

نديم قيل محدثه ملك

فهو نحو من قول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب، إثمًا من الله ولا واغل

وليس ينبغي أن يحمل على قول من وقف على الهاء كما قال:

يا بيذره، يا بيذره، يا بيذره

وكما قال الآخر:

تقبض الظل عليه فاجتمع

يا رب أباز من العصم صدع

مال إلى أرطأة حقف فاضطجع

لما رأى ألا دعه ولا شبع

لأن هذا حسن فيه إظهار الهاء، إذ كان الكلام تاماً يحسن عليه السكوت، وقوله: محدثه ملك، مضاف ومضاف إليه، فلا يحسن فيه مثل ذلك، إذ كان الاسمان كاسم واحد.

صالح بن عبد القدوس

وأما صالح بن عبد القدوس فقد شهر بالزندقة، ولم يقتل، ولله العلم، حتى ظهرت عنه مقالات توجب ذلك. ويروى لأبيه عبد القدوس:

خربها الله وأبياته

كما أهلكت ملكة من زائر

وأشوت الرحمة أمواتها

لا رزق الرحمن أحياءها

وقد كان لصالح ولد حبس على الزندقة حبساً طويلاً، وهو الذي يروى له:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها

فما نحن بالأحياء فيها ولا الموتى

إذا ما أتانا زائر متفقد

فرحنا، وقلنا: جاء هذا من الدنيا وأما رجوعه عن الزندقة لما أحس بالقتل، فإنما ذلك على سبيل الختل. فصلى الله على محمد، فقد روي عنه أنه قال: "بعثت بالسيف، والخير في السيف، والخير بالسيف". وفي حديث آخر: لا تزال أمتي بخير ما حملت السيوف". والسيف حمل صالحاً على التصديق، وردّه عن رأي الزنديق، وتلك آية من آيات الله إذا هي ظهرت للنفس الكافرة، فقد فني لا ريب زمانها، ولا يقبل هناك إيمانها: "لم تكن آمنت من قبل" وللسفه طل ووبل. وأما "القصار" فجهل يجمع ويصار، ولو تبع حقاً مقروباً، لكفي سماً مشروباً، ولكن الغرائز أعاد، ولا بد من لقاء الميعاد.

وأما المنسوب إلى الصناديق، فإنه يحسب من الزناديق. وأحسبه الذي كان يعرف بالمنصور، ظهر سنة سبعين ومائتين، وأقام برهة باليمن، وفي زمانه كانت القيان تلعب بالدف وتقول:

وبشي فضائل هذا النبي

خذي الدف يا هذه والعبي

وقام نبي بني يعرب

تولى نبي بني هاشم

ولا زورة القبر في يثرب
وإن صوموا فكلي واشربي
من أقربين ومن أجنبي
وصرت محرمة للأب؟
ورواه في عامه المجذب؟
ب طلق، فقد ست من مذهب

فما نبتغي السعي عند الصفا،
إذا القوم صلوا فلا تنهضي،
ولا تحرمي نفسك المؤمنين
فكيف حلت لذاك الغريب
أليس الغراس لمن ربه
وما الخمر إلا كماء السحا

فعلى معتقد هذه المقالة بملة المبتهلين.

وهذه الطبقة، لعنها الله، تستعبد الطعام بأصناف مختلفة، فإذا طمعت في دعوى الربوبية لم تتب في الدعوى، ولا لها عما قبح رعوى، وإذا علمت أن في الإنسان تميزاً، أرتته إلى ما يحسن تحيزاً. وقد كان باليمن رجل يحتجب في حصن له، ويكون الوسطة بينه وبين الناس خادماً له أسود قد سماه جبريل، فقتله الخادم في بعض الأيام وانصرف. فقال بعض المجان:

فر من الفسق جبرئيل
وهو على عرشه قتيل

تبارك الله في علاه
فطل من تزعمون رباً

ويقال إنه حمله على ذلك ما كان يكلفه من الفسق.

وإذا طمع بعض هؤلاء، فإنه لا يقتنع بالإمامة ولا النبوة. ولكنه يرتفع صعداً في الكذب، ويكون شربه من تحت العذب (أي الطحلب). ولم تكن العرب في الجاهلية تقدم على هذه العظائم، والأمور غير النظائم. بل كانت عقولهم تجنح إلى رأي الحكماء. وما سلف من كتب القدماء. إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي، وينظرون إلى من زعم ذلك بعين الغبي. وكان ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي، جرى له مع أبي بكر الصديق، رحمة الله عليه، خطب، فلحق بالروم، ويروى أنه قال:

بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فما حرم الله السلاف من الخمر
فلا خير في أرض الحجاز ولا مصر
فإني قد خليته لأبي بكر

لحقت بأرض الروم غير مفكر
فلا تتركوني من صبوح مدامة
إذا أمرت تيم بن مرة فيكم
فإن يك إسلامي هو الحق والهدى

وافتن الناس في الضلالة حتى استجازوا دعوى الربوبية، فكان ذلك تنطساً في الكفر، وجمعاً للمعصية في المزداد الوفير. وإنما كان أهل الجاهلية يدفعون النبوة ولا يجاوزون ذلك إلى سواه. ولما أجلي عمر بن الخطاب، رحمة الله عليه، أهل الذمة عن جزيرة العرب، شق ذلك على الجالين، فيقال إن رجلاً من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال في ذلك:

يصول أبو حفص علينا بدرة
رويدك إن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة ماقط
لتشبع، إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتم
علينا ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى المين فاعرفوا
لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا
وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا

وما زال اليمن منذ كان، معدناً للمتكسبين بالتدين، والختالين على السحت بالتزين. وحدثني من سافر إلى تلك الناحية، أن به اليوم جماعة كلهم يزعم أنه القائم المنتظر، فلا يعدم جباية من مال، يصل بها إلى خسيس الآمال.

وحكي لي أن للقرامطة بالأحساء بيتاً يزعمون أن إمامهم يخرج منه، ويقيمون على باب ذلك البيت فرساً بسرج ولجام، ويقولون للهمج والطغام: هذا الفرس لركاب المهدي، يركبه متى ظهر بحق بدي. وإنما غرضهم بذلك خدع وتعليل، وتوصل إلى المملكة وتضليل.

ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة في الدهر القديم، لما حضرته المنية جمع أصحابه وجعل يقول لهم لما أحس بالموت: إني قد عزمت على النقلة، وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمداً، ولا بد لي أن أبعث غير هؤلاء! فعليه اللعنة، لقد كفر أعظم الكفر، في الساعة التي يجب أن يؤمن فيها الكافر، ويؤوب إلى آخرته المسافر.

وأما الوليد بن يزيد فكان عقله عقل وليد، وقد بلغ سن الكهل الجليد، ما أغنته نية ساجدة، ولا نفعت البناجة. وشغل عن الباطية، بجريرة النفس الخاطية. دحاه إلى سقر داح، فما يغترف بالأقداح. وقد رويت له أشعار، يلحق به منها العار، كقوله:

أدنيا مني خليلي
عبد لا دون الإزار
فلقد أيقنت أنني
غير مبعوث لنار
واتركا من يطلب الجن
ة يسعى في خسار

سأروض الناس حتى

يركبوا دين الحمار

فالعجب لزمان صير مثله إماماً، وأورده من المملكة جماماً ولعل غيره ممن ملك يعتقد مثله أو قريباً، ولكن يساطر ويخاف تشريهاً. ومما يروى له:

أنا الإمام الوليد مفتخراً

أجر بردي، وأسمع الغزلا

أسحب ذيلي إلى منازلها،

ولا أبالي من لام أو عدلا

ما العيش إلى سماع محسنة

وقهوة تترك الفتى ثملا

لا أرتجي الحور في الخلود وهل

يأمل حور الجنان من عقلا؟

إذا حبتك الوصال غانية

فجازها بذلها كمن وصلا

ويقال إنه لما أحيط به، دخل القصر وأغلق بابه وقال:

دعوا لي هنداً والرباب وفرتنى

ومسمعة، حسبي بذلك مالا

خذوا ملككم، لا ثبت الله ملككم

فليس يساوي بعد ذاك عقالا

وخلوا سبيلي قبل عير وما جرى،

ولا تحسدوني أن أموت هزلاً فألب عن تلك المتزلة أي ألب، ورئي رأسه في فم كلب. كذلك نقل بعض الرواة، والله القائم بجزاء الغواة. ولا حيلة للبشر في أم دفر، أعيت كل حضرٍ وسفرٍ. كان حق الخلافة أن تفضي إلى من هو بنسكٍ معروف، لا تصرفه عن الرشد صروف، ولكن البلية خلقت مع الشمس، فهل يخلص من سكن في رمس؟ وأما أبو عيسى بن الرشيد، فليس بالناشد ولا النشيد. وإن صح ما روي عنه فقد باين بذلك أسلافه، وأظهر لأهل الديانة خلافه. وما يحفل ربه بالعبيد صائمين للخيبة ولا مفطرين، ولكن الإنس غدوا محظرين. وربما كان الجاهل أو المتجاهل، ينطق بالكلمة وخلده بضدها أهل، وإنما أقول ذلك راجياً أن أبا عيسى ونظراءه، لم يتبعوا في الغي أمراءه، وأنهم على سوى ما أعلن يبيتون، لقد وعظهم الميتون. ورأى بعضهم عبد السلام بن رغبان، المعروف بديك الجن، في النوم وهو بحسن حال، فذكر له الأبيات الفائية التي فيها:

هي الدنيا، وقد نعموا بأخرى،

وتسويف الظنون من السواف

أي (الهلاك) فقال: إنما كنت أتلاعب بذلك ولم أكن أعتقد. ولعل كثيراً ممن شهر بهذه الجهالات تكون طويته إقامة الشريعة، والإرتاع برياضها المريعة. فإن اللسان طماحٌ، وله بالفند إسماح. وكان أبو عيسى المذكور يستحسن شعره في البيتين والثلاثة، وأنشد له الصولي في نوادره:

لساني كتومٌ لأسراره،

ودمعي نموم بسري مذيع

ولولا دموعي، كتمت الهوى،

ولولا الهوى، لم يكن لي دموع

فإن كان فر من صيام شهر. فلعله يقع في تعذيب الدهر، و" لا يئأس من روح الله إلى القوم الكافرون".

وأما الجنابي فلو عوقب بلد بمن يسكنه، لجار أ، تؤخذ به "جنابة"، ولا يقبل لها إنابة. ولكن حكم الكتاب المتزل أجدر وأحرى: "ألا تزر وازرة وزر أخرى". وقد اختلف في حديث الركن معه: فرعم من يدعي الخبرة به أنه أخذه ليعبده ويعظمه، لأنه بلغه أنه يد الصنم الذي جعل على خلق زحل. وقيل: جعله موطناً في مرتفق، وهذا تناقض في الحديث. وأي ذلك كان، فعليه اللعنة ما رسا "ثبير" وهمي صبير.

وأما العلوي البصريّ فذكر بعض الناس أنه كان قبل خروجه يذكر أنه من عبد القيس ثم من أنمار. وكان اسمه أحمد، فلما خرج تسمى علياً. والكذب كثير جم، كأنه في النظر طود أشم؛ والصدق لديه كالحصاة، توطأ بأقدام عصاة. تلك الأبيات المنسوبة إليه مشهورة وهي.

أيا حرفة الزمني ألم بك الردى

أما لي خلاص منك والشمل جامع

لئن قنعت نفسي بتعليم صبية

يد الدهر إني بالمذلة قانع

وهل يرضين حرُّ بتعليم صبية

وقد ظنَّ أن الرزق في الأرض واسع؟ وما أمتع أن يكون حملة حب الحطام، على أن غرق في بحر طام، يسبح فيه ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد. وقد رويت له أبيات تدل على تأله، وما أدفع أن تكون قيلت على لسانه، لأن من خير هذا العالم حكم عليه بفجور ومين، وأخلاق تبعد من الزين. والأبيات:

على نفسي كي تبقى

لكي أنعم لا أشقى

فلا يظلم إذا خلقا

عند الله ما ألقى

ه أم في ناره ألقى؟

قتلت الناس إشفاقاً

وحزت المال بالسيف

فمن أبصر مثواي،

فواويلي إذا ما متُ

أخداً في جوار اللّ

وأنشدني بعضهم أبيتاً قافية طويلة الوزن، وقافيتها مثل هذه القافية، قد نسبت إلى عضد الدولة. وقيل إنه أفاق في بعض الأيام، فكتبها على جدار الموضوع الذي كلن فيه، وقد نحي بها نحو أبيات البصري. وأشهد أنها متكلفة، صنعها رقيق من القوم، وأن عضد الدولة ما سمع بها قط.

وأما الحكاية عن أصحاب الحديث أنهم صحفوا زحمة فقالوا: رحمة، فلا أصدّق بما يجري مجراها، والكذب غالب ظاهر، والصدق، خفي متضائل، فإننا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك أدهاء من يدعي أنّ علياً، عليه السلام، قال: تملك البصرة بالزنج؛ فصحفها أهل الحديث: بالريح، لا أؤمن بشيء من ذلك. ولم يكن عليّ، عليه السلام، ولا غيره ممن يكشف له علم الغيب، وفي الكتاب العزيز: قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وفي الحديث المأثور: أنه سمع جوارِي يغنيّن في عرس ويقلن:

تبجح في المربد

ويعلم ما في غد

وأهدى لنا أكبشاً

وزوجك في النادي

فقال: لا يعلم ما في غدٍ إلى الله.

ولا يجوز أن يخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب، حرسها الله، في سنة أربع وعشرين وأربعمائة، أسمه فلان بن فلان، وصفته كذا؛ فإن ادعى ذلك مدّعٍ فإنما هو متخرّص كاذب.

وأما النجوم فإنما لها تلويح لا تصريح، وحكي أنّ الفضل ابن سهل كان يتمثل كثيراً بقول الرّاجز:

لئن نجوت ونجت ركائبِي من غالب ومن ليفيف غالب

إني لنجاء من الكرائب وأن غالباً كان فيمن قتله، فهذا يتفق مثله. وأجدر بهذه الحكاية أن تكون مصنوعة. فأما تمثله بالشعر فغير مستنكر، وربما أتفق أن يكون في الوقت جماعة يسمون بهذا الاسم، فيمكن أن يقترون معنى بلفظ، على أن في الأيام عجائب، وفوق كلّ ذي علم عليم.

وقد حكي أن إياس بن معاوية القاضي كان يظن الأشياء فتكون كما ظن، ولهذه العلة قالوا: رجل نقاب وألمعيّ، قال أوس: الألمعيّ

ن كأن قد رأى وقد سمعا

الذي يظن بك الظ

وقال: نقاب يحدث بالغائب.

فأمّا الحسين بن منصور فليس جهله بالخصور. وإذا كانت الأمة ربّما عبدت الحجر، فكيف يأمن الحصيْف البحر؟ أراد أن يدير الضلالة على القطب، فانتقل عن تدبير العطب، ولو انصرف إلى علاج البرس، ما بقي ذكر عنه في طرس، ولكنها مقادير، تغشى الناظر بها سمادير. فكون ابن آدم حصاة أو صخرة، أجهل به أن يجعل سخرة. الناس إلى الباطل سراع، وهم إلى الفتن إشراع.

وكم افتري للحلاج، والكذب كثير الخلاج، وجميع ما ينسب إليه مما لم تجر العادة بمثله فإنه المين الحبريت، لا أصدّق به ولو كريت. ومما يفتعل عليه أنه قال للّين قتلوه: أتظنون انكم إياي تقتلون؟ أمّا تقتلون بغلة المادرائي وأنّ البغلة وجدت في إصطبلها مقتولة.

وفي الصّوفية إلى اليوم من يرفع شأنه، ويجعل من النجم مكانه. وبلغني أن ببغداد قوماً ينتظرون خروجه. وأنهم يقفون بحيث صُلب على دجلة يتوقّعون ظهوره. وليس ذلك ببدع من جهل الناس، ولو عبد عابد ظمي كناس، فقد نزل حظ على قرد، فظفر بأكرم الورد. وقالت العامة: اسجد للقرد في زمانه. وأنا أحوّب من ذكر القرد الذي يقال: إنّ القوادّ في ومن زبيدة كانوا يدخلون للسلام عليه وأنّ يزيد ابن مزيد الشيبانيّ دخل في جملة المسلمّين فقتله. وقد روي أن يزيد بن معاوية كان له قرد يحمله على أتانٍ وحشيةٍ ويرسلها مع الخليل في الحلبة.

وأما الأبيات التي على الياء:

يجل عن وصف كلّ حيّ

يا سرّ يدقُّ حتّى

من كلّ شيء لكل شيء

وظاهراً باطناً تبدّى

فما اعتذاري إذا إليّ؟

يا جملة الكل، لست غيري

فلا بأس بنظمها في القوّة، ولكن قوله: إليّ، عاهة في الأبيات: إن قيد فالتقيد لمثل هذا الوزن لا يجوز عند بعض الناس، وإن كسر الياء من إليّ فذلك رديء قبيح.

وأصحاب العربية مجمعون على كراهة قراءة حمزة: وما أنتم بمصرخيّ. بكسر الياء. وقد روي أن أبا عمرو بن العلاء سئل عن ذلك فقال: أنه لحسن، تارة إلى فوق، وتارة إلى أسفل، يعني فتح الياء في

مصرخيّ وكسرها والذين نقلوا هذه الحكاية يحتجون بما لحمزة ويذهبون إلى أن أبا عمرو أجاز الكسر لالتقاء الساكنين. وإن صحت الحكاية عنه، فما قالها إلا متهزئاً على معنى العكس، كما الغنوي وهو سهل بن خنظلة:

لا يمنع الناس مني ما أردت، ولا أعطيهم ما أرادوا، حسن ذا أدبا

أي ليس ذلك بحسن وهذا كما يقول الرجل لولده إذا رآه قد فعل فعلاً قبيحاً: ما أحسن هذا! وهو يريد ضدّ الحسن. ولم يأت كسر هذه الياء في شعر فصيح. وقد طعن الفراء على البيت الذي أنشده:

قال لها: هل لك يا تا في؟ قالت له: ما أنت بالمرضيّ

وقد سمعت في أشعار الخدين: إليّ وعليّ، ونحو ذلك، وهو دليل على ضعف المتنة وركاكة الغريزة؟ وكذلك قوله: الكلّ، وإدخاله الألف واللام مكروه. وكان أبو علي يميزه ويدعي إجازته على سيوييه، فأما الكلام القديم فيفتقد فيه الكل والبعض، وقد أنشدوا بيتاً لسحيم:

رأيت الغنيّ والفقير كليهما

إلى الموت يأتي الموت لكل معمدا

الحلاج

وينشد لفتى كان في زمن الحلاج:

فإلهي في حرمة الزجاج

إن يكن مذهب الحلول صحيحاً

بين دار العطار والثلاج

عرضت في غلالة بطراز

هو من إفك شيخنا الحلاج

زعموا لي أمراً وما صحّ لكن

وهذه المذاهب قديمة، تنتقل في عصر بعد عصر، ويقال إن فرعون كان على مذهب الحلولية، فلذلك ادّعى أنه رب العزة.

وحكي عن رجلٍ منهم أنّه كان يقول في تسيّحه:

غفرانك غفراني

سبحانك سبحاتي

وهذا هو الجنون الغالب، إن من يقول هذا القول مسدود في الأنعام، ما عرف كنه الإنعام. وقال بعضهم:

أنا أنت بلا شكّ

فسبحانك سبحاني

وإسقاطك إسقاطي

وغفرانك غفراتي

ولم أجلد يا ربّي، إذا قيل هو الزّاني وبنو آدم بلا عقول، وهذا أمر يلقنه صغير عن كبير، فيكون بالهلكة أو في صبير: أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

ويروي لبعض أهل هذه النحلة:

رأيت ربّي يمشي بلا لكلة

في سوق يحيى فكدت أنفطر

فقلت: هل في اتصالنا طمع؟

فقال: هيهات! يمنع الحذر

ولو قضى الله ألفة بهوى

لم يك إلاّ السجود والنّظر

وتؤدّي هذه النحلة إلى التناسخ، وهو مذهب عتيق يقول به أهل الهند، وقد كثر في جماعة من الشيعة، نسأل الله التوفيق والكفاية. وينشد لرجل من النصيرية:

أعجبني أمنا لصرف الليالي

جعلت أختنا سكينه فاره

فازجري هذه السنّاتير عنها

واتركيها وما تضم الغراره

وقال آخر منهم:

تبارك الله كاشف المحن

فقد أرانا عجائب الزّمن

حمار شيبان شيخ بلدتنا

صيره جارنا أبو السكن

بدل من مشيه بحلته

مشيته في الحزام والرّسن

ويصوّر لهم الرأى الفاسد أباجير ومشبهات، فيسلكون في تغلسّ وفي الترهات.

وحكى لي عن بعض ملوك الهند، وكان شاباً حسناً، أنّه جدّر فنظر إلى وجهه في المرآة وقد تغير، فأحرق نفسه وقال: أريد أن ينقلني الله إلى صورة أحسن من هذه.

وحدثني قوم من الفقهاء، ما هم في الحكاية بكاذبين، ولا في أسباب النحلّ جاذبين، أنّهم كانوا في بلاد محمود وكان معه جماعة من الهند قد وثق بصفائهم، يفيض عليهم الأغطية لوفائهم، ويكونون أقرب الجند إليه إذا حلّ وإذا ارتحل، وأن رجلاً منهم سافر في جيش جهزه محمود، فجاء خبره أنّه قد هلك بموت أو قتل، فجمعت امرأته لها حطباً كثيراً وأوقدت ناراً عظيمة واقتحمتها والناس ينظرون، وكان

ذلك الخبر باطلاً، فلما قدم الزوج أوقد له ناراً جامحة ليحرق نفسه حتى يلحق بصاحبته، فاجتمع خلق كثير للنظر إليه، وأن أصحابه من الهند كانوا يجيئون إليه فيوصونه بأشياء إلى أمواتهم: هذا إلى أبيه وهذا إلى أخيه. وجاءه إنسان منهم بوردة وقال: أعط هذه فلاناً يعني ميتاً له، وقذف نفسه في تلك النار.

وحدث من شاهد إحراقهم نفوسهم أنهم إذا لدعتهم النار أرادوا الخروج فيدفعهم من حضر إليها بالعصير والخشب. فلا إله إلا الله، لقد جتتم شيئاً إذًا.

وفي الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقدده، يتوصل به إلى الدنيا الفانية، وهي إغدر من الورهاء الزانية.

وكان لهم في الغرب رجل يعرف بابن هانئ وكان من شعرائهم المجيدين، فكان يغلة في مدح المعز أبي تميم معدٍّ، غلوا عظيمًا حتى قال يخاطب صاحب المظلة:

زاحمت تحت ركابه جبريلا

أمديرها من حيث دار لشدًا ما

وقال فيه وقد نزل بموضع يقال له رقادة:

حلَّ بها آدم ونوح

حلَّ برقادة المسيح

وكل شيءٍ سواه ريح

حلَّ بها الله ذو المعالي،

وحضر شاعر يعرف بابن القاضي بين يدي ابن أبي عامر صاحب الأندلس فأنشدته قصيدة أولها:

فاحكم، فأنت الواحد القهار

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

ويقول فيها أشياء، فانكر عليه ابن أبي عامر، وأمر بجلده ونفيه .

وأدل رتب الحلاج أن يكون شعوزياً، لا ثاقب الفهم ولا أحوذياً، على أن الصوفيّة تعظمه منهم طائفة، ما هي لأمره شائفة.

وأما ابن أبي عون فإنه أخذ في لون بعد لون، غرّ البائس بأبي جعفر، فما جعل رسله في أوفره؛ وقد تجد الرجل حاذقاً في الصناعة، بليغاً في النظر والحجة، فإذا رجع إلى الديانة ألقى كآته غير مقتاد، وإنما يتبع ما يعتاد.

والتأله موجود في الغرائز، يحسب من الأجزاء الحرائز، ويلقن الطفل الناشئ ما سمعه من الأكابر، فليبيث معه في الدهر الغابر .

والذين يسكنون في الصوامع، متعبدون في الجوامع، يأخذون ما هم عليه كنقل الخبر عن المخبر، لا

يُمَيِّزُونَ الصِّدْقَ مِنَ الكَذِبِ لَدَى المَعْبَرِ، فَلَوْ أَنَّ بَعْضَهُم أَلْفَى الأُسْرَةَ مِنَ الجَوْسِ لَخَرَجَ مَجْوسِيًّا، أَوْ مِنَ الصَّابِنَةِ لِأَصْبَحَ لَهُمْ قَرِينًا سَيًّا. وَإِذَا اجْتَهَدَ نَكَبَ عَنِ التَّقْلِيدِ، فَمَا يظْفِرُ بِغَيْرِ التَّبْلِيدِ. وَإِذَا المَعْقُولُ جَعَلَ هَادِبًا، نَقَعَ بِرِيهِ صَادِيًّا، وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ يَصْبِرُ عَلَى أَحْكَامِ العَقْلِ، وَيَصْقَلُ فَهْمَهُ أَبْلَغَ صَقْلٍ؟ هِيَهَاتَ! عَدَمَ ذَلِكَ فِي مَنْ تَطَّلَعَ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، وَمَنْ ضَمِنَهُ فِي الرَّمَمِ رَمَسٌ، إِلَى أَنْ يَشُدَّ رَجُلٌ فِي الأَمَمِ، يَخْصُ مِنْ فَضْلِ بَعْمَمٍ.

رَبَّمَا لَقِينَا مِنْ نَظَرٍ فِي كُتُبِ الحُكَمَاءِ، وَتَبَعَ بَعْضُ آثَارِ القَدَمَاءِ، فَأَلْفِينَاهُ يَسْتَحْسِنُ قَبِيحَ الأُمُورِ، وَيَبْتَكِرُ بَلَبًّا مَغْمُورًا، إِنَّ قَدْرَ عَلَى فَطِيحِ رُكْبِهِ، وَإِنْ عَرَفَ وَاجِبًا نَكْبَهُ، كَأَنَّ العَالِمَ سَعَا لَهُ فِي إِفْقَادِهِ، فَهُوَ يَعتَقِدُ شَرَّ اعتِقَادٍ؛ وَإِنَّ أَوْدَعَ وَدِيعَهُ خَانَ، وَإِنْ سَأَلَ عَنِ شَهَادَةِ مَانَ، وَإِنْ وَصَفَ لَعْلِيلَ صَفَةً فَمَا يَحْفَلُ أَقْتَلْتَهُ بِمَا قَالَ، أَمْ ضَاعَفَ عَلَيْهِ الأَثْقَالَ؛ بَلْ غَرَضُهُ فِيمَا يَكْتَسِبُ، وَهُوَ إِلَى الحِكْمَةِ مُنْتَسِبٌ. وَرَبُّ زَارٍ بِالجَهَالَةِ عَلَى أَهْلِ مَلَّةٍ، وَعَلَّتَهُ البَاطِنَةُ أَدهَى عِلَّةً، وَإِنَّ البِشْرَ لَكَمَا جَاءَ فِي الكِتَابِ العَزِيزِ "كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ".

وَالِإِمَامِيَّةَ تَقَرَّبُوا بِالتَّعْفِيرِ، فَعَدَّهُ بَعْضُ المُنْتَدِينَةِ ذَنْبًا لَيْسَ بِغَفِيرٍ، وَيَحْضُرُ المَجَالِسَ أَنَاسٌ طَاغُونَ، كَأَنَّهُمْ لِلرَّشَدِ بَاغُونَ، وَأَوْلَانِكَ، عِلْمُ اللهِ، أَصْحَابُ البِدْعِ وَالمَكْرِ، وَمَنْ لَكَ بَزْنَجٍ فِي دِكْرٍ! كَمْ مَتَظَاهِرٍ بِاعْتِزَالِهِ، وَهُوَ مَعَ المَخَالِفِ فِي نِزَالِهِ! بَزَعَمَ أَنَّ رَبَّهُ عَلَى الذَّرَّةِ يَخْلُدُ فِي النَّارِ، بَلَهُ الدَّرْهَمُ وَبَلَهُ الدِّينَارُ، وَمَا يَنْفَكُ يَحْتَقِبُ المَآثِمَ عِظَامَتِمْ، وَيَقَعُ بِهَا فِي أَطَائِمِ. يَنْهَمُكَ عَلَى العِهَارِ وَالعَسَقِ، وَيَظْعَنُ مِنَ الأَوْزَارِ المَوْبِقَةِ بِأَوْفَى وَسْقٍ، وَيَقْنَتُ عَلَى رَهْطِ الإِجْبَارِ، وَيَسْنَدُ إِلَى عِبْدِ الجِبَارِ. يَطِيلُ الدَّأْبُ فِي النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَيَضْمُرُ أَنَّ شَيْخَ المَعْتَزِلَةِ غَيْرَ طَاهِرِ الرُّدْنِ وَلَا الذَّيْلِ، فَقَدْ صَيَّرَ الجَدَلَ مَصِيدَةً، يَنْظُمُ بِهِ الغَيِّ قَصِيدَةً. وَحَدَّثَتْ عَنِ إِمَامِهِمْ يُوَقِّرُ وَيَتَّبِعُ، وَكَأَنَّهُ مِنَ الجَهْلِ رُبْعٌ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَلَسَ فِي الشَّرْبِ، وَدَارَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكِرَةُ ذَاتَ الغَرْبِ، وَجَاءَهُ القَدْحُ شَرِبَهُ فَاسْتَوْفَاهُ، وَأَشْهَدُ مِنْ حَضْرَةِ عَلَى التَّوْبَةِ لِمَا اقْتَفَاهُ. وَالأَشْعَرِيُّ إِذَا كَشَفَ ظَهْرَ نَمِي، تَلَعَنَهُ الأَرْضَ الرَّآكِدَةَ وَالسَّمِي، إِنَّمَا مِثْلُهُ مِثْلُ رَاعٍ حَطْمَةً، وَيَجْبُطُ فِي الدَّهْمَاءِ المَظْلَمَةِ، لَا يَحْفَلُ عِلَامَ هَجْمِ بَالِغْنِمِ، وَأَنْ يَقَعَ بِهَا فِي اليَنَمِ، وَمَا أَجْدَرَهُ أَنْ تَأْتِيَ بِهَا سِرَاحِينَ، تَضْمِنُ لِجَمِيعِهَا أَنْ يَجِينَ! فَمَنْ لَهُ أَيْسَرُ حِجِي، كَأَنَّمَا وَضَعَ فِي دَجِي، إِلَّا مِنْ عَصْمَةِ اللهِ بِاتِّبَاعِ السَّلْفِ، وَتَحْمَلُ مَا يَشْرَعُ مِنَ الكَلْفِ:

وَإِنَّا، وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ رَبِّنَا،

لِكَالِبدَنِ، لَا تَدْرِي مَتَى حَتَفَهَا البَدَنُ إِنْ شَعَرَ قَلْدًا، المَسْكِينِ، سِوَاهُ فَإِنَّمَا وَثِقَ بِمَنْ أَغْوَاهُ، وَإِنْ بَحَثَ عَنِ السَّرِّ وَتَبَصَّرَ، أَقْصَرَ عَنِ الخَبْرِ وَقَصَّرَ.

والشيعة يزعمون أنّ عبد الله بن ميمون القدّاح، وهو من باهلة، كان من عليّة أصحاب جعفر بن محمد؟، عليه السلام، وروى عنه شيئاً كثيراً، ثم رتدّ بعد ذلك، فحدثني بعض شيوخهم أنّهم يروون عنه ويقولون: حدثنا عبد الله بن ميمون القدّاح كأحسن ما كان، أي قبل أن يريده. ويروون له:

فليس عندي أنّي أنشر

هات اسقني الخمر يا سنبر

يغرها من دينها جعفر؟

أما ترى الشيعة في فتنة

ثمّ بدا لي خبر يستر

قد كنت مغروراً به برهة

وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهِ:

فألفيته خادعاً يخلب

مشيت إلى جعفر حقبة

وكلّ إلى حبله يجذب

يجرّ العلاء إلى نفسه

لما ظلّ مقتولكم يسحب

فلو كان أمركم صادقاً

سما عمر فوقكم يخطب

ولا غضّ منكم عتيق ولا

والحلوليّة قريبة من مذهب التناسخ، وحدثت عن رجلٍ من رؤساء المنجمين من أهل حران أقام في بلدنا زماناً، فخرج مرّة من قوم يتزهون، فمروا بثورٍ يكرب، فقال لأصحابه: لا أشك في أنّ هذا الثور رجل كان يعرف بخلفٍ بحرّان، وجعل يصيح به: يا خلف، فيتفقّ أن يجوز ذلك الثور، فيقول لأصحابه: ألا ترون إلى صحّة ما خبرتكم به؟ وحكي لي عن رجلٍ آخر ممّن يقول بالتناسخ أنّه قال: رأيت في التوم أبي وهو يقول لي: يا بني، إنّ روعي قد نقلت إلى جملٍ أعور في قطار فلان، وإني قد اشتيت بطيخة. قال: فاخذت بطيخة وسألت عن ذلك القطار وجدت فيه جملاً أعور، فدنوت منه بالبطيخة، فأخذها أخذ مرید مشتته! أفلا يرى مولاي الشيخ إلى ما رمي به هذا البشر من سوء التمييز، وتحيزهم إلى ما يمتنع من التحيز؟ وأمّا ابن الرواندي فلم يكن إلى المصلحة بمهدي، وأمّا تاجه فلا يصلح أن يكون نعلًا، ولم يجد من عذابٍ وعلاً أي ملجأ، قال ذو الرّمة.

مخافة الرمي حتى كلّها هيم

حتى إذا لم يجد وعلاً ونجنجها

ويجوز أن ينظم تاجه عقارب، فما كان المحسن ولا المقارب، فكيف له إذا توجّ شبات، أليس يمينه عن تلك الصبوات؟ وهل تاجه إلّا كما قالت الكاهنة: أفّ وتف، وجورب وخف؟! قيل: وما جورب وخف؟ قالت واديان يجهنم.

ما تاجه بتاج ملك، ولكن دعي بالمهلك، ولا اتخذ من الذهب، وسوف يصور من اللهب، ولا نظم من در، بل وقع من عناء بقر، يقال: صابت بقر، إذا وقعت في موضعها، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشر. قال الشاعر:

ترجيها وقد صابت بقر كما ترجوا أصاغرها عتيب

ما توج من الفضة، ولا يقنع له بالقصة، ما هو كتاج كسرى، لكن طرق بسوء المسرى، ولا تاج الملك انوشروان، ولكل أثقل وجرّ الهوان، ذلك تاج فرس عنقا، فظن على من توج به محنقا. ليس هو كتاج المنذر، ولكن مندية غوي حذر، ولا هو كخرزات النعمان، بل شين يدخر في الأزمان. وما يفقر مثبه إلى أن ينقض منه وبه تقوض.

وأما الدماغ فما إخاله دمع إلا من الفه، وبسوء الخلافة خلفه. وفي العرب رجل يعرف بدميغ الشيطان، وهذا الرجل كذاوي الخيطان. وإنما المنكر، أنه في الآونة يذكر. دل من وضعه على ضعف دماغ، فهل يؤذن لصوت ماغ؟ من قولهم: مغت الهرة إذا صاحت.

رمانى بأمر كنت منه ووالدي بريئا ومن جول الطوي رمانى رجع عليه حجره، وطال في الآخرة بجره. ينس ما نسب إلى راوند، فهل قدح في دباوند؟ إنما هتك قميصه، وأبان للنظر خميصه.

وأجمع ملحد ومهتد، وناكب عن الحجّة ومقتد، أن هذا الكتاب الذي جاء بن محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بمر بالإعجاز، ولقي عدوه بالأرجاز. ما حذي على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال. ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون. ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الأرب. وجاء كالشمس اللائحة، نورا للمسرة والبائحة؛ لو فهمه الهضب الرّاكد لتصدع، أو الوعول المعصمة لراق الفادرة والصدع: "وتلك الأمثال نصيبها للناس لعلهم يتفكرون" وإن الآية منه أو بعض الآية، لتعرض في أفصح كلم يقدر عليهم المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتألي في جنح غسق، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق؛ فبارك الله أحسن الخالقين.

وأما القضيبي فمن عمله أخسر صفقة من قضيبي. وخير له من إنشائه، لو ركب قضيبياً عند عشائه، فقذفت به على قتاد، ونزعت المفاصل كترع الأوتاد:

إن الطرمّاح يهجوني لأشتمه

هيهات هيهات، عيلت دونه القضب كيف للتاطق به أن يكون اقتضب وهو يافع، إذ ماله في العاقبة شافع. وودّ لو أنه قضبه، أو تلتئم عليه الهضبة.

وقد صد أن يكون مثل القائل:

وقضيب واد كانت فيه وقعة في الجاهلية بين كندة وبين بني الحارث ابن كعب فكيف لهذا الماتق أن يكون قتل في قضيب، وسقط في إهابه الخضيب. فهو عليه شرّ من قضيب الشجرة على السّاعية، ومن له ان يظفر بمنطق النّاعية؟ وكيف له أن يجذّع بقضيب هندي ويلبس ثما لفظ به ثوب المفدي؟ لقد أنزل الله به من النكّال، ما لا يدفع بحمل الأنكال؛ فهو كما قال الأوّل:

فلم أر مغلوبين يفري فرينا، ولا وقع ذلك السيّف وقع قضيب

وهذا البيت يستشهد به، كما علم، لأنّه قال: مغلوبين يفري، وإثما يجب أن يقال: يفريان، ولكنّه أجرى الاثني مجرى الجمع. ومثله قول الرّاجز:

مثل الفارخ نتقت حواصله

وأما الفريد فأفرده من كلّ خليل، وألبسه في الأبد برد الدليل. وفي كنده حيّ يعرفون بالحيّ الفريد، وهم بنو الحرث بن عديّ بن ربيعة بن معاوية الأكبر بن الحرث الأصغر ابن معاوية بن الحرث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مرثع بن معاوية ابن ثور، وهو كندة؛ وأصحاب النسب يقولون: كنديّ بن غفير بن عديّ بن الحرث بن مرّة بن أدد بن زيد بن يشجب ابن عريب بن زيد بن كهلان بن سيب، وإثما قيل لهم الحيّ الفريد، لأنّ بني وهب حالفوا بني أبي كرب وبني المثل ولم يدخل معهم بنو الحرث ولا مع بني عديّ، فقبل لهم الحيّ الفريد.

ومن انفراد بعزّة لوقارته، فإن فريد ذلك الجاحد ينفرد لحقارته، كأنّه الأجر إذا طلي بالعية، فرّ من دنوه من يرغب عن الدنية. وإذا جذلت الغانية بفريد النّظام، فهو قلادة مآثم عظام. وذكر أبو عبيدة أنّ في ظهر الفرس فقارة يقال لها الفريدة، وهي أعظم الفقار. فلو حمل فريد ذلك المتمرد على جواد لحطم فريده، أو زينّ به الحبّ الغانية لأهلك خريده.

وأما المرجان فإذا قيل إنّ صغار اللؤلؤ، فمعاذ الله أن يكون مرجانه صغار حصي، بل أحسن من أن يذكر فينتصى. وإذا قيل إنّ هذا الشيء الأحمر الذي يجيء به من المغرب، فإن ذلك له قيمة وخسارة كتابه مقيمة، وإثما هو مرجان، من مرجت الخيل بعضها مع بعض، وتركبتها كالمهملة في الأرض أو لعلّه مرجان من جنى الشجرة أو مرجان من الشياطين الفجرة، أو جان من الحيات المقتولة بأيسر الأمر، والمبغضة إلى المنفرد والعمر أي الجماعة من الناس.

ابن الرومي

وأما ابن الرومي فهو أحد من يقال: إن أدبه كان أكثر من عقله، وكان يتعاطى علم الفلسفة، واستعار من أبي بكر ابن السراج كتاباً فتقاضاه به أبو بكر، فقال ابن الرومي: لو كان المشتري حدثاً لكان عجولاً.

والبغداديون يدعون أنه متشيع، ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيميّة، وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء.

ومن أولع بالطيرة، لم ير فيها من خيرة، وإنما هو شر متعجل، وللأنفس أجل مؤجل، وكل ذلك حذر من الموت الذي هو ربق في أعناق الحيوان، حكم لقاءه في كل أوان. وفي الناس من يظن أن الشيء إذا قيل جاز أن يقع، ولذلك قالت العامة: الإرجاف أول الكون. ويقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم، تمثل بهذا البيت ولم يتممه:

تفاعل بما تهوى يكن، فلقلماً **يقال لشيء: كان إلا تحقّقاً**

ومهما ذهب إليه اللبيب، فالخير في هذه الدنيا قليل جداً، والشرّ يزيد عليه بأجزاء ليست بالخصاصة، وما أشبه ذوي التقى بالعصاة، كلهم إلى التلف يساقون، يلقون ما كره ولا يعاقبون، ولعلّ الله، جلّت قدرته، يميزهم في المنقلب، ويسعف بمراده أخوا الطّلب. وقال علقمة:

من تعرّض للغربان يزجرها **على سلامته لا بد مشؤوم**

وكان ابن الرومي معروفاً بالتّطير، ومن الذي أجري على التّخيير؟ وقد جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، أخبار كثيرة تدل على كراهة الاسم الذي ليس بحسن، مثل مرّة وشهاب والحباب لأنّه يتأوله في معنى الحية.

ونحو من حكاية ابن الرومي التي حكاها التّاجم ما حكى عن امرأة من العرب أنّها قالت للأخرى: سمّاني أبي غاضبة، وإمّا تلك نار ذات غضى، فالحمد لربيّ على ما قضى، وتزوجت من بني جمرة رجلاً أحرق، وما أمرق. أي لم يكتر مرقه وكان اسمه تورباً وإمّا ذلك تراب، فشمتت بي الأتراب، وكان يدعى جندلة فمضضت عنده بالجندل، ولا شمتت رائحة مندل، وكان اسم أمّه سوّارة فلم تنزل تساورني في الخصام، ولا تنفعني بعصام.

فقلت الأخرى: لكن سَماني أبي صافية، فصفوت من كل قذى، وجتبت مواقع الأذى، وزوجني في بني سعد بن بكر فبكر عليّ السعد، وأنجز لي الوعد. واسم زوجي مُحاسِن، جزِي الصالحة، فقد حاسن وما لاسن، واسم أبيه وقاف، رعاه الله، فقد وقف عليّ خيرهُ، ولأكثر لديّ ميرهُ، واسم أمه راضية، رضيت أخلاقي، ولم تجنح إلى طلاقِي.
وإذا كان الرَّجل خثارماً، لم يزل في الكشكث آرماً: إن رأى سمامةً من الطير، حسبها من السّمام، أو حمامةً فرق من الحمام، كما قال الطائي:

هَنّ الحمام، فإن كسرت، عيافةً، من حائهنّ، فإتهن حمام

وإن عرضت له خنساء من البشر، فإنه لا يأمن من البشر، يقول: أخاف من رفيقٍ يخنس، وأمرٍ يدنس. وإن كانت الخنساء من الوحوش، نفر قلبه من الحوش، إن رآها سائحةً، هزّت من رعبه جانحةً. يقول: قد ذهب أهل عقلٍ وافر، من أرباب المناسم وصحب الحافر، يتطيرون بالسّتيح، ويرهبون معه المنيح. وإن أتته بقدرٍ بارحة، عاين بها النجلاء الجارحة، يقول: ألم يك ذوو خيلٍ وسروج، يخشون الغائلة من البروج؟ وإن لقي رجلاً يدعى أخنس، فكأتما لقي هزبراً تبهنس. يقول: ما يؤمني أن يكون كأخنس بني زهرة فرّ بملفاته عن وفر، وطرحت القتلى في الجفرة؟! وإن استقبل من يولع بذلك أعفر، فإنه ينتظر أن يعفر، وإن بصر بالأدماء. أيقن بسفك الدماء، وإنّ جبهه ذيال، فكأته المصور العيال؛ يقول: ما؟ أقريني من إذالة، تبطل كلام العدالة؟! وإن آنس نعاماً بقفر، وهو مع الركب السّفر، فما يأخذها من النعيم، ويجعلها بالهلكة مثل الزّعيم. يقول، من الفند العي: أوّلها نعي وإتما ذلك من النعي. وإن عنّ له في الخرق ظليم، فذلك العذاب الأليم. يقول: ليت شعري من الذي يظلمني. يأخذ نشبي أم يكلمني؟ وإن نظر إلى عصفور، قال: عصف من الحوادث بوفور، فهو طول أبده في عناء، ولا بد له من الفناء.

ولهذه الطوية جعل ابن الرومي جعفرًا من الجوع والفرار ولو هدي صرفه إلى النهر الجرار، لأن الجعفر التهر الكثير الماء، ولكنّ إخوان هذه الخليقة، لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة. وأراد بعضهم السّفر في أول السنّة فقال: إن سافرت في الحرم، كنت جديراً أن أحرم، وإن رحلت في صفر، خشيت على يدي أن تصفر، فأخّر سفره إلى شهر ربيع، فلمّا سافر مرض ولم يحظ بطائل، فقال: ظننته من ربيع الرّياض، فإذا هو من ربيع الأمراض.

وأما إعداد الماء المثلوج فتعلّة، وما ينفع بالحيل غلة، وتقريبه الخنجر تحرّر من جبان، وتنقض الأفضية وما بنى البان؛ ورب رجلٍ يحتفر له قبراً بالشام، ثمّ يجشمه القدر بعيد الإحشام، فيموت باليمن أو

الهند، والحتف بالغايرة والفند: " ما تدري نفس بأبي أرض تموت، إن الله عليم خبير".
وكما أن النفس جهلت مدفن عظامها، فهي الجاهلة بالقاطع لنظامها. كم ظان أنه يهلك بسيف،
فهلك بحجر من خيف.

وموقن أن شجبه يقدر على مهاد، فألقته الأسل ببعض الوهاد.
والبيتان اللذان رواهما التاجم عن أبي الرومي مقيدان، وما علمت أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن
مقيداً، وإلا في بيت واحد يتداوله رواة اللغة، والبيت:

كأن القوم عشوا لحم ضأن، فهم نعجون قد مالت طلاهم

وهذا البيت مؤسس، والذي قال ابن الرومي بغير تأسيس.
وما يدري التاجم، ولعله بالفكر راجم، أفي الجنة حصل ذلك الشيخ أم في السعير، وما اثقل وسوق
العرير.

وأما أبو تمام، فما أمسك من الدين بزمام، والحكاية عن ابن رجاء مشهورة، والمهجة بعينها مبهورة.
فغن قذف في النار حبيب، فما تغني المدح ولا التشبيب. ولو أن القصائد لها علم، وتأسف لما يشكو
العلم، لأقامت عليه الممدودتان اللتان في أول ديوانه، مأتماً يعجب لأسوانه. فسناحتا عليه كابنتي
ليبد، وجرعتاهما من الشكل نظير الهبيد، وقالنا ما زعمه الكلابي في قوله:

وقولا: هو الميت الذي لا حريمه أضاع، ولا خان الصديق ولا غدر

إلى الحول، ثم اسم السلام عليكما ومن بيبك حولاً كاملاً، فقد اعتذر

وكأني بهما لو قضي ذلك، لاجتمعت إليهما الممدودات، كما تجتمع نساء معدودات. فيجتن من كل
اواب، ويتوعدون الحفل على نوب.

ولو فعلن ذلك لبهارتهن البائيات بماتم أعظم زنيماً، وأشد في الحندس حنيناً، كما قال العبقسي:

يجاوبن الكلاب بكل فجر فقد صحت من النوح الحلوق .

وإذا كان ماتم الممدودات في مائة ممن يعدهن وبظاهر، وجب أن يكون ماتم البائيات في الآف تعلن
وتجاهر لأن الباء طريق ركوب، والمد في القصائد سبيل منكوب.
وما نظمه على التاء، فإنه لا يعجز عن الإيتاء.

وتجيء الثائنتان وكتاهما كابنة الجون، وتبتدر في حالك اللون. ولو صوّرتا من الآدميات، لزدنا على قينتي ابن خطلٍ في المرتيات، وإنّ الثاء لقليلة في شعر العرب إلا أنّهما تستعينان كلمة كثير:

فسقياً لها جدداً أو رماناً

حبال سلامة أضحت رثاناً

وبأراجيز روية وما كان نحوها من القوافي المتكلفة، والأشعار المتعسفة، ولهما فيما نظم ابن دريد، أعوان بالعجل والرؤيد. فأما الداليات والرئيات وما بني على الحروف الذلل: كاليم والعين واللام وما جرى مجراهن، فلو اجتمع كل حيزٍ منهن وهو فراد، لضاق عنهنّ الصدر والإيراد، وزدن على ما ذكر أنّه اجتمع في جنازة أحمد بن حنبل من النساء والرجال، ويقال أنّه لم يجتمع في الجاهلية ولا الإسلام جمع أكثر مما اجتمع في موت أحمد، حزر الرجال بألف ألف، والنساء بستمائة ألف، والله العالم بيقين الأشياء.

وإن كان حبيب ضيّع صلواته، فإنّه لصال بفلواته، لا يبلغ فيه كيد العداة، ما بلغ إهمال غداة. كم ضدّ نكص عنه ذا بهر، وليس كذلك صلاة الظهر، إن تركها فإنّها شاهدة، وفي الشكّية له جاهدة. وكم من قصر، يشيد في الجنة بصلاة العصر، ومسك في الجنة متأرجح لمصلي المغرب ليس بالخرج، وهور أشن بديع الإنشاء، لمن حافظ على صلاة العشاء، وقد جاء في الحديث النهي أن تسمى العتمة. وروي: "لا تحذعوا عن اسم صلواتكم فإنما يعتم بحلاب الإبل" وفي حديث آخر: "إنّ العتمة اسم بنت الشيطان".

وإنّ من يعجز عن اداء تلك الرّكعات، ليشتمل على نيّة عات.

فليت حبيباً قرن بين الصلاتين، فجعلها كهاتين، كما قال القائل: قرن الظّهر إلى العصر كما تقرن الحقة بالحق الذكر وإني لأضن بتلك الأوصال أن يظل جسدها وهو بالموقدة صال، لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة، ومعان كاللؤلؤ متتبعة، يستخرجها من غامض بحار، ويغض عنها المستغلق من الحار. وإن ابتدرته مهنة مالك، فقد نبذ في المهالك، فليته كالجعديّ، أو سلك به مسلك عديّ، أو كان مذهبه مذهب حاتم فقد كان متألّهاً، ومن الخشية متولّهاً، وقال:

ويضظمني ماويّ بيت مسقف

وإني لمجزى بما أنا عامل

أو ليته لحق يزيد بن مهلهل، قد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، و طرح عنه ثوب الغبي.

الإفشين

وأما المازيار، فحلّال بالسّفه سيار، وحسبه ما يتجرّع من الحميم، ويحتمل من المقال الذميم، وقد خلد له في الكتب ما يوجب، لعنه إلى يوم الدين، وأني له أن يجعل كأديم ودينٍ ورحم الله ابن أبي داؤد، فلقد شفى الأنفس من الجواد، وكشف حال الأفشين، فعلم أنه آلف شين، مخالف رشادٍ وزين.

بابك

وبابك فتح باب الطغيان، ووجد من شرار الرعيان، واظن جهاده، عليه التبار، أفضل جهادٍ عرف، وذنبه أكبر ذنبٍ اقترف. ولعله يود في الآخرة أنه ذبح عن كل من قتل في عدّانه، مائة مرة في نهل مدّانه، ثم خلص من العذاب المطبق، واستنفذ عنقه من الربق. والعجب لأبي مسلم، خبط في الجنان المظلم، وظنّ أنه على شيء، فكان كالمعتمد على الفيء، حطب لنارٍ أكلته، وقتل في طاعة ولاة قتلته. وليس بأول من دأب لسواه، وأغواه الطمع فيمن أغواه. وإنما سهر لأمّ دفرٍ وتبع سراياً في قفرٍ، فوجد ذنبه غير المغتفر، عند صاحب الدولة أبي جعفر.

وكلّ ساعٍ للفانية لا بدّ له من الندم، في أوان الفرقة وحين العدم، فذمنا يحسب من الضلال، كما تمّنى القنع أخو الإقلال، وهذه زيادة في التّضب، وفاز بالسبق حائز القصب. نذمها على غير جناية، ولم تخبر أحداً بالعناية، بل أبنائها في الحن سواء، لا تاعفهم الأهواء، فرب حامل حزمة عضيدٍ ليس رثده بالنصيد، يعجز ثمنها عن القوت، ويكايد شظف عيشٍ ممقوت، يلج سلاء في قدمه، ويخصبه الشائك بدمه، وهو أقل أشجاناً من الوائب على السرير، ينعم برشاً غرير، يجمع له الذهب من غير حلّ، ياعنات الأمم وإسخاط الإلّ، وإذا ملأ بطنه من طعام، وسبح في بحرٍ من الترف عام، فتلك النعم ولذاته، تحدث لأجلها أذاته، يختلجه القدر على غفول، وغاية السّفور إلى قفول. وما يدري العاقل، إذا افتكر، أي الشخصين أفضل: أريب عقد عليه إكليل، أم ارقش ظله في المك ظليل؟ كلاهما بلغ آراباً، وأحدهما يأكل تراباً، الآخر يعل بالراح، ويجتهد له في الأفراح.

وما علمنا التّسك موقياً، ولا في الأسباب الرّافعة مرقياً، والعالم بقدرٍ عاملون، أخطأهم ما هم آملون، ما آمن أن تكون الآخرة يارزاق، فتغدو الرّاجحة إلى المهراق، على أن السرّ مغيب، وكلنا في الملتمس مخيب، والجاهل وفوق الجاهل، من ادعى المعرفة بغبّ المناهل، واللّعنة على الكاذبين.

الكيسانية

أما الذين يدعون في عليّ، عليه السلام، ما يدعون، فتلك ضلالة قديمة، وديمة من الغواية تتصل بها ديمة، وقد روي أنه حرق عبد الله ابن سبأ لما هاجر بذلك النيا .
 واعتقاد الكيسانية في محمد بن الحنفية عجيب، لا يصدق بمثله نجيب، وقد روي أن أبا جعفر المنصور رفعت له ناراً في طريق مكة في الليلة التي مات فيها، فقال: قاتل الله الحميريّ، لو رأى هذه النار لظن أنها نار محمد بن الحنفية! .
 وعلي له سابقة، ومحاسن كثيرة رائقة، وكذلك جعفر بن محمد ليس شرفه بالثمد .
 وقد بلغني أن رجلاً بالبصرة يعرف بشاباس، تزعم جماعة كثيرة أنه رب العزّة، وتجي إليه الأموال الجمّة، ويحمل إلى السلطان منها قسماً وافراً، لكون بما طلب ظافراً، وهو إذا كشف، ساقط لاقط، يبذه إلى الفضل الماقت، والماقت الذي يكرى من بلدٍ إلى بلد . وحدثت أن امرأة بالكوفة يدعى لها مثل ذلك .

ابن الراوندي

وقد سمعت من يجبر أن لابن الراوندي معاشر تذكر إن اللاهوت سكنه، وأنه من علم مكنه، ويختصون له فضائل يشهد الخالق وأهل المعقول، أن كذبها غير مصقول، وهو في هذا أحد الكفرة، لا يحسب من الكرام البررة، وقد أنشد له منشد، وغيره التقي المرشد:

قسمة سكران بين الغلط

قسمت بين الورى معيشتهم

قلنا له: قد جنت فاستعط

لو قسم الرزق هكذا رجل

ولو تمثل هذان البيتان لكانا في الإصر يطولان أرمي مصر، فلو مات الفطن كمدماً لما عتب، فأين مهرب العقول من شقاء رتب؟! أكل ما خدم خادع، أرسلت من الكفر مصادع؟ والمصادع: السهام وما حسنت السوداء الغالبة بسفيه دعواه، إلا وافق جهولاً عواه أي عطفه .
 وقد ظهر في الضيعة المعروفة بالنيرب المقاربة لسرمين رجل يعرف بأبي جوف، لا يستتر من الجهل بحوف، والحوف أزيز من آدم مشقق الأطراف السافلة تنزر به الحارية وهي صغيرة وكان يدعي النيرة، ويخبر بأخبار مضحكة، وتثبت نيته على ذلك ثبات المحكة، وكان له قطن في بيت فقال: إن قطني لا يحترق وأمر ابنه أن يديني سراجاً إليه، أخذ في العطب، وصرخت النساء، واجتمعت الجيرة، وإنما الغرض إطفاء! وحدثني من شاهد، أنه كان يكسر الضحك بغير موجب، ولا عند حدثٍ معجب، فقليل

له: ممّ تضحك؟ فقال كلاماً معناه: إنّ الإنسان ليفرح بهيّن قليل، فكيف من وصل إلى العطاء الجليل؟ وكان بين الجنون، ليس خبله بالمكنون، فاتبعه الأغبياء، وكذب ما يقوله الأنبياء، حتى قتله والي حلب، حرسها الله، وذلك بعد مقتل البطريق المعروف بالدوقس في بلد أفامية، وكان الذي حثّ على قتله جيش بن محمد بن حمصامة لأنّ خبره رقي إليه، فأرسل إلى سلطان حلب، حرسها الله، يقول: أقتله وإلاّ أنفذت إليه من يقتله؛ وكان السلطان يتهاون به لأنّه حقير، وربّ شاةٍ نتج منها الوقير، أي قطيع الغنم.

وبعض الشيعة يحدث أنّ سلمان الفرسّي في نفرٍ معه جاؤوا يطلبون عليّ بن أبي طالب، سلام الله عليه، فلم يجدوه في منزله، فبينما هم كذلك جاءت بارقة تتبعها راعدة، وإذا عليّ قد نزل على إجار البيت، في يده سيف مخضوب بالدم، فقال: وقع بين فتيتين من الملائكة، فصعدت إلى السماء لأصلح بينهما! والذين يقولون هذه المقالة يعتقدون أنّ الحسن والحسين ليسا من ولده، فحاق بهم العذاب الأليم.

أفلا يرى إلى هذه الأمة كيف افتنت في الضلالة، كافتنان الربيع في إخراج الأكلاء، والوحش الرائعة الأطلاء؟! وللكذب سوق ليست للصدق، تجعل الأسد من أبناء الفرق. وأما الذي ذكره نم بلوغ السنّ، فإن الله، سبحانه، خلق مقراً وشهداً، ورغبة في العاجلة وزهداً، وإذا اللبيب أنعم النظر، لم ير الحياة إلىّ تجذبه إلى الضير، وتحت جسده على السير؛ فالمقيم كأخي ارتحال، لا تثبت الأفضية به على حال: صبح يتبسّم وإمساء، لا يلبث معهما النساء، كأنهما سيّدا ضراء والعمر ثلّة في اقتراء، وهما على السّارح يغيران، فيفنيان السّائمة وييران. وإن كان، مكنّ الله وطأة الأدب ببقائه، قد أماط الشبيبة فإنما أنفقها في طلب علوم وآداب، صيرّ طلابها ألزم داب، ولو كان لها على الحيّ تلبث، كان لها بنفسه النقيسة تشبث، ولكنها بعض الأعراض، لا تشعر بحياة وانقراض.

وإذا كتنا على ذمّ هذه المتزلة مجمعين، ولقراقها مزمعين، فلم نأسف على نأي الخوآنة؟ إن الأشاءة لمن العوانة، والأشاءة النخلة الصغيرة، والعوانة النخلة الطويلة ومتى اخلص قرين الغفلة توبة، فإنّها لا تترك حوبة، تغسل ذنوبه غسل التاسكة جزيز الفرار، في متدفق سحاب مدرار، كثر فيه القهل والدنس، فأحبّ رحضه الأنس، وكان قد أخذ عن أثباج غنم بيض، تفوق ما يرتع من الربيض، فعاد وكأنه كافور الطيب، أو ما ضحك من كافور رطيب، والكافور: الطلّع، وقيل هو وعاء الطلّعة.

فأمّا الغانيات بعد السبعين، فالأشيب لديهن كالعاسل يباكر العين، وقد حكى أن أبا عمرو بن العلاء كان يخضب، فاشتكى في بعض الأيام، فعاده بعض أصحابه، قال: تقوم إن شاء الله تعالى من علتك. فقال: ما أمل بعد ست وثمانين. وعاد إليه وقد تماثل فقال: لا تحدث بما قلت لك. وهذا من ظريف ماروي، رغب في تموية بالخضاب، وكنتم سنه عن كل الأصحاب. وقد تحدّث بعض طلاب الأدب أنه، أدام الله تزيين الخافل بحضوره، ذكر التزويج يريد الخدمة، فسريني ذلك، لأنّه دل على إقامة بالوطن، وفي قربه الفرحة لذوي الفطن. إذ كان كالشجرة الوارف ظلالهما في الهواجر، والبارد هواؤها في ناجر، والطيب ثمرها للذائق، والأرج نسيمها للناشق. وهو يعرف حكاية الخليل عن العرب: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب؛ ولا خيرة عند التواب، ولكن التصف، ممن يوصف:

واخلع ثيابك عنها ممعناً هرباً

لاتنكحن عجوزاً إن أتيت بها

فإن أطيب نصفها الذي ذهباً

وإن أتوك وقالوا: إنها نصف

لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ولعله تقدر له كصاحبة أبي الأسود أم عمرو، ورب خير تحت الخمر:

ورققته ماشئت في العين واليد

كثوب اليماني قد تقادم عهده

أو كما قال الآخر:

بلين بلى الریطات وهي جديد

ضناك على نيرين أمست لداتها

وحكى عن أبي حاتم سهل بن محمد أنّه قرأ على الأصمعي شعر حسّان بن ثابت، فلمّا انتهى إلى قوله:

غير أن الشباب ليس يدوم

لم تفتها شمس النهار بشيء

قال الأصمعي: وصفها والله بالكبر، وقد يجوز ما قال، والأشبه أن يكون قال هذا وهي شابة، على سبيل التأسف، أي أن الأشياء لا بقاء لها، كما قال الآخر:

غير أن لا بقاء للإنسان

أنت نعم المتاع، لو كنت تبقى؛

ولو نشط لهذه المأربة، لتنافست فيه العجز والمكتهلات، وعلت خطبة المنهلات، لأن العاقلة ذات الإحصاف، تجنب إلى معاشرة حليف الإنصاف. وهل هو كما قال الأوّل:

وقد يكون شباب عير فتیان

يا عز هل لك في شيخ فتى أبداً

فليس بأوّل من طلب نجوزاً، فتزوج على السنّ عجوزاً، كما قال:

إذا ما أعرض الفتیان عني

فمن لي أن تساعفني عجوز

كأن مجامع اللحيين منها

إذا حسرت عن العرنين كوز؟

ويروي للحادث بن جازة، ولم أجده في ديوانه:

وقالوا ماتكحت؟ فقلت: خيراً

عجوزاً من عريضة ذات مال

نكحت كبيرة، وغرمت مالاً،

كذلك البيع: مرتخص وغال

وأعوذ بالله مما قال الآخر:

عجوزاً لو أن الماء يسقى بكفها

لما تركتنا بالمياه نجوز!

وما زالت العرب تحمد الحيزبون والشهلة، ولا تكره مع لشرخ الكهله. وقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم، خديجة ابنة خويلد وهو شاب، وهي طاعنة في السن. وقالت له أم سلمة ابنة أبي أمية: يا رسول الله، إني امرأة قد كبرت وما أطيع الغيرة. فقال: أما قولك: قد كبرت، فإننا أكبر منك، وأما الغيرة، فإنني سوف أدعو الله أن يزها عنك. وقال الشاعر:

فما أنا ابن رهمٍ قد علمتم

ولا ابن العاملة فاحذروني

ولكني ولدت بنجمٍ شكس

لشمطاء الذوائب حيزبون

ولا أشك أنه قد استخدم في مصر أصناف حوار، وهن للمآرب موار، ولولا أن أخوا الكبيرة يفتقر إلى معين، لكانت الحزامة أن يقتنع بورد المعين، فهو بعرف قول القائل

ما العيش إلا القفل والمفتاح

وغرفة تخرقها الرياح

لا صخب فيها ولا صياح

وحدثني ابن القنسري المقرئ، أنه سمعه يسأل عن غلامٍ للخدمة، وربما كان استخدام الأحرار، يمنع من القرار، فقد قال أبو عبادة:

أنا من ياسر ويسر ونجح

لست من عامرٍ ولا عمّار!

ما بأرض العراق يا قوم حرّ

يفتديني من خدمة الأحرار؟

وأن يخدم نفسه الوحيد، خير من أن يلج بيته العبيد؛ فطالما أحوجوا المالك إلى ضرب، وأن يتقيهم بالعرب.

ورب نازلٍ من أهل الأدب في خان، ليس بالخائن ولا المستخان، بخدمه صبي من الرّق حرّ، وفي

خدمته السرقة والضرر. وإذا أرسله بالبتك، بنات الدرهم ليأتيه بالطبيخة حين يكثر الطبخ ويتيح، سعره المشتعل متيح، سرق في السبيل القطع، وانتهى في الخيانة وتنطع، ثم وقف بالبائع، فغبنه غبن الرائع، فأخذ صغيرة من بطيخ، لا تلقى الناظر بمثل الورس اللطبخ. ثم انصرف بها لاعباً، كأنها هدى كاعباً، فلم يزل يتلقف بها في الطريق، حتى كسرهما بين فريق؛ فاختلفت حبها بالحصباء، وزهد في قربها كل الأرباء. ويجوز أن يحملها في حال السلامة، ويمضي ليسبح مع الفتیان، فإذا نزل في الماء اختطفها بعض العرمة من الصبيان، فأكلها وهو يراه، لا يحفل بأديهما إذ فراه. وقد يرسله بالغضارة يلتمس لبناً، فيقال من سوء الرأي غبناً، فإذا حصل فيها الهدبد، عشر فإذا هو على الصحراء متلبد، وصارت الفخارة خزفاً لا يراد، يلغيه النسكة والمراد، فإن كان صاحبه يذهب مذهب ابن الرومي عد أن تحطم الغضارة، فناء عيشه ذي الغضارة؛ فدعا بالحرب، وشده عن فوات الأرب، وما يصنع بذلك المصمقر، وقد حان المتحلل إلى المقر؟ وكان في بلدنا غلاماً لبعض الجند يزعم، ويصدق فيما يزعم، أنه كان مملوكاً لأبي أسامة جنادة بن محمد الهروي بمصر، وكان يأسف لفراقه، ويعجب من جميل أخلاقه، ويقول إنه باعه من أجل العوم، فما أوقع غلاءً في السوم.

وإنما ذكرت ذلك لأنه، عرف الله الوقت بحياته أي طيبه، ثم قد عرف جناده وجربه. وأما أهل بلدي، حرسهم الله، فإذا كان الحظ قد أعطاني حسن ظن الغرباء، فلا يمتنع أن يعطيني تلك المترلة من الرهط القرباء. ولكنهم كطلاب الخطبة من الأخرس، وحر ناجر من شهر القوس. وسيدي الشيخ أبو العباس الممتع: في السن ولد، وفي المودة أخ، وفي فضله جد أو أب. وإنه في أدبه، لكما قال تعالى: "وما لأحد عنده من نعمة تُجزى".

وأما إشفاق الشيخ -عمر الله خلده بالجدل، وأراح سمعه من كل عدل -فتلك سجية الأنيس، لا يختص بها أخو الجبن عن الشجاع البئس. ومن القسوط، تعرّض بالقنوط. "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله".

كم من أديب شرب وطرب ثم تاب وأجاب العتاب. فقد يضل الدليل في ضوء القمر، ثم يهديه الله بأحد الأمر، وكم استنقذ من اللج غريق، فسلم وله تشريق.

وقد كان الفضيل بن عياض، يسيم في أويل رياض، ثم حسب في الرهاد، وجعل من أهل الاجتهاد. ورب خليع وهو فتى، تصدّر لما كبر وأفتى، ومغن بطنبور أو عود، قدر له تولي السعود، فرقي منبراً للعضات، من بعد إرسال اللحظات.

عمر بن عبد العزيز

ولعله قد نظر في طبقات المعنّين فرأى فيهم عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس، هكذا ذكر ابن خرداذبة، فإن يك كاذباً فعليه كذبه. والحكاية معروفة أن أبا حنيفة كان يشارب حمّاد عجرد ويناديه، فنسك أبو حنيفة وأقام حمّاد في الغي، فبلغه أن أبا حنيفة يذمه ويعيبه، فكتب إليه حمّاد:

إن كان نسكك لا يتم
فأفعد وقم بي كيف شئ
بغير شتمي وانتقاصي
فإطالما زكيتني،
ت مع الأداني والأقاصي
أيام تعطيني وتأ
وأنا المقيم على المعاصي
خذ في أباريق الرصاص

عمر بن الخطاب

أليس الصحابة، عليهم رضوان الله، كلهم كان على ضلال، ثم تداركهم المقتدر ذو الجلال؟ وفي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب خرج من بيته يريد مجعاً كانوا يجتمعون فيها للقمار، فلم يجد فيه أحداً فقال: لأذهبن إلى الخمار، لعلّي أجد عنده خمرأ. فلم يجد عنده شيئاً. فقال: لأذهبن ولأسلمن. والتوفيق يجيء من الله سبحانه وتعالى بإجبار، وفيما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم: "ووجدك ضالاً فهدى".

وذكر أبو معشر المدني في كتاب المبعث حديثاً معناه أن النبي صلى الله عليه وسلم، ذبح ذبيحة للأصنام فأخذ شيئاً منها فطبخ له، وحمله زيد بن حارثة ومضيا ليأكلاه في بعض الشعاب، فلقيهما زيد بن عمرو ابن نفيل، وكان من المتألهين في الجاهلية، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم، ليأكل من الطعام، فسأله عنه فقال: هو من شيء ذبحناه لآهتنا. فقال زيد بن عمرو: أتّي لا آكل شيء ذبح للأصنام، وإني على دين إبراهيم صلى الله عليه، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم، زيد بن حارثة بالقاء ما معه.

وفي حديث آخر، وقد سمعته بإسناد: أن تميم بن أوس الداري، والدار قبيلة من خم كان يهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، في كل سنة رواية من خمر، فجاء بها في بعض السنين، وقد حرجت الخمر، فأراقها، وبعض أهل اللغة يقول: فبعها.

والمطبوخ وإن أسكر فهو جار مجرى الخمر، على أن كثيراً من الفقهاء قد شربوا الجمهوري والبختج والمنصف، وذكر، عند أحمد بن يحيى ثعلب، أحمد بن حنبل وإن كان شرب التبيذ قط؟ والتبيذ عند الفقهاء غير الخمر، فقال ثعلب: أنا سقيته بيدي في ختانة كانت خلف بن هشام البرزاز. فأما الطلاء فقد كان عمر بن الخطاب، عليه السلام، جزءاً منه على نصارى الشام لجنود المسلمين، والمثل السائر:

هي الخمر تكنى الطلاء **كما الذئب يُكنى أبا جعدة**

وهذا البيت يُروى ناقصاً كما علم، وهو ينسب إلى عبيد ابن الأبرص وربما وجد في النسخة من ديوانه، وليس في كل النسخ. والذي أذهب إليه أن هذا البيت قيل في الإسلام عندما حُرمت الخمر. وإنما لذة الشرب فيما يعرض لهم من السكر، ولولا ذلك لكان غيرها من الأشربة أعذب وأدفاً، وقال التغلبي:

علّاتي بشرية من طلاء **نعمت النيم في شبا الزمهرير**

ويروى لدعبل:

علّاتي بسماع وطلا، **ونصيف جائع يبغي القرى**

وهذا يدل على أن الطلاء يسكر ويروي للهندي:

إذا ما شئت باكرني غريض **وزق فيه ني أو نضيج**

وقال آخر:

لا تسقتي الخمر إلا نبيئة قدمت **تحت الخام، فشر لاخمر ما طبخا**

وإن كان، هيأ الله له الحاب، قد شرب نياً، وقال له الندمان: هنيأ، فله أسوة بشيخ الأزد محمد بن الحسن إذ قال:

بل رب ليل جمعت قطريه لي **بنت ثمانين عروس تجتلي**

ثم قال في آخر القصيدة:

فإن أمت فقد تناهت لذتي **وكلت شيء بلغ الحد انتهى**

وما أختار له أن يأخذ بقول الحكمي:

قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدي **عن أن تسير إلى فمي بالكاس**

وهو يعرف البيت:

وما طبخوها، غير أن غلامهم

سعى ليلةً في كرمها بسراج

وقول عبد الله بن المعتز:

ذكر العليج أنهم طبخوها،

فرضينا ولو يعود خلال

وقدماً طلب الندامى مطبوخاً، شبّاناً في العمر وشيوخاً، يناقون بالصفة ويوارون، وعن الصّهباء العاتقة يدارون، وأبيات الحسين بن الصّحاح الخليع التي تنسب إلى أبي نواسٍ معروفةً:

وشاطريّ اللسان مختلق التّ

كريه، شاب المجون بالنّسك

بات بغمي يرتاد صالية ال

نار ويكني عن ابنة الملك

دسست حمراء كالثّهاب له

من كفّ خمّار حانة أفك

يحلف عن طبخها بخالقه،

وربّ موسى ومنشئ الفلك

كأنما نصب كأسها قمر

يكرع في بعض أنجم الفلك

ومن النّفاق أن يظهر الإنسان شرب ما أجاز شربه بعض الفقهاء، ويعمد إلى ذات الإقهاء، فقد أحسن الحكمي في قوله:

فإذا نزعت عن الغواية، فليكن

لله ذاك النّزع، لا النّاس

وقد آن لمولاي الشيخ أن يزهد في شيمة حميد، وينصرف عن مذهب أبي زبيدٍ وإنما عنيت حميداً الأجميّ قاتل هذه الأبيات:

شربت المدام، فلم أقلع

وعوتبت فيها فلم أرجع

حميد الذي أمجّ داره،

أخو الخمر ذو الشّيبة الأصلع

علاه المشيب عى حبّها،

وكان كريماً فلم ينزع

وقال آخر:

تعاتبني في الرّاح أمّ كبيرة

وما قولها، فيما أراه، مصيب

تقول، ألا تجفو المدام فعندنا

من الرّزق تمرّ مكثبٌ وزبيب؟

فقلت: رويداً مالزّبيب مفرّحي،

وليس لتمرّ في العظام دبّيب

فإنّ حميداً علّها في شبابه

ولم يصحّ منها حين لاح مشيب

وإذا تسامعت المحافل بتوبته، اجتمع عليه الشبان المقبولون، والأدباء المتكلمون، وكل أشيب لم يبق من عمره إلا ظمء حمار، كما اجتمع لسمر أصناف السُّمَّار، فيقتبسون من آدابه، ويصغون المسامع لخطابه، وجلس لهم في بعض المساجد بحلب، حرسها الله، فإنها من بعد أبي عبد الله بن خالويه عطلت من خلخالس وسوار، ونارت من الأدب أشدَّ النَّوار.

وإذا كان لك بتفضل الله، أعدَّ معه خنجراً كخنجر ابن الرومي، أو الذي عناه ابن هرمة في قوله:

لا أمتع العوذ بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل

لا غنمي في الحياة مدَّ لها إلا دراك القرى، ولا إبلي

كم ناقةٍ قد وجأت منحرها بمستهلَّ الشؤبوب، أو جمل

فإذ جلس في منزله، مجلسه الذي يلتقط أهله زهر أسحار، بل لؤلؤ بحار، فيكون ذلك الخنجر قريباً منه، فإذا قضي أن يمرَّ بباب المسجد الكهل المرقَّب الذي أراده القائل بقوله:

إذا الكهل المرقَّب غاض أننا إلى سيء له في القرو ثان

كأنَّ الذَّارع المغلول منها سلبب من رجال الديبلان

وثب إليه وثبة نمر، إلى متخلفةٍ وقرٍ أمر، أو أمر بعض أصحابه بالوثوب إليه، فوجأه بذلك الخنجر وجأةً فانبعث بمثل الدَّم، أو الخالص من العندم، وقرأ هذه الآية: "إنَّ الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكري للذاكرين".

فإذا مضى صاحبه مستعدياً إلى السلطان فقال: من فعل ذلك بك؟ فسماه له، قال السلطان بمشيئة الله: لا حرَّ بوادي عوف، ما أصنع بجنث الأدب وبقية أهله؟ ووطنها تحت قدمه، وحسبها من زعانف أدمه. ما يفعل ذلك مرّةً أو اثنتين، إلا وحمله الذَّوارع قد اجتنبت تلك النَّاحية، كما اجتنب أبو سفيان بن حرب طريقه من خوف النبي صلى الله عليه وسلم، فقال حسَّان:

إذا أخذت حوران من رمل عالج

فقولا لها: ليس الطَّرِيق هنالك

ولا بأس إن كان المعدُّ مشملاً يشتمل عليه في الكمِّ، فإذا ضرب به ذراع الخمر، ذكر من نظر في كتاب المبتدأ حديث طالوت لما أمر ابنته وهي امرأة داود، صلى الله عليه، أن تدخله عليه وهو نائم ليقتله. فجعلت له في فراش داود زقاً خمرٍ ودسته عليه، وضربه بالسيف وسالت الخمر، فظنَّ أنَّها الدَّم، فأدركه الأسف والتدم، فأوماً بالسيف ليقتل نفسه ومعه ابنته، فأمسكت يده، وحدثته ما فعلته،

فشكرها على ذلك .

ويكون السّكران إذا أمّ بذلك المسجد، تترت ومزمر، كما في الحديث، واستنكه، فإن أوجبت الصورة أن يجلد جلد، ولا يقتصر له الشّيح، أغراه الله، أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، على أربعين في الحدّ على مذهب أهل الحجاز، ولكن يجلده ثمانين على مذهب أهل العراق، فإنّها أوجع وأفجع . ويقال إن النبيّ صلى الله عليه وسلم، جلد أربعين، فلمّا صار الأمر إلى عمر بن الخطّاب، عليه السّلام، استقلّها، فشاور عليّاً، عليه السّلام، فجعلها ثمانين . وإذا صحّت الأخبار المنقولة بأنّ أهل الآخرة يعلمون أخبار أهل العاجلة، فلعلّ حواريه المعدّات له في الخلد، يسألن عن أخباره من يرد عليهنّ من الصّلحاء، فيسمعن مرّة أنّه بالفسطاط، وتارة أنّه بالبصرة، ومرّة أنّه ببغداد، وخطرة أنّه بجلب . فإذا شاع أمر التّوبة، ومات ناسكٌ من أهل حلب أخبرهن بذلك، فسرنن وابتهجن، وهنّاهنّ جاراهنّ . ولا ريب أنّه قد سمع حكاية البيتين الثابتين في كتاب الاعتبار:

وبمسراك يا أميم إينا!

أنعم الله بالخيالين عينا

د ومن ظلمة القبور علينا!

عجباً ما جزعت من وحشة اللّح

وأعوذ بالله من قومٍ يحُثّم المشيب على أن يستكثروا من أمّ زنبقٍ، كأنّها المنجية من بنت طبق، كما قال حاتم:

أراد ثراء المال، كان له وفر

وقد علم الأقبوام لو أنّ حاتماً

وليست تعريّه القداح ولا اليسر

يفكُّ به العاني، ويؤكل طيباً

من الأرض، لا ماءً لديّ ولا خمر

أماويّ إن يصبح صداي بقفرة

وأنّ يدي ممّا بخلت به صفر

تري أنّ ما أهلكت لم يك ضررتي

وقال طرفة:

فدعني أبادرها بما ملكت يدي

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

وقال عبد الله بن المعتز:

ليس يومي، يا صاحبي، مثل أمسي

لا تطل بالكؤوس مطلي وحبسي

مذ عرفت الخمسين أنكرت نفسي

لاتسلني وسل مشيبي عني،

فهذا حثته كثرة سنيه على أن يستكثر من السُّلَافَةِ، وما حفظ حقَّ الخلافة، وإنَّ العجب طمعه أن يبلي، كآته في العبادة شحب وبلي، ولكنَّ القائل قال لمعاوية بن يزيد:

تلقاها يزيدٌ عن أبيه، فخذها يا معاوي عن يزيدا !

وقد كان محمد بن يزيد المرءُ ينادم البحتريَّ ثمَّ ترك. وأنا أضنُّ به، ميز الله من الغيظ قلب عدوِّه، أن يكون كأبي عثمان المازني: عوتب في الشَّراب فقال: إذا صار أكبر ذنوبي تركته. وأما إبراهيم بن المهدي فقد أساء في تعريضه بالكأس لحمَّد بن حازم، ولكن من عبث بالبيم والزَّير، لم يكن في الدِّيانة أcha تعزير. وقد روي أن المعتصم دعا إبراهيم كعادته فغناه البيتين اللذين يقال فيهما: غتني صوت ابن شكلة، وبكى إبراهيم، فقال له المعتصم: ما يبكيك؟ فقال: كنت عاهدت الله إذا بلغت ستين سنة أن أتوب، وقد بلغت. فأعفاه المعتصم من الغناء وحضور الشَّراب. والتوبة إذا لم تكن نصوحاً، لم يلف خلقها منصوحاً. وكان في بلدنا رجلٌ مغرمٌ بالقهوة، فلما كبر رغب في المطبوخ، وكان يحضر مع نداماه وبين يديه خرداذيُّ فيه مطبخةٌ، وعندهم قدحٌ واحدٌ، فيشرب هو من المطبوخ ويشرب صحابه من النبيء، فإذا جاء القدح إليه ليشرب، غسله من أثر الخمر وشرب فيه، فإذا فرغ خرداذيُّ المطبوخ رجع فشرب من شراب إخوانه.

وأما مخاطبته غيره وهو يعني نفسه، فهو كقولهم في المثل: إياك أعني واسمعي يا جارة. ولا عندد عن الجبلة، يريد المنتسك أن ينصرف حبه عن العاجلة، وليس يقدر على ذلك، كما لو لا تقدر الظبية أن تصير لبؤة، ولا الحصاة أن تتصور لؤلؤة: يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين. وقول القائل في الدعاء: اللهم اجعل وصعي بازيماً، يكون للسَّفه مواذياً.

ولقد علمت ولا أنهاك عن خلق أن لا يكون امرؤ إلا كما خلقا

وإنَّا لنجد الرّجل موقناً بالآخرة، مصدّقاً بالقيامة، معترفاً بالوحدانية وهو يجأ على التابح بعظم، وعلى الجارية بعارية نظم، كآته في الأرض مخلدٌ، وإن في سهلٍ وجلدٌ. وكثير من الذين يتلون الآية: "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسعٌ عليم". وهم بما مصدّقون، ومن خشية إلههم مشفقون، يضنون بالقليل التافه ولا يسمحون للسَّائل ولا الوافه، فكيف تكون حال من ينكر حديث الجزاء، ولا يقبل عن الفانية حسن العزاء؟ وقد مرَّ به حديث أبي طلحة، أو أبي قتادة ومعناه أنه خصم يهودياً إلى النبيِّ صلَّى الله وسلَّم، وكان لأبي طلحة حديقة نخل، وبينه وبين اليهوديِّ خلفٌ في نخلة

واحدة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم، لليهودي: أتسمح له بالنخلة حتى أضمن لك نخلة في الجنة؟ ونعتها رسول الله صلى الله عليه وسلم، بنعوت أشجار الجنة. فقال اليهودي: لا أبيع عاجلاً بأجل. فقال أبو طلحة: أتضمن لي يا رسول الله كما ضمنت له حتى أعطه الحديقة؟ فقال: نعم. فرضي أبو طلحة بذلك. وأخذ اليهودي وذهب إلى حديقته، فوجد فيها امرأته وأبناءه وهم يأكلون من جناها، فجعل يدخل إصبعه في أفواههم فيخرج ما فيها من التمر، فقالت امرأته: لم تفعل هذا ببنيك؟ فقال: إني قد بعث الحديقة. فقالت: إن كنت بعثها بعاجل فبئس ما فعلت! فقصر عليها الخبر، ففرحت بذلك.

ولو قيل لبعض عبّاد هذا العصر: أعط لبنة ذات قصّة، لتعطى في الآجلة لبنة من فضّة، لما أجاب. لو سئل أمة عوراء، يعوّض منها في الآخرة بجوراء، لما فعل. على أنه من المصدّقين، فكيف من غذي بالكذب، وجحد وقوع التعذيب؟ وأما فاذوه فلقبي طائر الحين، متكفياً من بين جناحين، فلا إله إلاّ الله، ما أعدّ المهراس، ليفضح به الرأس، ولكن لكلّ أجل كتاب، والشرُّ يبكر وينتاب. منته نفسه التوبة، فكانت كصاحبة امرىء القيس لما قال لها:

منيتنا بعد وبعد غدٍ حتى بخلت كأسوا البخل

أبي الهذيل العلاف

ويحكى عن أبي الهذيل العلاف أنّه كان يمرُّ في الأسواق على حمارٍ ويقول: يا قوم احذروا توبة غلامي. وكان له غلامٌ يعد نفسه التوبة، فسقطت عليه آجرة فقتلته، والدنيا الغرارة ختلته. وأوّل ما سمعت بأخبار الشيخ، أدام الله تأثيل لفضل بيقائه، من رجلٍ واسطيّ يتعرّض لعلم العروض، ذكر أنّه شاهده بنصيين، وفيها رجلٌ يعرف بأبي الحسين البصري، معلماً لبعض العلويّة، وكان غلامٌ يختلف إليه يعرف بابن الدن، وقد اجتاز الشيخ ببلدنا والواسطيّ يومئذٍ فيه. وقد شاهدت عند أبي أحمد عبد السلام بن الحسين المعروف بالواجكا رحمه الله، فلقد كان من أحرار الناس كتباً عليها سماعٌ لرجلٍ من أهل حلب، وما أشكُّ أنّه الشيخ، أيّد الله شخصه بالتوفيق، وهو أشهر من الأبلق العقوق، لا يفتقر إلى تعريف بالقريض، بل يصدق شرفه بغير التعريض. قال البكريّ النسابة لرؤبة: من أنت؟ قال: أنا ابن العجاج. قال: قصّرت وعرفّت. وإنما هو في الاشتهار، كما سطع من ضوء فمار، وكما قال الطائيّ:

من أن يذال بمن أو ممن الرجل؟

تحميه لألأوه أو لو ذعيتّه،

وإن تناسخت الأمم في العصور، فهو عليّ بن منصور الذي مدحه الجعفيّ، فقال والخالق وفيّ:

وعلا، فسمّوه عليّ الحاجبا

في رتبة حجب الورى عن نيلها

حجب طلاب الأدب عن تلك الرتبة، ونزل بالمشامحة لا العتبة. وأمّا العلماء الذين لقيهم، فأولئك مصاييح الناجية وكواكب الداجية، وإنّ في النظر إليهم لشرفاً، فكيف بمن اغترف من كل بحر وجد عرفاً؟ وإنما أقول ذلك على الاقتصار، ولعلّه قد نرف بحارهم بالقلم والفهم، وفتحوا له أغلاق البهم جمع بهمة وهو الأمر الذي لا يهتدى له فأخذ عن الكتابيّ سور التنزيل، وفاز بثواب جزيل، فكأنما لقنّه إياه الرسول، وبدون تلك الدرّجة يبلغ السؤل. أو أخذها عن جبرئيل، في غير ولا تبديل. وسهلوا له ما صعب من جبال العربيّة، فصارت حزونة كتاب سيبويه عنده كالدمّات، وغني في اللّجج عن ركوب الأرمات.

وأما انخيازه إلى أبي الحسن، رحمه الله، فقد كان ذلك الرجل سيّداً، ولمن ضعف من أهل الأدب مؤيّدًا، ولمن قوي منهم وادًا، ودونه للنبوب محادًا، وكان كما قال القائل:

لم تدر أيهما ذوو الأرحام

وإذا رأيت صديقه وشقيقه

وكما قال الطائيّ:

فهو عبي وشعب كل أديب

كل شعب كنتم به آل وهب

والمثل السائر: على أهلها تجني براقش. وذكر الصوّليّ أنّه دخل على المتقيّ بعدما قتل بنو حمدان محمّد بن رائق، فسأله عن أبيات نمشل بن حرّيّ:

كما لم يطع بالبفتين قصير

ومولّى عصاني واستبدّ برأيه

وناءت بأعجاز الأمور صدور

فلما رأى ما غب أمري وأمره

وقد حدثت بعد الأمور أمور

تمنّى نئيشاً أن يكون أطاعني

يقال: فعل كذا نئيشاً، أي بعدما فات، قال الشاعر:

لألام مالك عقباً وريشاً

إنّك يا قطين ولت منهم

فلم تعرفكم إلا نئيشاً

تناعت منكم عدس بن زيد

وما زال الشبان المحسون من أنفسهم بالتهضة، ييغون ما شرف من المراهص، وكيف بالسّلامة من الواهص؟ والمثل السّائر: رأي الشيخ خير من مشهد الغلام. وربما سار الطالب سورة، فواجهت من القدر زورة، إنّ الغفة من العيش، لتغني الجتهد عن البري والرّيش، ولكن لا موئل من القضاء المحتوم، وآه من عمرٍ بالتلف محتوم:

وسورة علمٍ لن تسدّد، فأصبحت وما يتمارى أنّها سورة الجهل

وأما حججه الخمس فهو، إن شاء الله، يستغني في الحشر بالأولى منهن، وينظر في المتأخرين من أهل العلم، فلا ريب أنّه يجد فيهم من لم يحجج، فيتصدّق عليهم بالأربع. وكأني به وعماعم الحجج، يرفعون التلبية بالعجيج، وهو يفكر في تلبيات العرب وأنّها جاءت على ثلاثة أنواع: مسجوع لا وزن له، ومنهوك، ومشطور. فالمسجوع كقولهم:

لبيك ربنا لبيك، والخير كله بيدك

والمنهوك على نوعين: أحدهما من الرّجز، والآخر من المنسرح، فالذي من الرّجز كقولهم:

لبيك إن الحمد لك، والملك لا شريك لك

إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك

أبو بناتٍ بفدك فهذه من تلبيات الجاهليّة، وفداك يومئذ فيها أصنام، وكقولهم.

لبيك يا معطي الأمر، لبيك عن بني النمر

جنناك في العام الزّممر، نأمل غيثاً ينهمر

يطرق بالسيل الخمر.

والذي من المنسوج جنسان: أحدهما في آخره ساكنان، كقولهم:

لبيك ربّ همدان، من شاحطٍ ومن دان

جنناك نبغي الإحسان، بكلّ حرفٍ مذعان

نطوي إليك الغيطان: نأمل فضل الغفران

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم:

لبيك عن بجيلة، الفخمة الرّجيلة

ونعمت القبيلة، جاءتك بالوسيلة

تؤمل الفضيله وربّما جاؤوا به على قوافٍ مختلفة، كما رورا في تلبية بكر بن وائل:

تعبداً ورقاً

لبيك حقاً حقاً

لم نأت للرقّاحه

جئناك النصّاحه

والمشطور جنسان: أحدهما عند الخليل من الرّجز، كما روي في تلبية تميم:

يشكرك الناس ويكفرونكا

لبيك لولا أنّ بكراً دونكا

ما زال منّا عثج يأتونكا والآخر من السريع وهو نوعان: أحدهما يلتقي فيه ساكنان كما يروون في تلبية همدان:

همدان أبناء الملوك تدعوك

لبيك مع كل قبيل لبوك

فاسمع دعاءً في جميع الأملاك

قد تركوا أصنامهم وأنتابوك،

قوهم: لبوك، أي لزموا أمرك، ومن روى: لبوك، فهو سناد مكروه.

والمشطور الذي لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم:

وعن نساء خلفها تعنيها

لبيك عن سعد وعن بنيها

سارت إلى الرّحمة تجتنيها والموزون من التلبية يجب أن يكون كلة من الرّجز عند العرب، ولم تأت التلبية بالقصيد. ولعلهم قد لبّوا به ولم تنقله الرّواة.

وكأني به لما اعتزم على استلام الرّكن، وقد ذكر البيتين اللذين ذكرهما المفجع في حدّ الإعراب:

حيّاً الحطيم وجوهنّ وزمزم

لو كان حيّاً قبلهنّ ظعائناً،

منهنّ صمّاء الصدى مستعجم

لكنّه عمّا يطيف بركنه

فيعجب من خروجه من المذكّر إلى المؤنث. وإذا حمل هذا على إقامة الصّفّة مقام الموصوف لم يبعد. وكذلك يذكر قول الآخر:

بمكثّة والقلوب لها وجيب

ذكرتك والحجيج له عجيج

به لله أخلصت القلوب

فقلت ونحن في بلدٍ حرام

جنيت فقد تظاهرت الذّنوب

أتوب إليك يا ربّاه ممّا

زيارتها، فإني لا أتوب

فأمّا من هوى ليلى وحبّبي

فيقول: أليس قال البصريون إنَّ هاءَ التُّدْبَةِ لا تثبت في الوصل والهاء في قوله: يا ربَّاه، مثل تلك الهاء ليس بينهما فرق؟ ولكن يجوز أن يكون مغزاهم في ذلك المنثور من الكلام، إذ كان المنظوم يحتمل أشياء لا يحتملها سواه.

ولعله قد ذكر هذه الأبيات في الطَّواف:

أطوِّفُ بالبَيْتِ فيمن يطوِّفُ، وأرْفَعُ من مئزري المسبَلِ
وأسجد بالليل حتى الصَّبَاحِ، وأتلو من المحكم المنزلِ
عسى فارح الكرب عن يوسفِ، يسخر لي ربَّةَ المحملِ

فقال: ما أيسر لفظ هذه الأبيات لولا أنَّه حذف أن من خبر عسى! فسبحان الله، لا تعدم الحسناء ذاماً، وأيُّ الرِّجالِ المهذَّبِ.

وذكر عند النَّقْرِ وتفرُّقِ الناس هذين البيتين:

ودَّعي القلب يا قريب وجودي، لمحِبِّ فراقه قد أحْمَا
ليس بين الحياة والموت إلاَّ، أن يردوا جمالهم فتزماً

وقول قيس بن الخطيم:

ديار التي كادت ونحن على منى، تحلُّ بنا، لولا نجاء الرِّكائبِ
ولم أرها إلاَّ ثلاثاً على منى، وعهدي بها عذراء ذات ذوائبِ
تبدت لنا كالشمس تحت غمامةٍ، بدا حاجبٌ منها، وضنت بحاجبِ

وميز بين هذين الوجهين في قوله: تحلُّ بنا، لأنَّه يحتمل أن يكون: تحلَّ فينا، وقد يجوز أن يريد: تحلنا، كما يقال: انزل بنا هاهنا، أي أنزلنا، ومنه قوله:

كما زلت الصَّفْواءَ بالمتنزلِ

وإن كانت الحجج التي أتى بهامع مجاورة، فقد أقام بمكة حتى صار أعلم بها من ابن داية بوكره، والكدريِّ بأفاحيصه، والحرباء بتنضيبته.

وإن كان سافر إلى اليمن أو غيره، وجعل يحجُّها في كلِّ سنة، فذلك أعظم درجة في الثواب، وأجدر بالوصول إلى محلِّ الآوَابِ. ولعله قد وقف بالمغمس وترحمَّ على طفيل الغنوي لقوله:

هل حبل شماء بعد الهجر موصول، أم أنت عنها بعيد الدار مشغول؟
إن هي أحوى من الربيعي، حاجبه، والعين بالإثمد الحاري مكحول

ترعى أسرة موالي أطاع لها
بالجزع، حيث عصى أصحابه الفيل
وإنما أطلقت الترحم على طفيل إذ كان بعض الرواة يزعم أنه أدرك الإسلام، وروى له مدح في النبي
صلى الله عليه وسلم، ولم أسمع في ديوانه، وهو:

وأبيك خير إن إبل محمد
عزل تماوح أن تهب شمال
وإذا رأين لدى الفناء غريبة
فاضت لهن من الدموع سجال
وترى لها حد الشتاء على الثرى
رخماً، وما تحيا لهن فصال
وأنشد أبيات ابن أبي الصلت الثَّقفي:

إن آيات ربنا ظاهرات
ما تمارى فيهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى
ظلَّ يحبو، كأنه معفور
كلُّ دين يوم القيامة عند الله
إلا دين الحنفية بور

وما عدم أن تخطر له أبيات نفيل:

ألا حييت عنا ردينا
نعمناكم مع الإصباح عينا
ردينة لو رأيت، فلا تريه،
لدى جنب المغمس ما رأينا
إذا لعذرتني ورضيت أمري،
ولم تأسي على مافات بينا
حمدت الله إذ أبصرت طيراً
وحصب حجارة تلقى علينا
وكلُّ القوم يسئل عن نفيل
كأن عليَّ للحبشان دينا!

وليت شعري أقراناً أهل أم مفرداً؟ وأرجو أن لا تكون لقيته بمكة شهلة تعرض عليه فتيا ابن عباس،
حلف ما بها من باس، فتذكر قول القائل:

قالت، وقد طفت سبعاً حول كعبتها:

هل لك يا شيخ في فتيا ابن عباس؟

هل لك في رخصة الأطراف ناعمة

تسمي ضجيعك حتى مصدر الناس فأما المنتسبون إلى جوهر، فالجوهر بعد إدراك الحظ، يرجع إلى تغيير
وتشظ، كم درة في تاج ملك، لما رمي بالمهلك، فضتها من الأسف حظاياها، وهل تشي من الأجل
سراياها؟ وأخرى على نحر كعاب، شطت عن الدنس والعباب، منيت بالنقابة أو التحاز، فجعلتها

الوالدة في منحاز.

وكأني به وقد مرَّ بأنطاكية فذكر قول امرئ القيس:

علون بأنطاكية فوق عقمة، كجرمة نحل أو كجنة يثرب

وخطر له أن النطك وهو اللفظ الذي يجب أن يشتق منه أنطاكية لو كانت عربية، مهمل لم يحكه مشهوراً من الثقات. ولما مرَّ بملطية أنكر وزمها وقال: فعلية، مثال لم يذكر، وإذا حملناها على التصريف وجب أن تكون ياؤها زائدة لأن قبلها ثلاثة من الأصول.

وأما صديقه الذي جذب عند السير، فهو يعرف المثل: أعرض عن ذي قبر، إذا حجز دون الشخص تراب، فقد تقضت الآراب، من ليم في حال حياته، استحقَّ المعذرة في مماته، ولعله نطق بما نطق في معنى انبساط، لا وهو بالكلم ساط، ومن غفر ذنب حي وهو يلحق به الأذاة، فكيف لا يغفر له بعد الميتة وقد عدم منه الشداة؟ وسلام على رمس من محالس، يعدل بألف تسليمه في المجالس، وهو يعرف ما قالوه في معنى البيت:

وأتي صاحبي حيث ودعا

أي أزور قبره.

وأما الذي أنكره من البديه، فمولاي الشيخ مكرراً في الأدب تكرير الحسن والحسين في آل هاشم، والوشم المرجع بكف الواشم، وهل يعجب لسعجة من قمرى، أو قطرة تسبق من السحاب المري؟ ولو باده خزامى عاجل بالرائحة لجاز أن يرعف غضيضها، أو البروق الوامضة لما امتنع أن يعجل وميضها. وفي الناس من يكون طبعه المماظة، فيؤذي الجليس، ويكثر التديليس وهو يعلم أنه فاضل، لا ينضله في الرمي مناضل.

والبديه ينقسم أفانين، ويصرف للنفر أظانين. فمنه القبل، ولعله فيه أجرى من سبل، أو هو السبل. والمراد بسبل الفرس الأنثى المعروفة، والسبل: المطر.

وبديه التمليط، ولا تجود الراسية بالسليط.

وبديه الإعنات، وذلك الموقظ من السنات، وهو يختلف كاختلاف الأشكال، ولا ينهض به ذو الوكال.

وأما أبو عبد الله بن خالويه وإحضاره للبحث النسخ، فإنه ما عجز ولا أفسخ أي نسي ولكن الحازم يريد استظهاراً، ويزيد على الشهادة الثانية ظهاراً:

أرى الحاجات عند أبي خبيب،

نكدن، ولا أمية في البلاد

أين كأي عبد الله؟ لقد عدمه الشّام! فكان كمكة إذ فقد هشام، عنيت هشام بن المغيرة، لأنّ الشاعر
رثاه فقال:

أصبح بطن مكة مقشعراً

كأنّ الأرض ليس بها هشام

يظلُّ كأنه أثناء سوط

وفوق جفانه شحم ركام

فللكبراء أكل كيف شاءوا

وللصُّغراء حمل واقتنام

وأبو الطيب اللّغوي اسمه عبد الواحد بن عليّ، له كتابٌ في الإتياع صغير على حروف المعجم في أيدي البغداديين، وله كتابٌ يعرف بكتاب الإبدال، قد نحا به نحو كتاب يعقوب في القلب، وكتابٌ يعرف بشجر الدرّ، سلك به مسلك أبي عمر في المداخل، وكتابٌ في الفرق قد أكثر فيه وأسهب. ولا شكّ أنّه قد ضاع كثيرٌ من كتبه وتصنيفاته، لأنّ الروم قتلوه وأباه في فتح حلب. وكان ابن خلوويه يلقبه قرموطة الكبرتل، يريد دحروجة الجممل، لأنّه كان قصيراً.

وحدّثني الثقة أنّه كان في مجلس أبي عبد الله بن خالويه وقد جاءه رسول الدولة يأمره بالحضور ويقول له: قد جاء رجلٌ لغويّ، يعني أبا الطيب هذا، قال اخذت: فقمتم من عنده ومضيت إلى المتنبّي فحكيت له الحكاية، فقال: السّاعة يساء الرجل عن شوط براح، والعلّوض، ونحو ذلك، يعني أنّه يعنته.

وكان أبو الطيب اللّغوي بينه وبين أبي العباس بن كاتب البكتمريّ مودةً وموانسةً، وله يقول:

يا عبد إنّك عند القلب جنّته

حباً، وإنّك عند الطّرف ناظره

أزمنت سيراً، فقل ما أنت قائله

واذكر لراعي الهوى، ما أنت ذاكره

لا أشتكى سهراً طالّت مسافته

اللّيل يعلم أنّي الدّهر ساهره

قوله: يا عبد، يريد: يا عبد الواحد، كما قال عديّ بن زيد في الأبيات الصّادية التي مضت:

غيبت عني عبد في ساعه الشرّ

وجنبت أوان العويص

يريد عبد هند.

وقد كان أبو الطيب يتعاطى شيئاً من النّظم.

وقد علم الله أنّي لا في العير ولا في التّفير، ومن للجارمة بالتكفير؟ كلّما رغبت في الخمول، قدر لي

غير المأمول، كان حقُّ الشَّيخِ إذ أقام في معرَّة التَّعمان سنةً ان لا يسمع لي بذكرٍ، ولا أخطر له على فكر، والآن فقد غمر إفضاله، وأظلني دوح أدبه لا ضاله، وجاءتني منه فرائد لو تمثَّلت لواحدة منها تومةً، لم تكن بالصحف مكتومةً، ولا سغنى بثمانها القبيل، وعمر إليها السَّبيل؛ ينظر منها الناظر لي جوهرةً، مثل الزُّهرة، كما قال الرَّاجز:

ذهب لَمَّا أن رآها تزمرة **وقال: يا قوم، رأيت منكرة**

شذرة واد إذ رأيت الزُّهرة وبعضهم يروي: ترملة، مكان: تزمرة، وهي أكثر الروايتين على ما فيها من الإكفاء.

وهو، أدام الله عزَّ الأدب بحياته، كريم الطَّبع والكريم يخدع، ومن سمع جاز أن يخال، والجنديل لا ينتج الرِّخال.

وأما ما ذكره من ميله في مصر إلى بعض اللذات، فهو يعرف الحديث: أريحوا القلوب تع الذكر. وقال أحيحة بن الجلاح:

صحوت عن الصَّبَا واللَّهُو غول **ونفس المرء آونة ملول**

وكان ينبغي أن يكون في هذا الوقت يضبط ما معه من الأدب بدرس من يدرس عليه، إذ كانت السنُّ لا بدَّ لها من تأثير، وأن ترمي بقلة كلِّ كثير، ولكنَّ قطرته الفاردة تغرَّق، ونفسه إذا برد يجرِّق، وقال رجلٌ من قريش:

لله دري حين أدركني البلى **على أيما تأتي الحوادث أندم؟!**

ألم أجتل البيضاء يبرق حجلها **لها بشر صافٍ ووجه مقسم؟**

ولم أصطبِح قبل العوائل شربةً **مشعشةً، كأنَّ عاتقها الدَّم**

ولعلَّه قد قضى الأرب من ذلك كلَّه، والأشياء لها أواخر، وإنَّما العاجلة سراَّبٌ ساخر، وقد عاشر ملوكاً ووزراء، فلا منقصة ولا إزراء، وقد سمع نبأ التَّعمان الأكبر، إذ فارق ملكه فراق المعبر، وتعوَّض من الحرير المسوح، ورجب في أن يسوح، وإياه عنى العباديُّ في قوله:

وتذكَّر ربَّ الخورنق إذ فكَّ **ر يوماً وللهدى تفكير**

سرَّه ملكه وثرة ما يم **لك والبحر معرضاً والسدير**

فارعوى جهله فقال: وما غب **طة حيَّ إلى الممات يصير؟**

والسُّكر محرّمٌ في كلِّ الملل، ويقال: إنَّ الهنْد لا يملِّكون عليهم رجلاً يشرب مسكراً، لأنَّهم يرونه منكراً، ويقولون: يجوز أن يحدث في المملكة نبأ الملك سكران، فإذا الملك المتبع هكران.

لعنت القهوة، فكم قهبط بها رهوة؛ لا خيرة في الخمر، توطيء على مثل الجمر. من اصطحب فيهجاً، فقد سلك إلى الدَّهية منهجاً. من اغتبق أمَّ ليلي، فقد سحب في الباطل ذيلاً. من غري بأَمَّ زنبق، فقد سمح بالعقل الموبق. من حمل بالراحة راحاً، فقد أسرع للرشد سراحاً. من رضي بصحبة العقار فقد خلع ثوب الوقار. من أدمن قرقفاً، فليس على الواضحة موقفاً. من سدك بالخرطوم، رجع إلى حال المفطوم. المواظبة على العائني، تمنع بلوغ الأمان. الخيبة لسبيئة، تخرج من سرِّ كلِّ خبيئة. لا فائدة في الكميت، جعل حيَّها مثل الميت. من بلي بالصَّرخدي، لم يكن من الفاضحة بالمفدي. ما أخون عهود السُّلاف، تنفض مرير الأحلاف. أمَّا السُّلافة، فسَلِّ وآفة. كم شابُّ في بني كلاب، مات غبطةً. وما بلغ من الدُّنيا غبطة! رماه بسحاف قاتل، إدمان المعتقة ذات المخاتل. من بكر إلى الشَّمول، فرأيه ينظر بطرف مسمول. أقلُّ عنتاً من كرينة، ليثُّ زار في العرينة. كم بربط، عصف بجعد وسبط! كم مزهر، أوقع هاجداً في السَّهر! وهو يعرف أبيات المتخَّل:

للضبع والشبيبة والمقتل

مما أقضى ومحار الفتى

منها بنيء، وعلى مرجل

إن يمس نشوان بمصروفة

خطَّ له ذلك في المحبل

لا تقه الموت وقياته

وينبغي أن يزَّهده في الصَّهباء الصَّافية، أن نداماه الأكرمين أصبحوا في الأجداث العافية، كم جلس مع فتیان، أتى عليهم الزَّمن كلَّ الإتيان، فكان كما قال الجعديُّ:

تذكرت والذكري تهيج لي الهوى

ومن حاجة المحزون أن يتذكرا

نداماي عند المنذر بن محرق

فأصبح منهم ظاهر الأرض مقفرا وهو يعرف الأبيات التي أوَّها:

أجدكما لا تقضيان كراكما؟

خليلي هبَّا طال ما قد رقدتما،

وهل يعجز أن يكون كما قال الآخر:

حتى ألقى بعد الموت جبَّارا

أمَّا الطلاء فإنِّي لست ذائقها

كأنه كان نديمه على الطلاء، فلما رماه التلّف من غير بلاء، حرّم عليه شربها، حتى تسكنه الرّاكدة
تربها.

وسرّني فينة الدنانير إليه، فتلك أعوان، تشبّه منها الألوان، ولها على الناس حقوق، تبرّ إن خيف
عقوق.

قال عمرو بن العاص لمعاوية: رأيت في التّوم أن القيامة قد قامت وجيء بك وقد أجمك العرق. فقال
معاوية: هل رأيت ثمّ من دنانير مصر شيئاً؟ وهذه لا ريب من دنانير مضر لم تجيء من عند السّوق،
ولكن من عند الملوك، ولم تكن مهر هلوك، فالحمد لله الذي سلّمها إلى هذا الوقت ولم تكن كذهب
مخزون، صار إلى الحمّارة مع الموزون، كما قال:

وخمّارة من بنات المجوس ترى الزّق في بيتها سائلا
وزناً لها ذهباً جامداً، فكالت لنا ذهباً سائلا

ولا ألغز عنها هذا البيت:

دنانيرنا من قرن ثور، ولم تكن من الذهب المضروب بين الصّفائح
لو رآها المرقّش لعلم أنّها أحسن من وجوه حباته، لما غدا الطّاعن برباته، فقال:

النّشر مسكٌ، والوجوه دنا نيرٌ، وأطراف الأكفّ عنم

وإنّما لأحسن من الوجوه التي ذكرها الجعدي، وزعم أن حسنها بديّ، فقال:

في فتوٍ شمّ العرانيين أمثا ل الدنانير شفن بالمتقال

أخذت من جوائز كرام صيد، تارة بالخدمة وتارة بالقصيد، ولم تكن في العبدية مرهنت، ولا عند
الغرض موهنت، كما قال ردّاد الكلابي:

يطوي ابن سلمى بها عن راكبٍ بعراً عيديّة، أرهنت فيها الدنانير

وهي عند البله والكيس، أجود من الخاتم الذي ذكره ابن فيس، فقال:

إن ختمت جاز طين خاتمها، كما تجوز العبدية العتق

أراد بالعبدية دنانير نسبها إلى عبد الملك بن مروان، ويقال إنّه أول من ضرب الدنانير في الإسلام.
وجلتّ عن نقد الصّيرفي، وهي الرّواجح لدى الميزان الوفي، حاش الله أن تكون كما قال الفرزدق:

تنفى يداها الحصى في كلّ هاجرة نفي الدنانير تنقاد الصّياريف

وهذا البيت ينشد على وجهين: الدنانير والدّارهميم.

ولا هي من دنانير أيلة، باع بها البائع نخيله، وإنما ذكروا دنانير أيلة لأنّها كانت في حيز الروم فتأتيها الدنانير من الشام، قال:

وما هبرزي من دنانير أيلة بايدي الوشاة مشرقاً يتأكل

الوشاة: النقاشون الذين يشونه ولو رآها الضبي محرز، لشهد أنّها حين تبرز، أجلّ من تلك القسمات وإن كانت في أوجه ذي سمات، قال:

كأن دنانيراً على قسماتهم، وإن كان قد شفّ الوجوه لقاء

ومعاذ الله أن نقرن بجوذان واد، سقته روائح وغواد، حتى إذا القيظ وهج، تمزق ما لبس وانهج، قال الشاعر:

وربّ واد سقاه كوكب أمر فيه الأوابد والأدم اليعافير

هبطته غادياً والشمس شارقة كأن حوذاته فيه الدنانير

ولو أخذ مثلها التادم على بيع كميته، لأسكنت البهجة في خلده وبيته، ولم يأسف أن عوض حماراً من فرس، ولوجد على الشكوى ذا خرس، ولم يقل:

ندمت على بيع الكميت، وأنما حياة الفتى هم له وخسار

وأما أتاني بالدنانير سائمي، أصاغت وهشت للبياع نوار

وقالت: أتم البيع واشتر غيره، فحولك في المشتى بنون صغار

فأنفقت فيهم ما أخذت، ولم يزل لدي شراب راهن وقتار

إلى أن تداعى الجند بالغزو وانجلت غوم شتاء سحبهن غزا

وأعوزني مهر يكون مكانه كأن ليس بين العالمين مهار

وسار على الخل المغدّة صحبتي وسرت وتحتي للشقاء حمار

ولله المنّة كما نجّاهما بالقدر من بكور، ليس من بكره بالمشكور، يحمل معه دنانير، ولا يصحب من القوم صنانير، أي بخلاء فيقيم بهم في الدسكرة أياماً، أيقاظاً في السكر أو نياماً، فتفني الذهب أقداح، كأنّها جزور الميسر وهي القداح قال الجعدي:

ود سكرة صوت أبوابها كصوت المواتح في الحوآب

سبقت إليها صياح الديوك وصوت نواقي لم تضرب

وقال آخر:

وقبضة من دنانير غدوت بها

ولم يزل ثم يسقينا ويأخذها

ولو كان الشيخ أدرك من تقدم من الملوك، لكن كل واحد منها كالذي قال فيه القائل

وأصفر من ضرب دار الملوك

يزيد على مائة واحداً،

ودنانيره، بإذن الله، مقدّسات، ما هنّ بالخرج ملدسات

والحزامة من سومه وشيمه، فلا يدفع إلى مقارض شيئاً من عيمه أي مختاراته وفي الكتاب العزيز: "ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك" وهذا قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وقد كان في زمانه من تخرج، يتضمخ بالنسك ويتأرخ، فأما اليوم فلو أمن كتابي على نمي، لأسرعت إليه الظنن إسراع رمي والرّمي ههنا سحاب سريع الإقشاع، من قول الهذلي:

أولئك و دعوت أذاك منهم

رجال مثل أرمية الحميم
وما عنيت بالكتابي، من نسب إلى تواراة وإنجيل، دون من نسب إلى القرآن البجيل.
على أنه لا بدّ من أمانة مفترقة في البلاد، تكون للخير من التلاد، وإنّها في الآخرة لأشرف، وأرحض لما يقترف، فليشفق على الصّابة، إشفاق النّدس ذي اللّبابة، فكل واحد منها دينار أعزة، يبعث الرّابي على الهزّة، كما قال سحيم:

تريك غداة البين كفاً ومعصماً

ووجهاً كدينار الأعزّة صافياً

ولو نظر إليه قيس بن الخطيم لما شبّه به وجه كنوده، وجعله من أنصر جنوده، ولم يسمح أن يقول:

صرمت اليوم حبلك من كنودا

عشيّة طالعت فأرتك قصراً

ووجهاً خلته لما بدا لي

ولثله قصد ربيعة بن المكدم، لما أيقن بحتف مقدّم، فقال:

شديّ على العصب أن سيّار

فقد رزيت فارساً كالدينار

أو ملكه مالك بن دينار مع زهده، وبلوغه في الورع أقصى جهده، لجاز أن يحجأ به على دينار أبيه، وقد يكذب قائل في التشبيه.

وكل هبرزي من هذه الصُّفَرِ المباركة، أبلغ في قضاء الحاجة من دينار الذي اختاره للمأربة قائل هذا البيت:

هل أنت باعث دينارٍ لحاجتنا **أو عبد ربِّ أخا عون بن مخراق**

وهذا البيت يتداوله النحويون، وزعم بعض المتأخرين من أهل العلم أنه مصنوع، وما أجدره بذلك! فأما قول الفرزدق:

رأيت ابن دينارٍ يزيد رمى به **إلى الشام يوم العنز، والله قاتله**

لو كان دينار هذا المذكور كأحد هذه الدنانير، لأرب به أن ينسب إليه يزيد.
وأين هي من دنانير النَّخَّة التي قال في واحدها القائل:

عمي الذي منع الدينار ضاحيةً، **دينار نخة جرمٍ وهو مشهود**

ودينار النَّخَّة دينار كان يأخذه المصدِّق إذا فرغ من الجباية.

وكل نقيشٍ من هذه الرَّاجعة بعد اليأس، أنقع لغيلل الصَّدَّيان، من دينار الذي دعاه لسقيه راكب فلاة، وهو على كور علاة فقال:

أقول لدينارٍ وهنَّ شوائل، **بنا كنعامٍ طالبات رئال**

لكَّ الويل أدركني بشرية آجن **من الماء، ما مشروبها بزال**

فما كاد دينار يغيث بنطفة **حشاشة نفسٍ آذنت بزوال**

ولا هو كدينار الأخطل الذي ذكره في قوله: كمت ثلاثة أحوال بطينتها=حتى اشتراها عبادي بدينار

لو وقع إلى عبادي لما مذل **به لخمَّار، ولو حسب في الضمَّار**

ولا كالدينار في البيت الذي أنشده أبو عمرو الزَّاهد:

وفي الكتاب أسطر محكوكه، **لا حظَّ في الدينار للكاروكه**

زعم أن الكاروكة القوادة.

والعجب لها تفر من بنان السَّارق، فرار دنانير الشَّارق، وصفها أبو الطيب فقال:

وألقى الشَّرِّق منها في ثيابي **دنانيراً تفر من البنان**

لو رآها كثيرٌ عزة لآلى أوكد ألية، أتها أحسن من الهرقليّة، التي شبه بمنفردتها نفسه فقال:

يروق عيون الناظرين كأنه
هرقلي وزن، أحمر التبر، راجح
وإن كانت زائدة على الثمانين،
فقد أوفت على عدّة أصحاب

موسى الذين جاء فيهم: " واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا" وعلى عدّة الاستغفار المذكور في قوله: " إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم"، وعلى عدّة أذرع السلسلة في قوله تعالى: " في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه".

ولو كان الإنسان في قلب عمقه ثمانون قامّة، جاز أن تستنقذه هذه المصفرّة من غير مرض، والزائلة بما يعترض من الجرض وإنما ذكرت ذلك لقول الأعشى:

ولو كنت في جب ثمانين قامّة
ورقيت أسباب السّماء بسلم

ولو كانت سنو زهير مثلها لما وصف نفه بالسامة، ولكانت له أمّض قامة والقامة الأعوان، كأنها جمع قائم. قال الرّاجز:

وقامني ربّعة بن كعب
حسبك ما عندهم وحسبي

ولو أدركه عروة بن حزام وهو يقول:

يكلفني عمّي ثمانين ناقة
وما لي يا عفراء غير ثمان

لجاز أن يرقّ له فيغيثه من هذه الثمانين ببعضها أو يسمح له بكلّها، لأنّه كريم طبع، وعوده في الثوب عود نبع؛ ولو صارت في يد عروة هذه الثمانون، لبلغ بها الأمانة لأنّ الناقة في ذلك الزمان كانت ربّما اشترت بعشرة دراهم.

الفرزدق

وفي بعض أخبار الفرزدق، أنّ رجلاً من ملوك بني أمية أعطاه مائة من إيل الصدقة، فباعها بألف وخمسمائة درهم، بعدما عني به، وزيد في الثمن. وقد مرّت به الحكاية التي يذكرها أصحاب التاريخ، أنّ الجمل كان يباع في زمن أبي جعفر المنصور بدرهم، وأنّه صادر قوماً من أصحابه، وكانت لهم نعج، فباعوها ثمانين نعاج بدرهم. هذا ممّا وجد بخط المرزبانيّ في تاريخ ابن شجرة. وهي أنصر من الثمانين التي ذكرها العلوي البصري في قوله:

عبرت إليهم في ثمانين فارساً،
فأدركت منهم بغيتي ومراديا

ولولا خشية الغلو لقلت: ومن ثمانين ألفاً ذكرها السننسي في قوله:

ثمانون ألفاً، ولم أحصهم، **وقد بلغت رجمها أو تزيد**

وكيف لهمَّام بن غالب أن ترميه الحوادث بهذه الثمانين، كما رمته بسنيه في قوله:

رمتني بالثمانين الليلي، **وسهم الدهر أقتل سهم رام**

ولو ملكها راعي ثمانين الذي يقال فيه، أحق من أعي ضأن ثمانين، لجعلت له عقلاً صافياً، وثوباً من الدعة صافياً.

والمثل السائر: وجدان الدعة والرقيق، يذهب أفن أفين، ويروى: يغطي أفن الأفين. وليس للرقعة، شرف هذه الأشكال المشرقة، وللذهب على الفضة صرف، والمكارم لها عرف. وهو يعرف حكاية الحطيئة مع سعيد بن العاص لما قال له: أيُّ الناس أشعر؟ قال: الذي يقول، وهو أبو دؤاد الإيادي:

لا أعدُّ الإقتار عدماً ولكن **فقد من قد رزنته الإعدام**

قال: ثم من؟ قال: الذي يقول وهو حسان بن ثابت:

ربِّ علم أضاعه الما **ل وجهل غطى عليه النعيم**

قال: ثم: قال: الذي يقول وهو أعشى قيس:

بيضاء ضحوتها وصف **راء العشيّة كالعراة**

قال: ثم من؟ قال: ثم حسبك بي إذا وضعت رجلاً على رجل، ثم عويت في آثار القوافي، كما يعوي الفصيل في آثار الإبل.

وقال الشاعر:

وجدت بني الجعراء قوماً أدلةً **ومن لا يهنهم يمس وغداً مهضماً**

وأحمق من راعي ثمانين ترتعي **يجنب الستار بقل روض موسماً**

وتلك الثمانون، ألقى فيها الربيع إلى أن يصير قيراطها قنطاراً، ولا فتى كلُّها معطراً أي هو قريب من عطر، لا يعدم في صيام ولا فطر، أوفر حظاً في الحمدة من التي ذكرها الحراني السلمي، أبو الحلم عوف بن الحلم في قوله:

إنَّ الثمانين، وبلغتها، **قد أحوجت سمعي إلى ترجمان**

وبدلتني بالشطاط الخنا

وكنت كالصعدة تحت السنان

لأن التي ذكرها تضعف، وهذه تنعش وتسعف، وتلك تجعل الرجل بعد كونه كالقناة، كأنه قوس في أيدي الحناة، وهذه تقيم الأود، وتسرع الأسود. والبيت المنسوب إلى أبي العتريف معروف:

حبشي له ثمانون عيباً

كسبته مهابة وجالا

ولعله قد اجتاز في أرض الموصل، بالقرية التي تعرف بثمانين وهي قريبة من الجبل المعروف بالجودي، فإن كانت ثمانون القرية وطن أناس، فهذه تجري مجرى الوطن في الإيناس، كما قال:

الفقر في أوطاننا غريبة،

والمال في الغربية أوطان

لله درّ الذهب من خليل، فإنه يفيء بظلّ ظليل؛ وإن دفن لم يبال، ما هو كغيره بال؛ أعطي نفيس المقدار، فما همّ شرفه بانحدار؛ والدر إذا كسر ذهب قيمته، ولم يحفظ إن تنحطم كريمته، وربّ ذهب في سوار، غبر زماناً غير متوار، ثم جعل في خلخال، تختال بلبسه ذات الخال، ثم نقل إلى جام أو كاس، وهو بحسنه كاس، ما تغير لبشار النيران، ولا غدر بوفي الجيران. ولعل هذه الثمانين، قد أدرك ذهبها قارون، وموسى المرسل وأخاه هارون، وليس للهلكة به اتصال، ولا من العزة له انفصال، يعظم في أرض السند، وبلاد الهند. وأمّا ابنة الأخت، أدام الله لها الصيانة، فإنها أدلت على الخال إذ كان أحد الوالدين، فهمت أن تأكل بيدين، وما هي بأخت للرجل الذي قال فيه القائل:

وراء الثأر مني ابن أخت

مصع، عقدته ما تحل

ولا تجعلها أختاً للهجرس لأنه طالب خاله بثأر، فلم يقبح ما فعل من الآثار، ولكن تشبه أن تكون أختاً لابن مضرس حين فاتتها الأخوة من الهجر، وهو المعروف بالخنوت واسمه توبة، وكان له أخ يقال له طارق رهط خاله، فرأى أن يقتل خاله، وقال:

بكت جزعاً أمي رميله أن رأته

دماً من أخيها في المهند باديا

فقلت لها: لا تجزعي إن طارقاً

حميمي الذي كان الخليل المصافيا

وما كنت، لو أعطت ألفي نجبية

وأولادها لغواً تساق، وراعيا

لأرضى بوترٍ منهم دون أن أرى

دماً من بني عوفٍ على السيف جارياً

وما كان في عوفٍ دم لو أصبته

ليوفيني من طارقٍ غير خاليا وهو القائل:

لتبك النساء المعولات لطارقٍ

ويبكين مرداساً قتيل قنان

قتيلان لا تبكي المخاض عليهما،

إذا شيعت من قرملٍ وأفان

ويجوز أن يكون قد رشح إلى هذه المرأة شيء من آداب الخوالة، فليتق معرفّة بيانها، أكثر من اتقائه خلسة بناهما. فهو يعلم أنّ الشعر ورثه زهير بن أبي سلمى من خاله بشامة بن الغدير ولم يكن مزينة شعر يذكر، وحضره زهير عند الوفاة فأراد أن يعطيه شيئاً من ماله، فال بشامة: أما بكفيك آتي ورثتك غرائب القصيدة؟ وربما كان في نساء حلب، حرسها الله، شواعر، فلا يأمن أن تكون هذه منهنّ، فطالما كنّ أجود غرائز من رجاهنّ، وحدث رجل ضريير من أهل آمد يحفظ القرآن، يأنس بأشياء من العلم، أنّه كان وهو شاب له امرأة مقينة تزين النساء في الأعراس، وكان ينجم في القرع، وكان يعتمد حفظ تلك الأشعار ويدرسها في بيته، ولا غريزة له في معرفة الأوزان، فيكر البيت. فتقول له امرأته الماشطة: وبلي! ما هذا جيد! فيلاجها ويزعم أنّها مخطنة. فإذا أصبح مضى فسأل من يعرف ذلك، فأخبره أنّ الصواب معها، وعرفه كيف يجب أن يكون، فإذا لقنه عنه، عاد في الليلة الثانية، فذكره وقد أصلح، فتقول الماشطة: هذا الساعة جيد. وكان لي كرى من أهل البادية عرف بعلوان وله امرأة تزعم أنّها من طيّ، فكان لا يعرف موزون الأبيات من غيره، وكانت المرأة تحس بذلك. وكانت تتأسف على طفلٍ مات لها يقال له رجب، وكانت تنشد هذا البيت:

إذا كنت من جرّاً حبيبك موجعاً

فلا بدّ يوماً من فراق حبيب فقالت يوماً:

إذا كنت من جرّاً رجب موجعاً

فعلمت أنّ الوزن مختلّ، فقالت:

إذا كنت من جرّاً رجيبين موجعا

فحركت التنوين وأنكرت تحريكه بالطبع. فقالت:

إذا كنت من جرّاً رجيبك موجعا

فأضافته إلى الكاف فاستقام الوزن واللفظ.

وفي الكتاب العزيز "يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم، وإنّ تغفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم".

مذهب الحلول

وأما أبو بكر الشبلي، رحمه الله، فلا ريب أنّه من أهل الفضل، وأرجو أن يكون سالماً من مذهب الحلولية.

وأنشدني له منشد:

باح مجنون عامر بهواه

وكتمت الهوى، قفزت بوجدي

وإذا كان في القيامة نودي

أين أهل الهوى؟ تقدمت وحدي هكذا أنشدته: نودي بسكون الياء، ولا أحب ذلك وإن كان جائزاً، وإتّما يوجد في أشعار الصّعفة من الحديثين.

فإن صحّ أن هذين البيتين له، فلا يمتنع أن يعترض عليه قائل فيقول: من زعم أنّه صافٍ، فما يجب أن يأتي بغير الإنصاف، وادّعاؤه الانفراد من العالم لا يسلمّه إليه البشر، إن كان هواه للمخلوقين أو الخالق ولا يقين، فله في الأمم نظراء كثير.

وأنا أعتذر إلى مولاي الشيخ الجليل من تأخير الإجابة، فإن عوائق الزّمن منعت من إملاء السّوداء، كأنّها سوداء التي عناها القائل:

نبئت سوداء تنائي وأتبعها

لقد تباعد شكلانا وما اقتربا

وجدتها في شبابي غير مطلبة،

فكيف والرأس جون، تسعف الطلبة وأنا مستطيع بغيري، فإذا غاب الكاتب، فلا إملاء. ولا ينكر الإطالة عليّ، فإنّ الخالص من التضار العين، طالما اشترى بأضعافه في الزّنة من اللجين، فكيف إذا كان الثمن من النميات يوجدن في الطّرق مرميات؟ وعلى حضرته الجيلة سلام يتبع قرومه إقاله، وتلحق بعوذه أطفاله.

4	وصول الرسالة
4	شجرة طيبة
7	خمر الجنة
15	ايمان الأعشى
22	النابغتان
27	ليبد
30	ميمية المخبل السعدي
31	رباب
34	حسان بن ثابت
35	عوران قيس
35	قصيدة الشماخ
38	تميم بن أبي
39	مدح رضوان
40	مدح زفر
41	حمزة بن عبد المطلب
42	قاضي حلب
42	توبة علي بن منصور
43	فاطمة بنت محمد
45	حميد بن ثور
51	جران العود
56	آداب الجن
66	الخنساء السلمية
68	قول عدي بن زيد

72 عنتره العبسيُّ
75 عمرو بن كلثوم
77 طرفه بن العبد
83 الندامي
86 آدم كان ينطق العربية في الجنة
87 ذات الصفا
92 العجاج
101 سيويه
104 دين دعبل
107 شاتم الدهر
110 صالح بن عبد القدوس
117 الحلاج
124 ابن الرومي
127 الإفشين
128 بابلك
128 الكيسانية
129 ابن الراوندي
134 عمر بن عبد العزيز
134 عمر بن الخطاب
140 أبي الهذيل العلاف
154 الفرزدق
158 مذهب الحلول

[to pdf: http://www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)